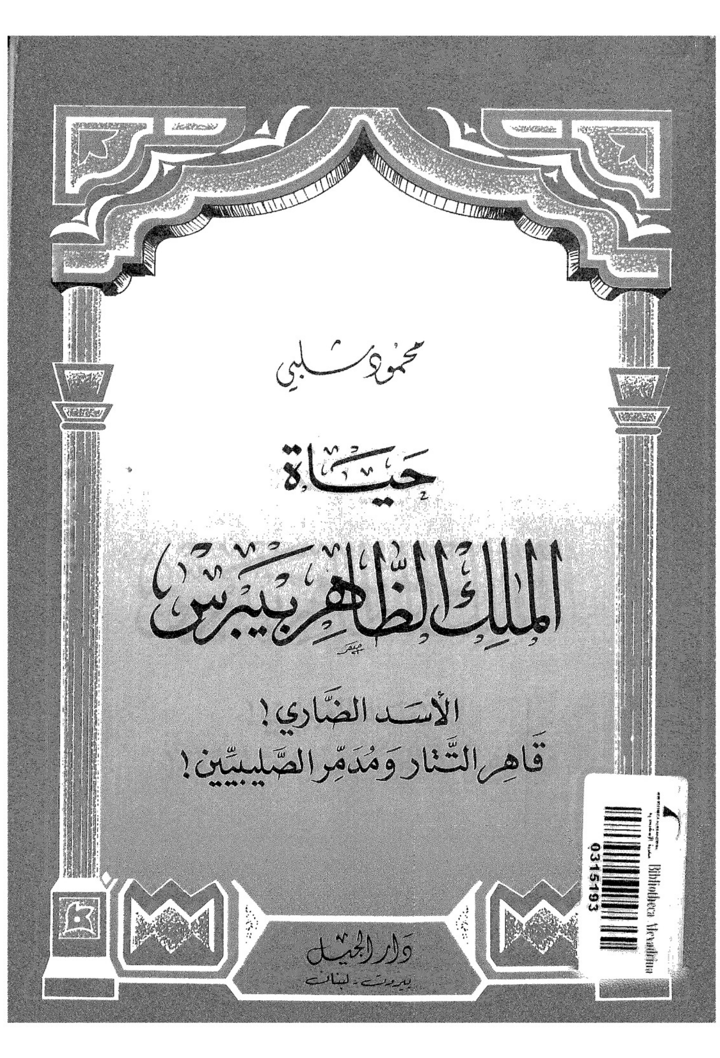

محمود شلبي
حياة
الملك الظاهر بيبرس
الأسد الضاري!
قاهر التتار ومدمر الصليبيين!
دار الجيل
بيروت - لبنان

حياة
الملك الظاهر بيبرس

محمود شلبي

حياة الملك الظاهر بيبرس

الأسد الضّاري!
قاهر التّتار ومدمّر الصّليبيّين!

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

الاهداء

اللهم . . . منك . . . وإليك

محمود شلبي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

احمدك اللهم حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه...

وأصلي... وأسلم على سيد النبيّين... عدد الخلق أجمعين...

وبعد...

بعد توفيق الله... في اصدار «حياة الملك المظفّر قُطُز»... اصبح لزامًا اصدار «حياة الملك الظاهر بيبرس»... ان شاء الله...

ذلك أنّ كلًّا منهما كان بطلًا أسطوريًا في معركة تاريخية فاصلة... هي معركة «عين جالوت»...

كان السلطان قُطُز فيها هو القائد الأعلى للجيش...

وكان الأمير بيبرس... هو القائد العام للقوات المسلحة...

فلمّا كان الالتحام مع التّتار...

ألقى السلطان بخوذته... واندفع بنفسه يباشر القتال!!!

وألقى بيبرس بنفسه الى المعركة في اندفاع يشيب من هوله الولدان!!!

لا يذكر السلطان أنه سلطان!!!

ولا يذكر القائد العام أنه قائد عام!!!

وإنما يذكر ان شيئًا واحدًا... أنّ الله أمرهما أن يقاتلا هذا العدو دفاعًا عن الاسلام... واعلاءً لدين الله!!!

وكان النصر . . . وأخزى الله قومًا لم يُقهَر لهم جيش مِن قبل!!!
هذان البطلان . . . قُطُز . . . وبيبرس . . .
كل منهما يُكمِّل الآخر . . .
قُطُز مقدمة بيبرس!!!
وبيبرس نتيجة قُطُز!!!
فكان لزامًا . . . أن تصدر «حياة بيبرس» . . . بعد صدور «حياة قُطُز»!!!

١٤١١ هـ

١٩٩١ م

محمود شلبي

أصْل ...
المماليك[1] ...؟!

(١) مختصرًا من « عصر سلاطين المماليك » تأليف محمود رزق سليم.

مصر في عهد المماليك

٦٤٨ هـ - ٩٢٣ هـ . (١٢٥٠ م - ١٥١٧ م)

نقصد بهذا العصر، الفترة التي حكم فيها سلاطين المماليك في مصر، منذ انقضاء عهد الأيوبيين عام ٦٤٨ هـ إلى أن فتحها الأتراك العثمانيون عام ٩٢٣ هـ.

أصل المماليك

كان الرق منتشرًا في العصور الوسطى، وكانت تجلب الغلمان المرد والفتيان الحسان من بلادهم البعيدة إلى أسواق الرقيق، حيث توجد الرغبة في اقتنائهم، وحيث يتنافس في ذلك المتنافسون للخدمة أو اللهو. وكان هناك تجار أخصاء، هم النخاسون، يعرضون هذه الأجسام البشرية بضاعة في الأسواق العامة وغير العامة، ويصفون محاسنها للناظرين.

أما طريقة جلبهم لهذه البضاعة فالسرقة والخطف، يسرقون الغلمان، ويختطفون العذارى من أهلهم، ثم يستحلون بيعهم للناس ويستحل الناس شراءهم. وقد ينتشر قحط أو غلاء، أو يعم وباء، فتهون حينذاك فلذ الأكباد على أهلها. فيفرطون فيها بالبيع، تخفيفًا للبلوى، وحفظًا للرمق، بما يدفعه

لهم الشاري الكريم، ومما كان يساعد على رواج تجارة الرقيق الغارات الحربية التي يشنها غاز فاتح قاس غليظ القلب، على أهل بلد وادعين آمنين، فيفرق شملهم ويبدد جمعهم وييتم الولدان، ويسبي الجواري الحسان. فينشط النخاسون حينذاك، ويغالون في شراء هؤلاء. ولم لا يغالون؟ وفي انتظارهم خلفاء وملوك وأمراء ووزراء وعظماء، على أهبة لقائهم بصرر الدنانير الذهبية والأعطيات الثمينة أجرا لبضاعتهم الجيدة!. لقد كان منهم من يدفع الألف والألفين بل والآلاف، ثمنًا لجارية جميلة أو غلام وسيم. ومما ساعد على رواج هذه التجارة أيضًا ما يتوقع من الحظ الحسن للأرقاء في مستقبل حياتهم. فلقد تدفع بهم الأقدار إلى أن يصلوا إلى ما يصل إليه أحرار الرجال وعقيلات النساء، من عز ورفاهية ومجد وطيب أحدوثة.

لهذا انتشر الرق في العصور الوسطى. وكان الأرقاء فيها أحيانا ضربا من المنح والهدايا، يتبادلها العظماء والمترفون. وتذوق الناس وجود الرقيق بلا غرابة ولا استكراه، وكثر التسري، وتعددت جيوش الجواري في القصور، وامتلأت أروقتها بالغلمان، وأصبحوا أحيانًا أولي قوة وأولي بأس شديد.

ولم يبلَ بالرق شعب دون آخر، أو جنس دون غيره. فلقد كان من الأرقاء: التركي والجركسي والرومي والزنجي والحبشي والفارسي وغيرهم. وأروج ما كانت تجارتهم في الأجناس التركية والجركسية، لما تتصف به من جمال وطيب مجلس، ولما ابتليت به بلادهم من غارات وحروب طاحنة.

واستكثر منهم خلفاء بني العباس والفاطميون والأيوبيون وغيرهم. ولقد كان لمصر نصيب من هؤلاء كبير.

وقد ذكر بعض مؤرخي عصرنا الحاضر، أن أول من استخدم المماليك الأتراك في مصر، وجلبهم إليها، واستعان بهم على تثبيت سلطانه، خلفاء الفاطميين، تشبها منهم ببني العباس ببغداد، ثم اقتفى أثرهم في ذلك ملوك الدولة الأيوبية.

ولكن الحق أن أول من استخدمهم وجلبهم إلى مصر، وجعلهم عمدة جيشه هو «أحمد بن طولون». وهو أول الولاة الذين استقلوا بمصر بعد الفتح العربي... فقد قال القلقشندي في صبح الأعشى بالجزء الثالث عند الكلام عمن ولي مصر ملكًا قبل دولة الفاطميين ما يلي: «وأولهم أحمد بن طولون... وفي أيامه عظمت نيابة مصر، وشمخت إلى الملك، وهو أول من جلب المماليك الأتراك إلى الديار المصرية، واستخدمهم في عسكرها».

وقال ابن إياس في الجزء الأول من تاريخه عند ذكر دولة الأمير أحمد بن طولون ما يلي: وقال ابن وصيف شاه: فلما تم أمر الأمير أحمد بن طولون في ولايته على مصر، واستقامت أحواله بها، استكثر من مشتري المماليك الديالمة، حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك».

فأنت ترى أن ما اشتراه ابن طولون من هؤلاء المماليك - على فرض المبالغة في عددهم - كان خير نواة لوجود المماليك في مصر. وقد اتبع هذه السنة ملوك الفاطميين وخلطوا في جندهم بين أجناس مختلفة. ولما آل الملك إلى صلاح الدين الأيوبي اتخذ جنوده من الأكراد ومجلوبي المرتزقة، وحذا خلفاؤه حذوه.

ثم جاء الملك الصالح نجم الدين بن أيوب في سنة ٦٣٦ هـ، فرأى أن يثبت ملكه بجنود جدد، فاستكثر من مشترى المماليك الأتراك، ونشأهم تنشئة عسكرية. غير أنهم كانوا كثيري العبث والشر، يجوسون خلال الأسواق، وينهبون البضائع من التجار، حتى علا الضجيج بسببهم. فبنى لهم سيدهم قلعة خاصة بجزيرة الروضة ليقيموا بها ولا يبرحون. وسماهم البحرية واتخذ منهم أمراء دولته وخاصته وبطانته وحراسه. وكانوا أقل من ألف مملوك.

وقد كان هؤلاء البحرية عضدًا قويًا للملك الصالح حرسوا ملكه وذادوا عنه، وثبتوا دعائمه، وأبلوا بلاء عظيمًا في موقعة «المنصورة» التي هزموا فيها

الفرنجة. وعلى يد هؤلاء البحرية انتقل الملك من بني أيوب إلى أمراء المماليك، فملكوا مصر وأصبح منهم سلاطينها وكونوا فيها طبقة حاكمة جديدة ودولة من طراز جديدة هي «دولة المماليك».

وإذا ما أطلقنا هنا لفظ «المماليك» أو «دولة المماليك» فإنما نقصد الدولة التي كونها هؤلاء دون من تقدمهم في عصر الأيوبيين أو الفاطميين، أو تأخر عنهم في العصر العثماني.

وقد تتابع سلاطينهم على عرش مصر زهاء ثلاثة قرون. وقد جدّ السلاطين والأمراء في مشترى المماليك الجدد باستمرار. فكان من هؤلاء الجدد المدد التقليدي لهذه الطبقة الحاكمة. وقد ساعدهم على مشتراهم تعدد هجمات التتار إذ ذاك على أواسط آسيا الخوارزمشاهية وبلاد التركمان وشرق آسيا الصغرى، وغير ذلك من نواحي آسيا. فكثر سبي الصغار وفرار الكبار أمام هذا الخطر الداهم: وأقبل سلاطين مصر وأمراؤها على شراء هؤلاء المماليك، وغالى بعضهم في ذلك، ورفع أثمانهم حتى كانت الآباء تعطي أبناءها للنخاسين القادمين إلى مصر وتوصيهم ببيعهم فيها، لما كان يدفع فيهم من ثمن كبير، ولما كان ينتظرهم من مجد خطير.

ولو أنك رجعت إلى سيرة كثيرين من سلاطين دولة المماليك، وأمرائها، لوجدتهم من هذه المماليك المشتراة. وإليك أخبارًا عن بعضهم، نقلًا عن ابن إياس:

الملك الظاهر بيبرس: أصله تركي الجنس، أخذ من بلاده وهو صغير، فبيع لشخص يسمى العماد الضائع، ثم اشتراه منه الأمير علاء الدين البندقداري، ثم آل ملكه إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبي. ثم أعتقه وجعله من جملة المماليك البحرية. ثم دفعت به الأقدار فصار أتابك العسكر في دولة المظفر قُطُز. فلما قتل قُطُز صار بيبرس سلطانًا..

والملك المؤيد شيخ المحمودي: أصله من مماليك الظاهر برقوق، اشتراه من

الخواجا محمود شاه، وأعتقه وأخرج له خيلًا، ثم أخذ يترقى فصار أميرًا ونائبًا، وعاونته الأيام حتى أصبح سلطانًا على مصر، بعد خلع الخليفة المستعين بالله العباسي.

والملك الأشرف قايتباي: أصله من الجركس، جلبه إلى مصر الخواجا محمود، فاشتراه الملك الأشرف برسباي هو وعدة مماليك صغار، كل مملوك بخمسين دينارًا، ثم أعتقه وترقى في سلك الإمارة، حتى بلغ الأتابكية فالسلطنة بعد خلع تمريغا.

وعلى مثال مما تقدم تجد الأمراء. حقًّا قد ولي سلطنة مصر في ذلك العصر أحيانًا ملوك لم يكونوا من قبل أرقاء مثل: الناصر محمد بن قلاوون، والناصر محمد بن قايتباي، والمنصور عثمان بن جقمق. وهؤلاء وهؤلاء أبناء ملوك، حكم آباؤهم من قبل، فورثوا عنهم الملك؛ ولكن بعد أن جرى الرق على آبائهم، وربما جرى على أمهاتهم أيضًا.

ويروى عن شيخ الإسلام «عز الدين بن عبد السلام» أنه صمم يومًا على بيع عدد من أمراء الدولة الأتراك، لأنه لم يثبت لديه أنهم أحرار. وكان هو إذ ذاك قاضي القضاة. فاعتقد أنهم من جملة مال المسلمين، وأنهم ملك لبيت المال. فعجب الأمراء! وكان بينهم نائب السلطنة!... فأرسلوا إلى الشيخ يطلبون عدوله عن ذلك، ولاطفوه ولاينوه، فلم يزدد إلا إصرارًا على رأيه، ولبث لا يجيز لهم بيعًا ولا شراء ولا نكاحًا ولا أي نوع من أنواع المعاملة، حتى لحقهم من ذلك أذى كثير، مع أنهم سادة الناس وحكام الأرض. فغضبوا وهمّ أحدهم بضرب هامة الشيخ بالسيف تأديبًا له، فيبست يده.! فأسقط في يده، وانتهى الأمر بعرضهم للبيع، وغالى الشيخ في بيعهم وضم ثمنهم إلى بيت المال، لينفقه في شئون المسلمين».

هذا. ونظرًا إلى أن هؤلاء المماليك، وفيهم السلاطين والأمراء، أرقاء، والأرقاء لا ينسبون عادة إلى آبائهم، تجد أغلبيتهم العظمى قد نسبت إلى غير

الآباء والأجداد جريًا على العادة المذكورة. وينسب أحدهم إلى من اشتراه من السلاطين والأمراء فيقال مثلًا: شيخو الناصري نسبة إلى الناصر حسن حفيد قلاوون، لأن شيخو من مشترياته ومعتوقيه. أو ينسب إلى من باعه من التجار فيقال مثلًا: «برقوق العثماني» نسبة إلى الخواجا عثمان بائع الرقيق الذي جلبه إلى مصر. أو ينسب إلى مبلغ المال الذي اشترى به. فيقال مثلًا: «قلاوون الألفي» لأن الأمير علاء الدين آق سنقر اشتراه بألف دينار.

هذه طريقة نسبتهم. ومن الحق أن نقول إن النسب إلى الشاري أكثر من النسب إلى غيره، وأن المملوك قد ينسب إلى أكثر من واحد، ممن تداولوا ملكه. وقد ينسب إلى البائع والشاري معًا، وهكذا.

ويظن المرء لأول وهلة أن مماليك مصر هؤلاء، كلهم من الجنس التركي أو الجركسي، والواقع أن فيهم من أجناس اخرى عددًا، **فمنهم التركي كالظاهر بيبرس**، والجركسي كالأشرف قايتباي، والتتري كالعادل كتبغا والقبجاقي كالمنصور قلاوون والهندي كالأمير جوهر التركماني اليشبكي، والرومي كالظاهر تمربغا. ولكن الجنس التركي والجركسي كانا غالبين. وكانت للجنس التركي السيادة في الدولة الأولى «الدولة البحرية»، وللجنس الجركسي السيادة في الدولة الثانية «الدولة البرجية أو الجركسية». وكان من الأجناس الأخرى جماعات من الأويراتية، وهم طائفة من المغول، استقدمها إلى مصر العادل كتبغا المنصوري، وهيأ لهم مساكن مناسبة، وقد كانت مساكنهم الأولى على مقربة من جبال الأكراد. وكان منها أيضًا طوائف من التركمان واللاظ والكرد والقرانصة والأرمن والخطا. وكثرت أنواعهم وتعددت في الجزء الأخير من الدولة الجركسية.

ويلاحظ أن المملوك كان يشترى صغيرًا، ثم يربى غير أنه في أخريات الدولة الجركسية جلبت المماليك كبارًا. ومنهم من كان عاملًا أو صانعًا محترفًا قبل جلبه. فكان ذلك من جملة أسباب فسادهم...

انتقال الحُكْم . . .
من الأيوبيين . . .
إلى المماليك[1] . . . ؟ !

(١) مختصرًا من نفس المرجع السابق.

أخذ عدد المماليك يتكاثر في مصر زمن الأيوبيين وأخذ نفوذهم يزداد ويعظم. وكلما أصاب الضعف ملوك الأيوبيين، ونهكهم الترف والانغماس في الملذات، ودب بين أمرائهم الشقاق، وقادتهم الأطماع غير المشروعة، أتاح ذلك لمماليكهم أن يكونوا ذوي شأن وسلطان، لأنهم اليد العاملة، والقوة الفعالة في ملاقاة هذا الضعف، وفي فض هذا النزاع. فأكسبهم ذلك بأسًا على بأس، وسلطانًا فوق سلطان.

وقد قوي بأسهم في عهد الملك الصالح نجم الدين الأيوبي. فإنه بعد أن استعان بفريق منهم على نزع الملك من أخيه العادل سيف الدين عام ٦٣٦ هـ، اشترى عددًا كبيرًا من المماليك ومرنهم تمرينًا عسكريًا، واتخذ منهم حراسًا وجندًا. ولكن كان فيهم شر، وضج الناس من شرهم فبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة بالقرب من المقياس، وأسكنهم بها وسماهم «البحرية»، وأنشأ حول تلك القلعة مستودعات حربية مملوءة بالسلاح والذخيرة. وأمرهم ألا يخالطوا الناس بالمدينة، وأجرى عليهم الرواتب والطعام والشراب والكسى. وكانوا دائمًا على قدم الاستعداد لتلقي أوامره للخروج إلى القتال.

وأخذ نجمهم في الصعود، منذ أن هيئت لهم الفرصة، لقتال الفرنجة والتغلب عليهم، وأسر ملكهم لويس التاسع ملك فرنسا عام ٦٤٧ هـ في موقعة فارسكور والمنصورة، وكان ملكهم الصالح قد أهاب بهم ودعاهم إلى القتال.

وكانت الأخبار قد تواردت بأن «روا دي فرانس» أي ملك فرنسا، أتى في جموع من الفرنجة زاخرة، وفي ألوف من المقاتلين، تحملهم السفن إلى «دمياط» حيث ظلوا يحاصرونها زمنًا. ثم ضيقوا عليها الخناق، وخاف أهلها من القتل والسبي، فهجروا مدينتهم فارين تحت جنح الليل، فدخلها الفرنجة في الصباح. ومن ثم شرعوا يزحفون على بقية البلاد متجهين نحو مدينة المنصورة، مقيمين في طريقهم الاستحكامات. وكان الملك الصالح قد أهاب بمماليكه البواسل فأحاطوا به وحملوه في محفة لمرضه، وساروا به نحو مدينة المنصورة، ونودي أن يجتمع إليهم عربان الجهات، ليتعاون الجميع على دفع العدو عن البلاد.

هنا فتك الملك الصالح بنائب دمياط، وطائفة أخرى من أمراء المماليك، كانوا معه في إخلاء المدينة، وفراره منها، وتركها غنيمة باردة في يد الفرنجة، فأنف مماليك السلطان من غدره، وحاولوا الفتك به جزاء لما قدمت يداه. ولكنهم تريثوا حتى يوقعوا بالفرنجة، وبعد ذلك يحاسبونه عما فعل. ولكن الموت سبقهم إليه، وكفاه شرهم... فكتُم موته حتى لا تكون إذاعته سببًا في تخاذل جنده، وتقوية الروح المعنوية عند الفرنجة، فتكون العاقبة وخيمة. وحملت جثة الملك في زورق، وسير به تحت ستر الليل إلى القاهرة، ودفن بالقلعة مؤقتًا. وأرسلوا إلى ابنه «المعظم توران شاه» ـ وكان مقيمًا في حصن «كيفا» ببلاد الشام ـ وقام أمراء المماليك بتدبير الأمور حتى يعود. وكان على الأمراء: **حسام الدين لاجين، وفارس الدين أقطاي، وعز الدين أيبك، وبيبرس البندقداري**. وأقاموا عليهم زوجة الملك الراحل ـ وهي «شجرة الدر» أم خليل ـ زعيمة، يأتمرون بأمرها، ويصدرون عن رأيها. فكان ذلك منهم أول خطوة في سبيل التآمر على ملك الأيوبيين، وقلب نظام الحكم فيه، وكان فيه تثبيت لنفوذهم وإعلان مبدئي بأطماعهم.

عاد «توران شاه» بعد نحو ثلاثة شهور من دعوته لتسلم مقاليد الحكم.

فدخل القاهرة، وأذيع موت أبيه الصالح، ونودي له بالسلطنة وتلقب بالمعظم. ثم اجتمع المماليك تحت إمرته صفا، وتحفزوا للقاء عدوهم بحماسة للجهاد وحب للاستشهاد. وكانت الأخبار قد توالت بزحف الفرنجة نحو «فارسكور». فخف إليهم جيش المماليك سائرًا إلى شمال «المنصورة»، يعاضده جمع عظيم من فلاحي البلاد ومعهم المقاليع والحجارة. وعاونتهم أمداد من الشمال، ضغطت على العدو فأصبح بين قوتين. وكانوا قد أرسلوا هذه الأمداد من قبل، ومعها سفائن محمولة على جمال لينزلوها في البحر تجاه دمياط، ومن ثم تسير في النيل نحو الجنوب. ثم هجم رجال القوتين هجمة صادقة على العدو فأبادوا جمعه، وشتتوا شمله، وأسروا منه عددًا كبيرًا، ومنهم لويس التاسع نفسه فسجنوه في دار القاضي فخر الدين بن لقمان بالمنصورة، ووكلوا حراسته إلى الطواشي صبيح. فظل في سجنه حتى افتدى نفسه بالمال. وقتل في هذه المعركة من الفرنجة نحو ثلاثين ألفًا، عدا من أخذ أسيرًا، وعدا الغنائم والأسلاب.

وبهذه المناسبة تذكر ما رُوي عن لويس هذا من أنه بدا له أن يعود إلى غزو مصر في عهد سلطنة المنصور بن عز الدين بن أيبك، فبعث إليه المنصور رقعة يهدده فيها وفيها أبيات ساخرة للشاعر ابن مطروح. وهي:

قل للفرنسيس إذا جئته	مقال صدق من قئول فصيح
آجرك الله على ما مضى	من قتل عباد يسوع المسيح
قد جئت مصر تبتغي أخذها	تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
رحت وأصحابك أودعتهم	بقبح أفعالك بطن الضريح
خمسون ألفًا لا يُرى منهمُ	إلا قتيل أو أسير جريح
فردك الله إلى مثلها	لعل عيسى منكمُ يستريح
إن كان «باباكم» بذا راضيًا	فرب غبن قد أتى من نصيح

وقـل لهم إن أضمـروا عـودة لأخـذ ثـأر أو لقصـد صحيـح
دار ابـن لقمان على عهـدهـا والقيـد بـاق والطـواشي صبيـح

فرجع لويس عن عزمه.

وفي هذه الموقعة التي شرحناها، ظهر تضامن طبقات الشعب ظهورًا محمودًا. وقد أسهبنا في شرحها، لأنها السبب المباشر لتوطيد سلطة المماليك وظهور قوتهم، وبروز أطماعهم، وظلوا من بعدها يتلمسون الفرصة للوثـوب العملي إلى عرش البلاد.

وقد أتيحت لهم هذه الفرصة عندما أساء إليهم «توران شاه» وإلى شجرة الدر معًا. إذ كف عنهم الخير، وتوعدهم بالأذى، وفضل عليهم أخصاءه الوافدين معه من الشام. وكان أولى له أن يتخذ من مماليك أبيه هؤلاء قوة وسندًا، وعونًا وعضدًا، لتدبير ملكه وحفظ عرشه، وبخاصة بعدما ظهر منهم من قوة ونشاط وشجاعة وإقدام، وبعد أن كانوا سببا في انتصاره ودحر عدوه. لذلك كان انصرافه عنهم وتهديده لهم طيشًا منه وحمقًا، دفعهم إلى الائتمار عليه. وما زالوا به يأتمرون حتى قتلوه أشنع قتلة وأبشعها. وملكوا عليهم من بعده زوجة أبيه «شجـرة الدر». وأطاعوها تبعًا لذلك ولما بدا منها لهم من عدل وكياسـة، ولما فـرقتـه عليهـم مـن وظـائـف وأعطيـات. أو بالأحرى، لإطاعتها لهم وائتمارها معهم، وانطوائها تحت كلمة أحد زعمائهم وهو الأمير «عز الدين أيبك». فعينته «**أتابك العساكر**» **أي قائد الجند، وهي أرفع مرتبة في الجيش**. فكان عز الدين المدبر لمملكتها وصاحب الرأي في دولتها، على الرغم مما يقال من إنه كان لا يتصرف في الأمور إلا بعد مشورتها.

ضربت «شجرة الدر» الحجاب على نفسها، فكان لذلك أثره في ضعف مشورتها، وصعوبة اتصالها بأمرائها، وحسن اطلاعها على مهام دولتها. زد على ذلك أنها كانت أول امرأة مملكة في الإسلام، فكان تمليكها غريبًا، حتى قيل

إن الخليفة العباسي ـ على ضعفه ـ أرسل إلى المماليك ينعي عليهم أن يملكوا امرأة... كان ذلك كله حافزًا لهم على إعادة النظر في أمر الملك من جديد، وكثر بينهم الأخذ والرد. حتى رأت شجرة الدر بثاقب نظرها، وبعيد رأيها، أن تخلع نفسها من الملك، بعد أن مكثت فيه نحو ثمانين يومًا. ثم استشير الأمراء والقضاة لاختيار سلطان جديد، فتمت المشورة بسلطنة الأمير «عز الدين أيبك». ثم تزوج هذا الأمير من «شجرة الدر»، ليكون ذا صلة بالبيت المالك القديم، مع أنها زوجة سيده.

كان ذلك في ربيع الآخر عام ٦٤٨ هـ. فركب «عز الدين» في حفل جامع زاخر، وبأبهة وجلال، وأجلس على سرير الملك. وقبل الأمراء الأرض بين يديه، ولقبوه «بالملك المعز». فكان أول سلاطين المماليك بالديار المصرية، وعلى يده انتقل الملك من الأيوبيين إلى طائفة المماليك، فمن بعده توالى سلاطينهم على عرش البلاد سلطانًا بعد سلطان.

دولتا . . .
المماليك . . . ؟!

دولتا المماليك

٦٤٨ هـ - ٩٢٣ هـ

بدأ عصر سلاطين المماليك عام ٦٤٨ هـ على يد الملك المعز «عز الدين أيبك» وظلوا يحكمون البلاد المصرية حتى عام ٩٢٣ هـ أي نحو ٢٧٥ سنة، وانتهى عهدهم بالاحتلال العثماني. وانقسموا خلال هذه الحقبة دولتين هما: «الدولة البحرية» و«الدولة البرجية أو الجركسية» ولنتكلم عن كل منهما بإيجاز، فنقول:

الدولة البحرية ٦٤٨ هـ - ٨٧٤ هـ

مؤسسها «عز الدين أيبك». وحكمت نحو مائة وثلاثين سنة بين سنتي ٦٤٨ هـ - ٧٨٤ هـ «١٢٥٠ م - ١٣٨٢ م». وكلمة «البحرية» أطلقت على طائفة من المماليك قبل تأسيس دولتهم. وهذه الطائفة هي التي أسكنها سيـدها الملك الصالح «نجم الدين الأيوبي» بقلعة الروضة. فعرفوا بالبحرية. وصاحبهم هذا الاسم. وليس معنى ذلك أن كل سلاطين هذه الدولة أو مماليكها من المماليك الصالحية نفسها، بل منهم سلاطين ومماليك من غير

البحرية الصالحية. وذلك لأن هؤلاء تشتتوا من بعد، وأصبحوا في حالة مزرية يرثى لها، بعد قتل رئيسهم «فارس الدين أقطاي» في عهد السلطان الملك «المعز ايبك». لأن هذا السلطان شعر بتآمر الصالحية عليه. فأخذ يقوي نفوذه، ويحصن عرشه، وجند لنفسه مماليك جددا سموا بالمعزية، ثم بطش بالبحرية فقتل زعيمهم «فارس الدين»، وشتت جمعهم فسار كثير منهم إلى الشام. ومع ذلك ظلت هذه التسمية: «البحرية» أيضًا لصيقة بمماليك هذه الدولة فعرفوا بها. وسماهم بها المقريزي في خططه. وسماهم غيره «دولة الأتراك». وقد جمع الملك المنصور قلاوون، بعد ذلك شتات الصالحية وسماهم «البحرية» أيضًا، لأنه أحدهم. فبقي هذا الاسم فيهم وفي بقاياهم، وأطلق على إحدى طوائف أجناد الدولة.

وقد غزت الدولة البحرية جملة غزوات موفقة، وكبحت جماح التتار في عدة وقائع. فدفعت خطرهم عن مصر دفعًا تامًا، وكفكفت من عدوانهم على بلاد الشام. وكان ملوكها بمصر مستقلين، وملكوا باسمها ـ في أغلب أيامهم ـ بلاد الشام وجزيرة العرب، ووصل نفوذهم حينًا إلى شواطئ الفرات والجزيرة، وما وراء ذلك، كما وصل حينًا آخر إلى بلاد المغرب.

والآن نورد ثبتًا موجزًا بأسماء ملوك هذه الدولة مع الإشارة إلى أهم الحوادث في أيامهم ذاكرين أنه تعاقب على العرش منهم أربعة وعشرون، من بينهم أربعة عشر ملكًا من أسرة قلاوون وحدها.

١ ـ الملك المعز «عز الدين أيبك»

٦٤٨ هـ ـ ٦٥٥ هـ

هو عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحي التركماني. كان من مماليك الملك الصالح نجم الدين بن أيوب، فأعتقه، وما زال به حتى رقاه أميرًا. ولما توفي

الملك الصالح اشترك عز الدين في تدبير أمور الدولة، مع بعض أمراء المماليك البحرية، ريثما يعود «توران شاه» ابن الملك الصالح ويتولى عرشه. فلما عاد «توران شاه»، وانهزم الفرنجة، فسد ما بينه وبين أمراء أبيه، فأدى ذلك إلى قتله، وصار الملك إلى «شجرة الدر»، فدبرت ملكها بوساطة «عز الدين». ثم خلعت نفسها، واختير «عز الدين» سلطانًا على البلاد، وتزوج «شجرة الدر» ليحظى بعلاقة بيت الملك. وكانت سلطنته في ربيع الآخر عام ٦٤٨ هـ.

بدأ الملك يصفو لعز الدين، وأخذ هو يضبط اموره. غير أن بلاد الشام اعتلت عليه، وكان قد ملكها الملك الناصر الأيوبي. ويبدو أن الأمراء نفسوا على «عز الدين» أن يصفو له وجه الملك. فانتهزوا الفرصة وأرغموه على إقامة أحد الأيوبيين معه في الملك، لكي يستطيعوا به لقاء الخارجين على ملك مصر. فتم لهم ما أرادوا، واستقدموا إلى البلاد شخصًا من الأيوبيين، اسمه «مظفر الدين يوسف» ابن «الملك مسعود الأيوبي» وسنه عشرون، أقاموه ملكًا أيضًا، ولقبوه بالأشرف. فصار للبلاد ملكان هما: المعز والأشرف! فصبر المعز ريثما قوّى عضده بمماليك جدد سماهم المعزية، وأمر منهم عددًا. ثم انفرد بالملك، وسجن الأشرف، ثم نفاه بعد قليل. وكانت قد وقعت بينه وبين الناصر وقائع، انهزم فيها الناصر، ثم تم الصلح بين الاثنين عام ٦٥١ هـ على أن يكون للمصريين إلى الأردن، وللناصر ما وراء ذلك. وأن يكون للمصريين غزة والقدس ونابلس والساحل كله، وأن تطلق أسرى الشام، إلى غير ذلك. وقد أخمد المعز ثائرة عرب الصعيد والبحيرة وغيرهما، وشنق زعيمه الشريف حصن الدين ثعلبا. ثم رأى أن خطر البحرية قد استشرى، وأنهم استطالوا عليه حتى هموا بقتله، وثقل عليه زعيمهم «فارس الدين أقطاي» - بالرغم من أنه عاونه في غزواته - فاحتال حتى قتله، وأدخل اليأس إلى قلوب أعوانه، فتفرقوا، ومنهم من رحل إلى الشام. وبذلك استراح المعز من المشاغبين عليه، ولم يعد إزاءه غير زوجته الملكة «شجرة الدر». فقد حاول أن

يتزوج سواها فوقع الخلف بينها، وأساء في التصرف معها. قيل: وعزم على قتلها، فأحنقها وأثار غضبها. ولكنها تلطفت به حتى أمكنتها الفرصة فيه، ودست إليه من خدمها من قتله وهو يستحم. وهكذا بدأ العصر بالمؤامرات والدسائس التي لازمته. وكانت وفاة المعز في سنة٦٥٥ هـ بعد أن حكم نحو سبع سنوات. وكان حازمًا شجاعًا سفاكًا للدماء. وقد حُملت «شجرة الدر» بعد قتله إلى أم ولده عليّ فقتلها جواريها ودفنت بعد أيام.

٢ ـ المنصور «نور الدين بن المعز» ٦٥٥ هـ ـ ٦٥٧ هـ

هو نور الدين علي بن المعز أيبك. ولي الملك بعد قتل أبيه عام ٦٥٥ هـ، وكان صغير السن، فدبر له المملكة الأتابكي «قُطُز». وفي عهده زاد خطر التتار، وخربوا بغداد، وأزالوا الخلافة العباسية منها، وهموا بالزحف على الشام ومصر. فشعر أمراء مصر بالخطر الداهم القريب، ورأوا أن يملكوا عليهم أحد كبارهم، ليعتمدوا عليه في صد العدوان. لذلك خلعوا المنصور بعد أن لبث في الحكم قرابة سنتين وثمانية أشهر وملكوا عليهم أتابكيه «قُطُز» عام ٦٥٧ هـ.

٣ ـ المظفّر «سيف الدين قُطُز» ٦٥٧ هـ ـ ٦٥٨ هـ

أصله من مماليك المعز أيبك، وليس من البحرية. ولي الملك بعد المنصور بن المعز، وهو الذي خلعه وقبض عليه وعلى أخيه وأمه وسجنهم، وذلك عام ٦٥٧ هـ. وأعتذر إلى من خالفه ونازعه من الأمراء، بضرورة

التأهب لمحاربة التتار وصدهم عن الديار، ولا يكون ذلك على يد ملك صغير حدث. وأبدى استعداده للتنازل عن العرش متى تم لهم هزيمة العدو، ثم ليقيموا في الملك من يشاءون. وهكذا أخذ يترضاهم، ومن ثم استعد للقاء التتار. وبعد قليل دهم هولاكو التتري مدينة حلب وخربها وقتل أهلها وهدم قلعتها، ولوى جيده إلى دمشق - وكان عليها الملك الناصر - ففر الناصر، واستسلمت دمشق للفاتح. وبعث هولاكو خطابًا إلى قطز يطلب إليه الطاعة والتسليم. فما كان من قطز إلا أن قتل رسل هولاكو، ولم شعث أمرائه، وأعد العدة معهم للقتال، وخرج للقاء التتار بجيوشهم الجرارة الزاحفة. وهناك بفلسطين التقى بهم بموضعين أولها «عين جالوت» وثانيها «بيسان»، فدحرهم شر دحرة، وشتت شملهم، واستولى على الكثير من أسلابهم. وكانت موقعة «عين جالوت» أول موقعة هزم فيها التتار منذ قدومهم من ديارهم. وكان لهذه الهزيمة أثرها المعنوي في نفوس المسلمين، إذ فهموا - على الأقل - أن التتار قوة يستطاع التغلب عليها. وبهذه النصرة وقى الله مصر شر التتار، وفتح أمامها بلاد الشام، فأصبحت تابعة لها إذ استولى قطز عليها من الفرات إلى حدود مصر.

عاد قطز من القتال مظفرًا، فدبر له الأمير بيبرس البندقداري مؤامرة لاغتياله. وكان بيبرس في مقدمة أمرائه الذين أبلوا معه بلاء حسنًا في حروبه. فتمت قتلته على يده ويد المؤتمرين معه، وذلك في أخريات عام ٦٥٨ هـ. ولم يكن قد أتم سنة في حكمه. وقفز إلى العرش بعده الأمير بيبرس.

٤ ـ الظاهر «ركن الدين بيبرس» ٦٥٨ هـ ـ ٦٧٦ هـ

هو ركن الدين بيبرس البندقداري. وقد لقب بالظاهر. ولي عام ٦٥٨ هـ. وهو أهم ملوك الدولة البحرية. وأصله من أرض القبجاق، أسر وبيع، واشتراه صغير السن رجل يدعى «العماد الضائع»، فباعه للأمير «علاء الدين أيدكين البندقداري». ثم انتقل ملكه إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبي، فنسب لذلك إليهما وقد أعتقه الصالح وضمه إلى مماليكه البحرية ورباه معهم، فشب شجاعًا باسلا لا يهاب الموت. وقد عرفته الحروب ـ وهو أمير ـ مقـدامًـا صنديدًا. عرفته في موقعة «المنصورة» التي هزم فيها الفرنجة في عهد توران شاه، وموقعتي «عين جالوت» و«بيسان» اللتين هزم فيهما التتار في عهد قطز.

اشترك بيبرس، قبل سلطنته، في عدة مؤامرات، منها مؤامرته مع المماليك البحرية بزعامة «فارس الدين أقطاي»، ضد الملك المعز. فلما قتل «فارس الدين» وشتت شمل زملائه، فر «بيبرس» مع بعضهم إلى بلاد الشام، واتصل بملكها الناصر. ثم عاد إلى مصر في عهد قطز، وعين «أتابك العسكر». فقاتل معه في الطليعة. ثم دبر مؤامرة اغتيال «قطز» بعد انتصارهم على التتار، إذ تقدم بيبرس إلى سلطانه ليقبل يده لأنه منحه جارية حسناء من سبايا التتار ـ كما قيل ـ وكانت هذه علامة بيبرس لأعوانه، فانقضوا على سلطانهم بالسيوف فقتلوه. وأقاموا بيبرس مكانه سلطانًا. وقيل إن «قطز» كان قد وعد بيبرس بولاية حلب، ثم أخلف، فكان ذلك سببًا للوحـشة بينهما، وسبيلًا للائتمار فالقضاء عليه.

ويعتبر المؤرخون «بيبرس» المؤسس الحقيقي لعظمة الدولة البحرية، لما تم على يده وفي عهده من جليل الأعمال. فلقد اعتلت عليه بلاد الشام في أول عهده بالسلطنة إذ أعلن الأمير «سنجر الحلبي» بنفسه سلطانًا عليها، وتلقب بالملك المجاهد، وجمع من حوله عدة من الأمراء. وزاد الطين بلة معاودة

التتار الزحف على بلاد الشام، فنهبوا وقتلوا وسبوا. هذا إلى زيادة نفوذ الفرنجة في إماراتهم الشامية، وإلى قيام مماليك المعز بمؤامرة واسعة النطاق للقضاء على سلطنة بيبرس.

هذه أمور جبهت مصر، فلم يكترث لها، وقابلها ثابت الجأش قوي النفس صلب الإرادة ماضي العزيمة. ففتك بمماليك المعز وقضى على مؤامرتهم. وجرد جيشًا قوي الشكيمة على بلاد الشام فأخضع أمراءها، وأوقع بالتتار وردهم عنها داحرين. وأذل الفرنجة ونهنه من نفوذهم. وهزم الأتراك السلاجقة، وفتح جملة من البلاد منها: البيرة، والكرك، وحمص، وبيسارية، وأرسوف، وصفد، ويافا، والشقيف، وأنطاكية، وحصن الأكراد، وعكا، وصافيتا، وبلاد سيس.

وقد غزا بيبرس بلاد السودان واحتاز منها جزءا، إلى جانب ما احتازه. فهابه الناس، ودان له الملوك والأمراء، وامتد في عهده ملك مصر، وانتشر سلطانها شرقًا وغربًا، وهيبت منزلها. وظل بيبرس سلطانًا عليها يملأ الدنيا مهابة، زهاء سبعة عشر عامًا ثم مرض وتوفي بدمشق ودفن بها عام ٦٧٦ هـ.

واهم ما يتصف به بيبرس: الشجاعة والإقدام على الحروب وحسن ترتيبها، مع الدهاء والكرم وحب الخير والإحسان إلى الفقراء. وكان يكرم العلماء وينطوي تحت مشورتهم، ويقربهم. وكان بعضهم يخاشنه في الحديث والنصيحة فلا يبطش به لمخاشنته، وكان يهاب سلطان العلماء في زمانه وهو «عز الدين بن عبد السلام». ووقعت بينه وبين عبد الله يحي النووي أحد علماء الشام مكاتبات أغلظ له فيها النووي الصيحة، فما زاد على أن نفاه من دمشق. وبعث إليه ابن مالك النحوي صاحب الألفية المشهور رسالة من الشام يستعينه فيها على صلاح حاله، فأعانه.

ومن أجل أعماله: أن أمر بإبطال شرب الخمور ومقارفة الزنا، وأشباه ذلك من المفاسد. وشدد النكير على مقترفي هذه الآثام، حتى شدا بذكره

بعض شعراء عصره، وتفكه بذلك بعض منهم آخر كما أنه نظم البريد وخصص له الخيل، وبنى كثيرًا من العمائر، ومن بينها مسجده الشهير. وجدد المسجد النبوي الشريف، وشاد القناطر والأسوار، وحفر الترع والخلجان، إلى غير ذلك من ضروب الإصلاح والإنشاء.

وقد انتاب البلاد في عهده قحط وغلاء، وكان به ميل إلى ظلم الرعية والقسوة عليها بفرض الضرائب المرهقة، بدعوى الحاجة إلى المال للجهاد وإعداد الجند، مع امتلاء بيت المال بالمال. غير أنه لم يكن به ضنينًا على جنده. واتهمت طائفة من نصارى القاهرة بإحداث الحرائق في بعض أنحائها، فكاد يحرق أفرادها عقابًا لهم لولا شفاعة بعض أمرائه، فعفا عنهم بعد أن دفعوا له غرمًا ماليًا.

ومن أهم الحوادث في عهده، أولا: أنه أقام خلافة عباسية ثانية مركزها مدينة القاهرة وذلك بعد أن زالت الخلافة العباسية الأولى من بغداد على يد التتار. فكان في هذا كسب أدبي لمصر، وتأهيل لزعامة العالم الإسلامي وجعل القاهرة مركزًا للعلوم الإسلامية. ثانيًا: أنه أعاد خطبة الجمعة والدراسة إلى الجامع الأزهر وعمره هو وجامع الحاكم بعد أن هجرا زمنًا طويلًا. ثالثًا: نصب أربعة قضاة شرعيين، واحد من كل مذهب من المذاهب السنية الأربعة، بعد أن لم يكن بالبلاد إلا قاضي قضاة شافعي واحد يقضي بمذهب الإمام الشافعي. رابعًا: أمر بأن يطاف بالمحمل حين خروجه من مصر إلى الأراضي المقدسة. ـ وولي الملك بعده ابنه الملك السعيد.

اقول... نكتفي بهذا القدر من سلاطين دولة المماليك البحرية الأربعة وعشرين...

ثم ننتقل الى دولة المماليك الجركسية.

دولة . . .

المماليك . . .

الجركسية . . . ؟!

دولة المماليك الجركسية

٧٨٤ هـ - ٩٢٣ هـ

تلك هي الدولة الثانية من دولتي المماليك. وأصل ملوكها من الجنس الجركسي. ولعل هذا الاختلاف اليسير في الجنسية بينهما، هو السبب في أن يعتبرها المؤرخون دولة أخرى جديدة مغايرة للماضية. مع أن الحق في أنهما لا يفترقان في مظهر جوهري، لأن ملوكهما من معتوقي المماليك المشتراة أو من أبنائهم، ولأنهما لم يتبعا في الحكم إلا نظامًا واحدًا في أصل حقيقته. على الرغم من أن النظام الوراثي للسلطنة كان أكثر مراعاة في الدولة البحرية. وعلى الرغم من أن الثورات والفتن والمؤامرات الداخلية قد نشطت في الدولة الجركسية، وعلى الرغم من فساد الجند، ومن اختلاط أجناسهم، وعدم العناية التامة بتربيتهم، في الدولة الثانية، بالنسبة لما كان من ذلك في الدولة الأولى.

أما ما عدا ذلك فهما فيه متشابهتان. فقد امتد نفوذ مصر المستقلة في عهديها، فملكت بلاد الشام والحجاز في أكثر الأيام. وبسطت نفوذها أحيانًا على بلاد السودان والمغرب، وما وراء بلاد الشام نحو الشرق. وشغلت بمحاربة التتار والفرنجة والسلاجقة. ويتشابه ملوك هاتين الدولتين في حب الظهور بمظهر المحافظة على الدين والغيرة على الشريعة، فهابوا العلماء وقربوا

أهل الدين والصالحين. واندفعوا إلى وقف بعض ممتلكاتهم على وجوه البر، وبنوا المساجد والمدارس والمستشفيات والسبل. كما يتشابهون في النشأة العسكرية والصبر على الكفاح، كما أن نظام العمل وترتيب الدووابن وما إلى ذلك، كان يسير في الدولتين على وتيرة واحدة تقريبًا. ولهذا لا أفهم كبير معنى لجعلها دولتين لا واحدة، إلا ما ذكرنا من اختلافها في التركية والجركسية. وإلا ما راعاه البعض من أن «البحرية» كانوا يسكنون أول أمرهم قلعة الروضة، وأن الجركسية كانوا يسكنون قلعة الجبل. وأصلهم من رعايا مملكة خوارزم، أكثر المنصور قلاوون من شرائهم، حتى بلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف وسبعمائة، وأسكنهم في أبراجها. ولذلك يسمون أيضًا «البرجية». غير أنه من الحق أيضًا أن بعض السلاطين البحرية، لم يكونوا من سكان قلعة الروضة، وأن بعض السلاطين الجركسية أو البرجية لم يكونوا من سكان أبراج قلعة الجبل. ومهما يكن من شيء فأول ملوك الجراكسة هو «برقوق» بن آنص العثماني، وعددهم جميعًا واحد وعشرون، عدا سلطنة أحد آل قلاوون، وأحد الخلفاء العباسيين كما سنبينه فيما يلي:

١ - الظاهر «برقوق العثماني» سيف الدين
٧٨٤ هـ - ٧٩٠ هـ

هو برقوق بن آنص الجركسي، وينسب إلى الخواجا «عثمان» تاجر الرقيق الذي جلبه إلى مصر. وقد أسعده الحظ حتى وصل إلى الأتابكية في عهد الملك المنصور علي ابن الأشرف شعبان، فدبر له أمور الدولة، ثم دبرها لأخيه من بعده، ثم خلعه ووثب إلى سرير الملك في عام ٨٧٤ هـ. وعلى يده انقضى ملك آل قلاوون تقريبًا. وانتقلت الدولة إلى الجركسية.

وقد كان السبب في سلطنته أن الملك آل إلى الصغار من آل قلاوون. فسرحت الفتن في البلاد ومرحت. فرأى الخليفة والقضاة والأمراء، أن يولوا في الملك رجلًا قويًا ينقذ الرعية من الفساد. واختاروا أن يكون الأتابكي « برقوق » هو ذلك الرجل.

وكان أول ما قام به، أن أهدى الخلع الثمينة والمناصب الرفيعة إلى أتباعه وخلصائه. وقبض على كثير من أعدائه، وأودعهم في السجن دون رحمة. وكان فاتكًا قاسيًا فهابه الناس، وأبطل كثيرًا من العادات الذميمة.

* * *

اقول... وكان آخر سلاطين دولة المماليك الجركسية وعددهم واحد وعشرون... هو الملك الأشرف «أبو النصر طومان باي» ٩٢٢ هـ - ٩٢٣ هـ...

وفي عهده زحف العثمانيون على القاهرة وملكوها...

ولما قبض عليه... شنق أشنع شنقة على باب زويلة... في المحرم عام ٩٢٣ هـ.

وبموته انتهت دولة الجراكسة... وبدأ عهد الاحتلال العثماني!!!

بيبرس . . .

بَطَل . . .

معركة المنصورة . . . ؟!

كما اشتُهر عن خالد بن الوليد ... قولهم عنه « أمَّرَ خالدٌ نَفْسَه » ...
يمكن أن يقال في ثقة ويقين عن الملك الظاهر بيبرس « أمَّرَ بيبرسُ نفسَه » !!!

لماذا ؟!!

لأن خالدًا كان عبقريًا ...

ولأن بيبرس كان عبقريًا ...

والعباقرة اذا وُضِعوا بين الناس امتازوا عليهم دون عناء ...

عُزل خالد ... وعمل تحت إمرة أبي عبيدة ... مأمورًا ... ولكن عبقريته جعلته أميرًا ...

وكذلك كان بيبرس طيلة حياته ... بارزًا ... بروزًا شاهقًا ...

هامته تسمو على هامات أقرانه ... ليس كبْرًا ولا غرورًا ...

ولكن امتيازًا وهَبَهُ الله له دون كثير من أقرانه!!!

كان هناك الكثير من أمراء المماليك الصالحية في معركة المنصورة ...

إلا أن بيبرس كان هو كوكبها اللامع ... وحديث الناس جميعًا ...

وحين ادلهم الخطْب ... وارتعدت الفرائص ...

رأيت بيبرس عملاقًا ... يزأر زئير الأسد ... وينقضّ على فرسان الفرنسيين يجندلهم تباعًا ... ثم ينقض على قائد فرسان الفرنسيين ... الأمير « آرتوا » ... أخي الملك لويس التاسع ... فيمزقه بسيفه ... في

زئير الأسد... وانقضاض النمر...

فقلَبَ البطل بيبرس بشجاعته النادرة الموقف المصري من الالتحام الى النصر!!!

وتنادى الناس جميعًا: بيبرس... بيبرس... بيبرس!!!

وكما أن العبقرية لا تُفتعل... وإنما يُولد العبقري عبقريًا...

فكذلك البطولة لا تُصطنع... وإنما يولد البطل بطلًا...

لقد كانت الشجاعة... والجرأة... والحرص على الموت... والاستهانة بالعدو.... صفات أصيلة في شخصية بيبرس...

تبقى مكنونة فيه... حتى تحدث حادثة تقدحها... فتشتعل توًا تحرق كل ما صادفها!!!

كان بيبرس فارس معركة المنصورة!!!

ثم كان فارس حادثة مصرع السلطان توران شاه!!!

ثم كان فارس معركة عين جالوت!!!

ثم كان فارس معركة بيسان!!!

ثم كان فارس حادثة مصرع السلطان قُطُز!!!

كل ذلك قبل أن يكون سلطانًا!!!

إنها ظاهرة ثابتة في شخصيته... وإذا لزم الأمر... كان هو المقدام الى الموت... لا يبالي وقع هو على الموت أم وقع الموت عليه!!!

هؤلاء الأبطال العباقرة...

هم الذين يكتبون التاريخ بحوافر خيولهم...

يميلون بالتاريخ حيث شاءوا!!!

والناس لهم تبع!!!

لأن العباقرة سارعوا الى الموت فألقت الحياة اليهم مقاليدها!!!

أمّا الجبناء... فليرجعوا الى الوراء!!!

وإليك مشاهد من معركة المنصورة الخالدة... حيث تلألأت صفة الشجاعة النادرة... من الأسد الضاري... والبطل العبقري... بيبرس!!!

البيعة للسلطان تورانشاه؟!

كان أول شيء واجه به نائب السلطان الموقف، ان يأخذ البيعة للسلطان الجديد. وشاور شجرة الدر في ذلك، فأبدت استعدادها لأن تبايع لتورانشاه وقالت: أنا اول من يبايع.

قال فخر الدين: إذاً نبعث الى اقطاي، نستدعيه لذلك.

وبعث نائب السلطان الى اقطاي، فجاء يسعى على عجل، وجعلا يتشاوران...

قال فخر الدين: نريد ان نجمع الناس على السلطان الجديد، حتى لا تكون هناك فتنة.

قال اقطاي: هذا ما كنت اريد ان اعرضه عليك.

قال فخر الدين: سوف نجمع الليلة كبار رجال الدولة، وأنت عليك أن تحضر الى القصر ومعك من يمثل المماليك... ومتى اكتمل المدعون، أخذنا عليهم يمين البيعة للسلطان.

قال اقطاي: سأكون أول من يحضر، ومعي المماليك.

وأصدر فخر الدين أوامره، فاجتمع بالقصر السلطاني بالمنصورة، من رجالات الدولة ليلًا من يمثل القضاء والجيش، والأمن والتجار والزراع والصناع، وسائر الطوائف.

... وأخذت الأصوات على تورانشاه... فلم يكن هناك من يعارض، وإنما الكل يتلهف الى بيعته، لتتفرغ البلاد لجهاد الأعداء.

وجعل الفخر يردد فقرات البيعة، وهم يرددون من ورائه... «وأقسم بالله العظيم... أن أكون مخلصًا للسلطان الملك المعظم تورانشاه»، مطيعًا له ما اطاع الله ورسوله... والناس من ورائه يرددون البيعة مستبشرين.

وبعد أن فرغوا من المراسيم، نهض اقطاي فوقف موقفًا زائعًا، سجله له التاريخ، حيث قال: يا فخر الدين...

فاشرأبت الأعناق إلى مصدر الصوت، فإذا به أقطاي زعيم المماليك...

قال أقطاي: ونحن نبايعك وليًا للعهد... فالبلاد تجتاز فترة عصيبة، تستلزم أن يكون هناك من يخلف السلطان بلا اجراءات أو تخلف. نحن في حالة حرب، لا تحتمل اضاعة الوقت في المراسيم، فهل هناك من يعارض..

فلم يسمع صوت يرتفع إلا أصوات الحاضرين وهم يرددون: على بركة الله يا فخر الدين... ينصرك الله يا فخر الدين...

قال اقطاي: ومن المعلوم بالضرورة أن ولي العهد يحل محل السلطان أثناء غيابه... فالتبعة الآن على فخر الدين، فاسمعوا له وأطيعوا.

قال الفخر: الا وقد بايعتموني بولاية العهد، فإني أسأله تعالى النصر على الصليبيين، الذين جاءوا الى بلادنا بغيا وعدوًا بغير الحق.

وانفض القوم وقد بايعوا... ونهض اقطاي فقبل فخر الدين وعانقه، فكان موقفًا تأثر له الجميع، ثم ذهب ينصرف هو وضباطه الذين جاؤا معه، فاحتجزه فخر الدين.

وعقد القطبان فورًا مؤتمرًا حربيًا على مستوى عال لبحث الحالة الحاضرة.

قال اقطاي: أرى أن نركز الدفاع على شاطئ البحر الصغير من جهة المنصورة، فإنهم لا بد سيهجمون على المنصورة من هذا الطريق.

قال فخر الدين: عليك أنت أن تقود المعركة في قطاع البحر الصغير... وسأقود أنا المعركة في قطاع المنصورة.

قال اقطاي: ومن يدافع عن القصر السلطاني؟.

قال فخر الدين: أسد القصر.. بيبرس... هو لها... ذلك الفارس الرائع... هو قائد الحرس السلطاني... وهو يحمي القصر وهو خير من يحميه.

قال اقطاي: اختيار موفق... وليس كبيبرس من قائد.

قال الفخر: تفرغ انت لمهمتك يا اقطاي... لا ينبغي ان ينفذ منهم جندي واحد إلى المنصورة... فإن حدث ونفذوا الى المنصورة بدأت مهمتي... فإن حدث ونفذوا إلى القصر السلطاني بدأت مهمة بيبرس.

قال اقطاي: الله المستعان... ثم حيا وانصرف.

أما فخر الدين فعكف على إصدار الأوامر لأخذ البيعة للسلطان الجديد. وبعث بها إلى سائر أنحاء البلاد ليحلفوا للمعظم تورانشاه.

المصريون يستعدون؟!

رحل اقطاي فورًا إلى قطاع البحر الصغير، وجعل يتفقد قوات الجيش النظامي وقوات المقاومة الشعبية. ومر على جنوده فردًا فردًا... وناقشهم في مهمتهم، فراعه منهم شدة شوقهم الى لقاء الأعداء.

أما فخر الدين، فنظم قطاع المنصورة تنظيمًا رائعًا، وكانت خطته تبنى على القتال من بيت إلى بيت، ومن شبر إلى شبر، بحيث لا يدع للعدو فرصة ليحتل شبرًا من أرض المنصورة. وكانت قوات الجيش ترابط في كل مكان من المنصورة... علاوة على قوات المقاومة الشعبية، التي دربت أحسن تدريب على حرب العصابات والمنازل... هذا بالإضافة إلى فرق المقاومة النسائية التي كانت ترأسها السيدة فاطمة الدمياطية، ومهمتها القتال كالرجال سواء بسواء، وإسعاف المصابين، وتضميد الجراح.

وأما قطاع القصر السلطاني بقيادة بيبرس، فلم يكن بأقل من أخويه استعدادًا ولا رغبة في لقاء الأعداء. نظم القائد بيبرس قواته بحيث اذا هجموا على القصر من أي اتجاه، كانت هناك من القوات الضاربة ما يكفي للوقوف في وجه هجوم الأعداء.

وكان بيبرس قائدًا عظيمًا، وجنديًا شجاعًا، وبطلًا مقدامًا يرهبه خصومه رهبة كبرى.

وكان دائمًا يتحدث إلى جنوده عن ذلك اليوم، الذي يلتقي فيه بهؤلاء الغزاة المجرمين ليلقنهم درسًا يكون عبرة لمن بعدهم.

وبالجملة أتم المصريون استعداداتهم، ووقفوا صفًا واحدًا يتحرقون شوقًا إلى منازلة عدوهم، دفاعًا عن مقدساتهم، وحفاظًا لعروبتهم، وإعلاء لشأن دينهم.

وكان أعجب شيء تشاهده ان البلاد كلها تتحفز للهجوم، حكومة وشعبًا، رجالًا ونساءً، شيبًا وشبانًا. حتى الأطفال الذين لا قدرة لهم على النزال، كانوا يتوقون إلى الانقضاض على هؤلاء الفرنسيين ومن جاء معهم من أنحاء أوروبا.

وأما قيادة البلاد الروحية، فقد أدت رسالتها، وعبأت الوعي القومي في البلاد، فانتشر العلماء والوعاظ والمرشدون في المساجد، وفي المجتمعات، وفي الأسواق، يحثون الناس على الجهاد، ويبينون لهم ما يأمر به الإسلام من مجاهدة أعداء الله، والتنكيل بهم، حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين لله.

الهجوم العام على المنصورة؟!

وقف الملك لويس التاسع بمقر القيادة العليا، وعليه ملابس الحرب الحمراء الملكية، وكان من حوله الأمراء والقواد، ورؤساء هيئة أركان حربه... ثم رفع يديه إلى السماء، وتمتم بدعوات وتسبيحات، يستمطر رحمتها، ويستنزل تأييدها.

ثم قال: الآن أزفت الآزفة، وتأكدت الأنباء بموت الملك الصالح، وأصبح الوقت ضيقًا إلى درجة لا تسمح بالتسويف. فإما أسرعنا بالهجوم على المنصورة، وإما قضي علينا قضاءً مبرمًا. ذلك ان تورانشاه في طريقه الى مصر الآن، ليأخذ مكان أبيه، وأنا أعلم انه شاب متوثب للمجد، يرغب أن يدخل التاريخ على جثثنا. وإن صورة جده صلاح الدين ترتسم أمامه وتناديه دائمًا: كن صلاح الدين... فلا ينبغي أن نتلبث حتى يأتيهم، ويقودهم ضدنا، انما نبغتهم الآن... ونفاجئهم...

ثم رفع من صوته وهو يعلن قراره التاريخي: الآن أصدر أمري بالهجوم العام على المنصورة... فليذهب كل إلى مقر قيادته... وسوف يبدأ الهجوم عندما تسمعون جرس الكنيسة يدق دقًا متواصلًا... وسوف يكون ذلك بعد قليل... ولسوف ينبعث الصوت من الكنيسة الملكية.

وانفض المجتمعون بالملك لويس... وذهب كل منهم ليتسلم قيادته وينظم قواته، ويبين لها طريقها المرسوم... في الهجوم العام.

وبعد قليل... أصدر الملك لويس أمره ببدء الهجوم.

فارتفع صوت جرس الكنيسة الملكية يدوي في أنحاء معسكرات الفرنسيين...

ودق الجرس المرة الأولى فانتبه الجنود.

ثم دق المرة الثانية فأخذ كل مكانه المعلوم.

ثم دق الثالثة فانطلقوا جميعًا يقصدون المنصورة.

أما جرس الكنيسة فظل يدوي أثناء تحركهم ليمسسهم من بركاته.

وتحرك لويس التاسع على صهوة جواده النادر، يحف به خمسمائة من أمهر فرسان أوروبا وعتاة الحروب فيها.

وكان الأمل الذي يداعب خيالهم جميعًا أن المنصورة أوشكت أن تقع في أيديهم.

★ ★ ★

وواصلت قوات الأعداء هجومها، ولم تلق مقاومة تذكر في مسيرها، فلم تمض إلا أيام حتى كانوا تجاه المنصورة، يتهيئون لاجتياز البحر الصغير الى المدينة، التي اتخذها المصريون قاعدة للدفاع.

وعلى شاطئ البحر الصغير المقابل للمنصورة، احتشدت قوات لويس التاسع، واستعدت لعبور البحر، ثم دخول المنصورة..

كانت نحوًا من مائة عشر ألفًا... أما باقي الحملة - الأربعين ألفًا - فقد تركهم لويس التاسع في دمياط، يحمون المؤخرة، ويكونون قاعدة كبرى تتلقى الإمدادات، ثم ترسلها عن طريق النيل إلى القوات الكبرى المهاجمة في المنصورة.

أي ان لويس قد شطر قواته إلى شطرين، شطر أكبر، نحوًا من ثلثي جيشه، مائة ألف أو يزيدون، للهجوم على المنصورة.

وشطر أصغر، نحوًا من ثلث الجيش، خلفه لحماية ظهره بدمياط.

خطة محكمة، وتدبير عظيم، من القديس لويس..

فخر الدين يعقد مؤتمرًا حربيًا سريًا ؟!

وفي بهو من القصر السلطاني بالمنصورة كانت شجرة الدر الملكة المحببة، تجلس وأمامها نائب السلطان الأمير فخر الدين، والقائد أقطاي، والقائد بيبرس، وغيرهم من قادة الجيش.

قالت شجرة الدر: أستحلفكم بالله ألا تخزوا أهليكم وبني وطنكم... فذلك يوم له ما بعده... لقد جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ومن تحت أرجلكم.

قال فخر الدين: اشهد الله الذي لا إله إلا هو... لأقاتلنهم قتال الراغب في الشهادة.

فالتهب أقطاي واندفع يصيح: والله لتسمعن أنباء تثلج الصدور، وتشرح القلوب، لقد اخترعنا سلاحًا، سوف يحقق النصر بإذن الله...

قالت شجرة الدر: وما ذاك السلاح يا أقطاي؟.

قال: رأت قواتنا ما نحن فيه من مأزق، ففكرت وفكرت حتى هداها الله إلى سلاح سري عجيب، لا يعلم عنه الأعداء شيئًا، وسوف يكون مفاجأة تامة لهم.

قال فخر الدين (وهو يقبل أقطاي): نبئني يا أخي... ما هذا السلاح؟.

قال أقطاي: النار الاغريقية...

قال فخر الدين: اشرح أسلوب استعماله.

قال اقطاي: هو كرات نارية هائلة تطلقها المجانيق، فتتهاوى السماء على رؤوس الأعداء، شعلًا وجمرات، فيأخذهم الفزع، ويتفرقوا في كل وجه...

قالت شجرة الدر: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله... ثم سجدوا جميعًا سجدة شكر لله العلي العظيم.

قال فخر الدين: وهل أنتجتم منه كميات كافية...

قال اقطاي: نعم... لقد اكتشفه أحد الضباط ونبأني به، فأمرته أن يعكف على إنتاجه هو وفريق من اخوانه، وأن يجعله سرًا، حتى تحين الساعة وننزله الى الميدان.

قال فخر الدين: الله معنا... الله معنا...

ثم استأذنت شجرة الدر... وقالت للمجتمعين: سأترك لكم المكان، لتتفرغوا لوضع الخطة النهائية، ونسقوها فيما بينكم، حتى تكون الخطة متعاونة متناسقة، فتؤتي أكلها بإذن ربها نصرًا عزيزًا، لمصر والمصريين.

ودلفت شجرة الدر إلى قصرها... ووضع قادة العرب خطة الدفاع... واتفقوا عليها وعاهدوا الله على الإخلاص لله والوطن.

محاولة عبور البحر الصغير؟!

وأمر الملك لويس التاسع، اقامة معبر يجتازون عليه الى المنصورة.

وشرع الفرنجة ينفذون الأمر، فتقدم المشرفون والصناع، يقيمون الجسر، وبذلوا فيه جهدًا جهيدًا.

ورأى أقطاي ما يصنع الأعداء، وأشار عليه ضباطه أن يمنعوا الفرنجة من إقامة ذلك الجسر، فابتسم ابتسامة الواثق من ربه، المطمئن إلى تدبيره، وقال: دعوهم وشأنهم...

وأنفق الفرنجة يومين في تشييد المعبر، وأتموا إقامته، وفرحوا بما أوتوا..

فما ان أتموا عملهم، حتى أصدر أقطاي أمره ببدء المقاومة.

فحفر المصريون خندقًا مثل الهلال عند نهايته، فاندفع اليه ماء البحر... وكان من أثر انضغاط الماء في ذلك المكان الضيق، ان جرف التيار قاعدة الجسر، وحطمه ومضى.

وما ان رأى المصريون السد يتبدد مع الماء حتى كبروا، وارتفعت أيديهم الى السماء شكرًا لله على تلك البداية الطيبة.

بينما وقف الصليبيون ينظرون في حسرة إلى مجهودهم الضائع.

السلاح السري المصري؟!

وطفق الصليبيون ينشئون على طول الساحل أبراجًا من الخشب الغليظ، ليحرسوا مراكزهم ويرقبوا حركات عدوهم.

واطمأنوا إلى تلك الأبراج «وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب...».

ونظر ضباط أقطاي مرة أخرى إلى الأبراج التي أنشأها الصليبيون على طول الساحل، وأشاروا عليه أن تتقدم قوات من الفدائيين، وتمنعهم مما يعملون، أو أن يتخذوا إجراءً مضادًا، حتى لا يثبتوا أقدامهم على الساحل، ويتمكنوا بذلك من اجتياز البحر الصغير إلى المدينة.

وابتسم أقطاي مرة أخرى، ونظر إلى ضباطه، ثم قال: سوف يعلمون... سوف يعلمون.

وما ان أتم الأعداء تشييد أبراجهم، ونظموا خطتهم على أساسها، حتى أمر اقطاي باستعمال السلاح السري.

ولأول مرة في تاريخ العالم كله، انطلقت المجانيق المصرية بشيء عجيب... لا عهد للأرض به قبل ذلك.

ومن الشاطئ العربي، انصبت على الشاطئ الصليبي القذائف النارية، من أفواه المجانيق، فحولت الأبراج الى أنقاض ورماد على رؤوس من فيها من الحرس والجند.

وتم تدمير جميع الأبراج الفرنسية، واشتعلت الحرائق فيها، منها ما نسف، ومنها ما أحرق، ومنها ما اجتمع عليه النسف والحريق.

ودهش المعسكران لما جرى...

أما الصليبيون فذعروا ورعبوا لتلك المفاجأة الحربية، التي كانوا يتوقعون كل شيء ولا يتوقعونها، ها هي الأبراج التي وضعوا فيها آمالهم، تتحطم وتشتعل بمن فيها ومن جاورها.

وأما المعسكر العربي فدهش وعجب لما حدث، لأنه لم يكن يعلم أنه يملك ذلك السلاح السري العجيب.

لقد أخفى أقطاي سر الاختراع عن الجميع عملًا بالقول المأثور (استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان).

وجاء قوم من الجيش العربي الى أقطاي وقالوا: الله أكبر الله أكبر... هذا نصر من الله.

قال أقطاي: لا تغتروا... ان المعركة طويلة... اذهبوا إلى مراكزكم حتى يتم الله نصره.

الرعب في قلب معسكر الأعداء؟!

وكانت خطة أقطاي غاية في الدهاء والمكر... فما ان أتم تدمير الأبراج كلها حتى أمر فأقلع الرماة عن الرمي بالمجانيق، وهدأت الجبهة... وسكنت الحرب... يومًا كاملًا.

إلا أن الصليبيين لم يكونوا ليتركوا أنفسهم بدون أبراج وهي عماد جبهتهم... فشرعوا على الفور - منتهزين فرصة الهدوء المؤقت - ينشئون غيرها، وراعوا في إنشاء الأبراج الجديدة أن تكون أشد وأقوى.

وأنفقوا أيامًا ينشئون أبراجهم الجديدة، وسكنت قلوبهم بعد أن روعت، وزاد طمأنينتهم أن خطوط المصريين لم تعد تقذفهم بتلك الكرات النارية الملتهبة، فظنوا أن ما قذفه المصريون كان شيئًا عندهم، ولم يعودوا يملكون غيره..

وساد الجبهتان صمت عميق...

وتألقت الأبراج الجديدة، وسطعت عليها الشمس، وهي تقف كأبراج الكنائس المهيبة الطلعة.

وفجأة أصدر أقطاي أمره، وانطلقت القذائف تتهاوى على الأبراج الجديدة، يصوبها الرماة العرب في دقة ومهارة، فلا تكاد تخطئ الرمية هدفها، ولكن تنصب على الأبراج فتشعلها وتحرقها، وتدمرها تدميرًا.

وتتابعت القذائف، وتسابقت الكرات النارية على الأعداء...

وشوهدت الحرائق في معسكرات الأعداء... يتصاعد لهيبها.

وكان من أعجب ما ترى أولئك الصليبيون يحاولون الهرب من الأبراج، ويهرولون منها فرارًا من الموت، وهم مشتعلة أجسامهم، محترقة وجوههم، يتصايحون بلغتهم الفرنسيه: الموت... الموت... الموت... أين المفر... وفجأة تهوي على رؤوسهم إحدى القذائف فتحولهم إلى خبر يروى، أو قصة يتناقلها جنود العرب، وهم يشهدون المعركة، ويجأرون إلى الله أن ينصرهم، ويحفظ الكنانة من شرور المجرمين.

وما ان أتم العرب تدمير الأبراج الجديدة، حتى عادت المجانيق العربية إلى الصمت التام... تمامًا كما فعلت أول مرة...

وعاد الهدوء إلى الجبهتين... وانحطت الروح المعنوية في الصليبيين على أثر التجربه الفاشلة، وبدءوا يشكون في النصر.

قال الملك لويس، وقد رأى المعبر ينهار، والأبراج الخشبية تدمر مرتين: لا ينبغي الجزع، ولكن اصبروا... وإن روح الله لن تتخلى عنا. وجعل يبث

في جنوده من تدينه وتنسكه، حتى هدّأ الخواطر، وأشاع الأمل من جديد في النفوس.

هذا في معسكر الأعداء، أما في معسكرات المصريين، فقد ارتفعت الروح المعنوية في الجيش، وأصبح اسم أقطاي كأنه أسطورة خالدة، يتغنى بها الشعب.

أزمة أخشاب في معسكرات الصليبيين؟!

ولم يدع أقطاي للصليبيين فرصة بعد ذلك يستريحون فيها، ونادى في قواته: ان الهجوم هو خير وسيلة للدفاع، أقذفوهم بالمجانيق.

وانطلقت القذائف العربية، تعلن للملأ أن العرب هم العرب، لا يقبلون اعتداء، ولا يعطون الدنية من دينهم.

كان الجندي العربي يضع القذيفة في المنجنيق، ثم يكبر في ايمان بربه، ثم يقذف، فتخرج القذيفة فيها ايمان صاحبها، وقوة العربي إذا انطلق. فما ان تهوي على رؤوس الأعداء حتى يـأخـذهـم الفـزع، ويتفـرقـون في كـل واد، يدوس بعضهم بعضاً، من شدة الهول.

واشتد اطلاق القذائف على الفرنسيين، فاشتد عليهم الحال، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت. وكان أشد ما أصابهم أن قلت الأخشاب في معسكراتهم، كلما أنشأوا أبراجًا يحتمون بها، دمرها العرب عليهم، فإذا بهم يضطرون إلى إنشاء غيرها، فتدمر... وهكذا.

واضطروا آخر الأمر أن يستلوا ألواح الخشب من السفن ليتخذوا منها وقودًا، أو يبنوا بها أبراج الدفاع.

واشتد البرد عليهم، فاشتدت حاجتهم الى الأخشاب.

وعلم دلك أقطاي، فنادى في جنوده: اضربوا... اضربوا...

وتحولت جبهة المعتدين إلى نار مشتعلة... وتعالت صيحاتهم... ورعبوا رعبًا شديدًا، لم يرعبوا مثله من قبل.

حرب العصابات مرة أخرى؟!

وانتهز اقطاي الفرصة، فرصة الرعب والفزع في معسكرات الأعداء، فأطلق رجاله المدربين على حرب العصابات عليهم، ليلًا ونهارًا. فكانوا يختطفونهم أحياء... أو يختطفونهم أرواحًا بالمدي والخناجر، وبما تيسر من أدوات الذبح والإبادة.

وأصبحت حياة المعتدين، جحيمًا لا يطاق، النار من فوقهم، والموت يأتيهم من كل مكان.

وشاع الرعب وذاع... وعجز الملك لويس لأول مرة، أن يطمئن قواته، أو يقنعها بالثبات... ولأول مرة كذلك بدأت قواته تشك في أقواله التي كانوا يعتبرونها من قبل كلامًا مقدسًا، يوحيه ملاك الرب إلى القديس لويس.

والماء يحاصرهم؟!

وأراد الله أن يمن على الذين اعتدي عليهم مرة أخرى، فأوقع الصليبيين في شر أعمالهم. وألزمتهم المقادير مكانهم الذي هم فيه، يحيط بهم الماء من كل مكان... البحر من أمامهم، والبحر من ورائهم.

فلا يستطيعون التقدم إلى الأمام، ولا يستطيعون التزحزح الى الوراء، ولكن عليهم أن يجمدوا، وليس أمامهم ان أرادوا أن يتقدموا إلا أن يجتازوا البحر الصغير إلى المنصورة.

وها هو اجتياز البحر الصغير أصبح مستحيلًا كذلك...

وأدلهم الخطب... فما المخرج؟!

بدء المعركة؟!

نظر لويس الى حال جنوده، وما هم عليه من حرج الموقف، فرأى أنه لا مناص من التقدم، ودخول المنصورة مهما كان الثمن، خصوصًا وإن هذا هو الحل الأوحد لإنقاذ جيشه من الورطة التي هو فيها. فلو انه انتظر أيامًا أخرى فربما هاجمه المصريون وهو في مكانه هذا، فتتحقق ابادتهم إبادة تامة.

وجاءه شقيقه أرتوا، يعلمه أن طلائع الاستكشاف في الجيش الفرنسي، اكتشفت مخاضة بالبحر الصغير، يمكن للجيش أن يجتازها الى المنصورة.

قال لويس: وأين المكان يا أرتوا؟.

قال أرتوا: ليست بالبعيدة، ولا بالقريبة... على مسيرة سويعات.

قال لويس: نريد مخاضة قريبة... حتى لا تكون على مرمى العدو.

قال ارتوا: على العكس من ذلك... اذا بعدنا شيئًا ما عن هذا المكان، سوف يستحيل على العدو أن ينال منا بقذائفه... أضف الى هذا اننا إذا اجتزنا البحر من تلك المخاضة فسوف لا يتمكن المصريون من ردنا عن المنصورة، سوف نتدفق منها جميعًا كالسيل الجارف الى داخل المدينة... ثم صاح ارتوا: لويس... دعني أدخل المنصورة كتجربة، فإن أفلحت فاتبعني،

بسائر جيشك، وإن مت فلا عليك...

قال لويس: اذهب... فافعل... والله معك.

أرتوا يجتاز البحر
... ويقتل نائب السلطان؟!

خرج أرتوا على رأس فرقة من فرسان الجيش الصليبي، فيها خيرة شجعانهم، وسار بها حتى ابتعد عن الجيش، محاذيًا للساحل، فلما وصلوا إلى المكان الذي به المخاضة، تقدم بجواده، وهم من ورائه فاجتازوها، ووضعوا أقدامهم لأول مرة بساحل المنصورة.

ورأت دوريات الاستكشاف العربية نزول الفرنسيين بالساحل، فدوى النفير معلنًا نزول الأعداء، فتجاوبت أنحاء المنصورة بصوته، معلنة أن العدو دخل المدينة.

وهنا انتهت مهمة أقطاي، وبدأت قيادة فخر الدين.

وكان الأمير فخر الدين في الحمام، فسمع صوت النفير يدوي، فخرج معجلًا لم يستكمل عدة حربه.

ونادى في جنده: ائتوني بجوادي، أريد أن أمحو عن جبيني عار دمياط..

وجاءوه بجواده العربي الشاهق السامق، فاعتلاه في حماسة قتالة.

ونادى في جيشه: اخرجوا من ورائي... لنلقى طلائع الجيش الغازي... والله لن يدخلوها علينا أبدًا.

وصاحت في أعماق فخر الدين قوة عقيدته، وحرارة عروبته، فخرج لا يلوي على شيء، على رأس فرقة من جيشه.

وهناك عند مدخل المنصورة... التقى الجمعان... واقتتلت الفرقتان...

فرقة الفرسان الصليبية المعتدية، وعلى رأسها الأمير أرتوا... وفرقة الفرسان المصرية، وعلى رأسها الأمير فخر الدين...

وكان اروع ما في الموقف منظر فخر الدين، وهو يندفع الى قلب العدو ومن ورائه جنوده، فيقتل منهم، ذات اليمين وذات الشمال، وينخرع جميع الأعداء أمام بأسه وشجاعته، ويتضعضعون وهم الآلاف أمام فروسيته وانطلاقه.

وإذا بفخر الدين وجهًا لوجه مع غريمه أرتوا...

فعاجله فخر الدين بضربة، كادت تكون قاضية، لولا أن أرتوا عاجله هو الآخر بضربة، فكان فيها القضاء.

وسقط فخر الدين عن جواده شهيدًا... ودمه يشخب فوق أرض الوطن.

المعركة في شوارع المنصورة
... وقصة الفارس الملثم؟!

واهتبلها أرتوا فرصة، فاندفع بفرقته إلى شوارع المنصورة.

واشترك الشعب جنبًا إلى جنب مع الجيش، في الدفاع عن مدينتهم الخالدة.

ودارت المعركة بالسيوف والعصي والحجارة، واشترك فيها الكبار والصغار، والنساء والرجال.

واندفع فارس ملثم من بين الصفوف على صهوة جواده، يريد أن يقاتل العدو وحده.

كان ذلك الفارس، لا يريد أن يتكلم، وإنما يريد أن يقتل ويقتل...

وروع العدو من صولته، وجرأته النادرة... فقد اندفع الى فرسان الأعداء

يبارزها، وينازلها، حتى جندل منهم ثلاثة، ثم طوح بالرابع عن حصانه، فتدلى عن جواده، فهال الفارس الملثم يجهز عليه بسيفه.

فانتهز أحد الفرسان الصليبية الفرصة، وضربه ضربة قاتلة، فسقط الملثم شهيدًا.

وما ان رأى المصريون أخاهم شهيدًا، حتى اندفعوا يحتزون رقاب العدو، ويعملون فيه قتلًا وتنكيلًا.

كان ذلك الفارس الملثم الشهيد، هو قائد فرقة المقاومة النسائية، السيدة فاطمة الدمياطية التي رأت بعينيها الفرنسيين يقتلون زوجها الحبيب، وأولادها الصغار، يوم دخلوا دمياط منذ شهور.

وكانت قد أقسمت يومئذ لتنتقمن لزوجها وأولادها... فبرت بقسمها.

بيبرس يحتز رقبة أرتوا؟!
والمعركة تنتقل إلى القصر السلطاني؟!

إلا أن ذلك كله لم يمنع أرتوا من التقدم الى القصر السلطاني، فقد كان يقاتل قتال اليائس إذا أحيط به. فكان يبطش بطش المجانين.

واندفع أرتوا بما تبقى من فرقته، إلى القصر السلطاني، حتى وصل الى ساحة القصر.

ورأت شجرة الدر من وراء النوافذ، الخطر يصل الى مخدعها... فنادت: بيبرس... بيبرس.

إلا أن بيبرس كان قد سبقها إلى أداء رسالته المقدسة، لا ينتظر أمرًا ولا توجيهًا.

فاندفع من ورائه فرقة الحرس السلطاني، إلى أرتوا وفرسانه.

وصال بيبرس وجال في الميدان، يجز الرقاب، ويجندل الفرسان... وما زال يتقدم، حتى نفذ إلى الشقي أرتوا قائد فرقة الغزاة.

ورفع بيبرس سيفه في عزم من يريد أن يثأر لدينه وعرضه وشرفه ووطنه، وأهوى به في قوة لو صبت على جبل لشطرته، فاحتز به رقبة أرتوا...

ورعب ما تبقى من فرسان الغزاة...

ونزل بيبرس وسيفه يقطر دمًا عن جواده، كأنه يتحدى من يجرؤ على مبارزته من الأعداء.

وارتفع بصره الى النافذة، حيث تنظر شجرة الدر، وقلبها يكاد ينخلع من هول ما ترى... فنادته الشجرة من سترها: الله أكبر... الله أكبر... فردد الجميع ما قالت، ثم نادتـه الشجـرة مـن عليـائهـا: اتبـع الرأس الذنبا...

فانطلق بيبرس ومن ورائه فرقة الحرس السلطاني، يبيدون من تبقى من الفرنسيين، حتى تضعضعوا وانسحبوا من القصر فارين، هاربين على ظهور خيولهم مذعورين.

أخذ الفارون طريقهم عدوًا، الى المخاضة التي جاءوا منها.

وتركوا من ورائهم ألفًا وخمسمائة من القتلى. فكانت عودة فلولهم المنهزمة بشير سوء لملكهم لويس.

بينما استبشر المصريون أيما استبشار.

وأطلقت شجرة الدر الحمام الزاجل إلى القاهرة، تحمل أجنحته أخبار النصر الى الأمير حسام الدين، نائب القاهرة.

فهلل الشعب وكبر، وفرح واستبشر، واشتدت رغبته في الإجهاز على العدو!!!

بيبرس . . .

فارس واقعة . . .

مقتل تورانشاه . . . ؟!

شهدنا في الفصل السابق... كيف كان بيبرس كوكب الأحداث...
حين هجم أرتوا قائد قوات الفرسان الانتحارية الفرنسية...

يريد الوصول الى مقر القيادة المصرية العليا... الى القصر السلطاني... فيستولي عليه... وبسقوط مركز القيادة العليا... ينهزم الجيش المصري وتنتهي المعركة!!!

ولم يكن أرتوا يتخيل يومًا ما أن هناك أسدً ضاريًا في انتظاره!!!

فلما جاء الفارس الشيطان الى قصر السلطان... افسح له بيبرس الداهية الطريق... فظنّ أرتوا أن فرسان المصريين يتقهقرون عجزا عن مقاومته... فاندفع حتى وصلت طلائع خيوله الى بهو القصر السلطاني!!!

هنالك بلغت القلوب الحناجر... واشرأبت الأعناق... وتطلّع الجميع...

وفجأة انقضَّ الأسد المصور... فانقضّ فرسانه معه...

والتقى أرتوا... أشجع فرسان الفرنسيين... وبيبرس أشجع فرسان المصريين!!!

وتصاولا... وتجاولا... وكان التحامًا رهيبًا... انتهى بمصرع أرتوا... حين مَزّقه البطل المسلم... المسمَّى ركن الدين بيبرس!!!

فكانت فاتحة النصر العام... على جميع القوات الفرنسية بعد

ذلك... حيث سقط منهم خمسون ألف قتيل... ومائة ألف ما بين أسير وشريد!!!

ذلكم بيبرس... وتلك طليعة عبقريته العسكرية المبكرة...

وإليك الآن... مشهدًا آخر... كان بيبرس فيه أوّل من يتقدَّم لا يبالي ما يكون بعد ذلك!!!

إنه دائمًا يُوجد حيث تكون الحاجة الى بطل خارق... لا يهاب الموت!!!

وإن ضحيته هذه المرة... سلطان عظيم... سلطان منتصر منذ أيام على الملِك لويس التاسع!!!

* * *

إنذار إلى شجرة الدر

مرت تلك الأحداث التي غيرت مجرى التاريخ، ورفعت أقوامًا وأذلت آخرين، وشجرة الدر هناك في بيت المقدس، بعيدًا عن مجريات الأمور، بعد أن كان كل شيء بيدها هي لا بيد غيرها.

وكانت الشجرة بابتعادها عن الدياو المصرية ترجو أن تفوت العاصفة، حتى ينتصر تورانشاه، وينسى آلامه، ثم تعود الى مصر كما كانت.

إلا أن تورانشاه، نسي لها كل ما كان منها من حسنات، ولم يعد يذكر لها إلا أنها امرأة أبيه، التي دفنت أباه دفن الكلاب والجيف. وإلا أنها تلك المرأة التي كانت دائمًا توغر صدر أبيه عليه، حتى اضطر في النهاية الى ابعاده الى حصن كيفا، تخلصًا منه. وتجسمت تلك السيئات في مخيلته، حتى أصبح لا

يطيق لها صورة أمام عينيه.

وبعث تورانشاه الى شجرة الدر رسلًا يقولون لها: إن عليك أن تردي ما حملت معك من جواهر السلطان الراحل. وعليك أن تحضري الى مصر فورًا ومعك كل ما حملت الى القدس.

وتوالت الرسل.. وتوالى إصرار الشجرة على موقفها..

وكانت هي ترتاب منه خيفة، وتخشى أن يقتص منها، وقد أصبح السيد المنتصر، ودوي اسمه في الآفاق.

فأصرت على الرفض... وأبت أن تعود الى مصر..

وأصر السلطان المعظم على عودة الجواهر... وعلى عودة شجرة الدر..

هذا من جهة..

ومن جهة أخرى، كان السلطان قد وعد الفارس أقطاي أن يؤمره، مكافأة له على بلائه في المعركة، حيث كان هو وصاحبه بيبرس من أسباب النصر الأكيدة، إلا أنه لم يوف له. فارتاب منه أقطاي، واختفى عن الأنظار الى حين.

وطاشت خمرة النصر بعقل تورانشاه، فبدأ يبدي نحو المماليك ما كان يخفي، فعزل أكابرهم وولى عليهم أراذلهم، وفعل بهم الأفاعيل. وكانت تلك منه خطة يريد بها أن يقضي عليهم، ويرد السلطة للأيوبيين كما كانت.

هنالك اتفق الطرفان عليه.. فكاتبت شجرة الدر فيه.. فاتفقوا، هي والمماليك على أمر..

مصرع السلطان تورانشاه

واشتدت أفراح النصر بالبلاد المصرية، وكان السلطان الملك المعظم أكثر الناس فرحًا، فإن المعركة منسوبة اليه، والمجد معقود عليه.

وأمر المعظم: فنصبوا له دهليزًا سلطانيًا، على شاطئ النيل بفارسكور.

وأقيم الى جانب الدهليز، برج من خشب.

وأعدوا له أسباب المزاح والقصف.

فمدوا البساط، وأوقدوا الشموع، ورسوا القناني.

ودعا السلطان كبراء دولته المظفرة، الى تلك المأدبة الفاخرة.

فأكلوا وشربوا وشملهم البشر والسرور.

كان في تلك الحفلة السلطانية، قادة الجيش، وقادة المماليك، أمثال **أقطاي وبيبرس وطومان**، وكان فيها القضاة والسفراء وغيرهم.

وكان تورانشاه يبدو على الغاية من المرح، في ذلك اليوم.

وقد أمر أن يكون الحضور الى المأدبة، بملابس الميدان، تمجيدًا لذكرى المعركة الرهيبة، التي لم تخمد نارها بعد.

ولعبت الخمر برأس السلطان، وجعل يجمع الشموع الموقدة، ويضرب رؤوسها بالسيف فيقطعها ويقول: كذا أفعل بالمماليك البحرية.

ونظر أمراء المماليك إلى بعضهم البعض، وظنوا أنها مداعبة وملاطفة من السلطان.

إلا أن السلطان أخذته نشوة النصر مرة أخرى، فكرر فعلته مرة ومرات على مرأى من الحاضرين جميعًا.

فاشتد غيظ المماليك عليه، ومال بعضهم على بعض، يتراودون في الانتقام منه.

وجعل السلطان ينادي المماليك بأسمائهم، ويهينهم ويسبهم.. فيقول:

أقطاي.. يريد أن يكون أميرًا عليهم.. بيبرس يعتقد أنه سبب النصر، في معركة المنصورة.. كلا.. لن أسمح لهم بالصعود.. لن أسمح للأرقاء بالتطلع إلى مقام السيادة؟!

ثم جمع السلطان عددًا من الشموع، ورصها رصًا.. ثم ضربها بالسيف.. فأطار رؤوسها.. وهو يصيح: كذا أفعل بالبحرية.

فوثب بيبرس وثبته التاريخية التي اشتهر بها في المعارك الكبرى، واستل سيفه.. وضرب به السلطان، ليحتز عنقه، وهو يصيح: بل كذلك نفعل!!!

فتلقاه السلطان بيده، فقطع بعض أصابعه.

فلما رأى المدعوون ما جرى.. انفضوا على خوف ورعب!!!

بينما وقف بيبرس يزأر كالأسد: نحن اصطلينا بنارها، وقاتلنا الأعداء، وقهرناهم، ليكون جزاؤنا منك أيها الغادر، قطع الرقاب.. والله لا يهدأ لنا بال حتى نتمم عليك!!!

أما السلطان تورانشاه، فقام من وقته، ودخل البرج الخشب الذي كان قد عمل هناك بفارسكور.. وصاح: من جرحني؟.

قالوا: الحشيشية...

فقال: لا والله... الا البحرية، والله الا أبقيت منهم بقية.

واستدعى المزيِّن، فخيط يده، وهو يتوعدهم.

فقال بعضهم لبعض: تمموه وإلا أبادكم.

فدخل أمراء المماليك عليه البرج يقاتلونه، فانهزم الى أعلى البرج.

فأوقدوا النيران حول البرج.. ورموه بالنشاب.

فرمى بنفسه، وهرب نحو البرج وهو يقول: ما أريد مُلكًا.. ذعوني أرجع إلى الحصن.. ما فيكم من يصطنعني؟.

والعساكر واقفة فما أجابه أحد.

والنشاب تأخذه.. فتعلق بذيل الفارس أقطاي، فما أجاره..

فألقى السلطان بنفسه الى النيل، بعد أن شوته النار، فألقى أقطاي بنفسه وراءه في اليمّ، فأجهز عليه بالسيف في الماء.

ثم حملت جثته الى الجسر، وبقي على جانب البحر ثلاثة أيام منتفخًا، لا يجسر أحد أن يدفنه، حتى شفع فيه رسول الخليفة، فحمل إلى ذلك الجانب فدفن به.

وكان قتله يوم الاثنين، سابع عشرين المحرم، من سنة ثمان وأربعين وستمائة... وكان قدومه من حصن كيفا إلى المنصورة... في ليلة مستهل المحرم من السنة المذكورة...

وكان ذلك جزاء استهتاره!!!

وبيبرس . . .

هو الذي أشار . . .

بقتل رُسُل هولاكو . . .؟!

رأينا في الفصل السابق... كيف أن بيبرس هو الذي انتفض من دون سائر أمراء المماليك البحرية...

وانقضّ فجأة على السلطان المعظّم تورانشاه... بسيفه يقتله...

رغم أن السلطان كان يهدد جميع أمراء المماليك...

فلماذا بيبرس بالذات... هو الذي انتفض من بينهم جميعًا... وانقض يحتزّ رقبة السلطان؟!

إنها صفة أصيلة في بيبرس... يسارع الى سيفه... اذا رأى شيئًا لا يعجبه... أو فيه أدنى مساس بحقّه في الحياة!!!

وإليك الآن أعظم مشهد من مشاهد صفة الجرأة الخارقة من بيبرس...

أرسل هولاكو بعثة تهديد الى السلطان قُطُز... ومعهم كتاب فيه إنذار وقح... إمّا الاستسلام وإمًّا الدمار والعار والإبادة...

وشاور السلطان قُطُز... أتابك العساكر... بيبرس... وكان اذ ذاك قائدًا عامًّا للجيش...

قالوا: وشارو السلطان أتابكه بيبرس...

فأشار بيبرس أن يُقتل رُسُل هولاكو...

فأمر السلطان بقتلهم جميعًا . . . إلا واحدًا . . . وأن يُطاف برؤسهم في القاهرة!!!

فما معنى هذا ؟!!

معناه أن القائد العام . . . بيبرس . . . يُعلن الحرب على أعظم طاغية عسكري في العالم آنذاك . . . على جبّار المعارك الذي لم يُهزَم قطّ . . . هولاكو قائد قوات التتار . . .

فما معنى هذا ؟!!

معناه أن بيبرس قد واتته صفته الأصيلة . . . صفة الانقضاض على فريسته . . . أيًّا ما كانت تلك الفريسة قوة واقتدارا!!!

وفريسته هذه المرّة . . . شيئًا رهيبًا ضخمًا . . . جيشًا خرَّ العالم كله أمامه جثيًّا!!!

ولكن . . . ليكُن . . . إنه بيبرس . . . لا يبالي حجم غريمه . . .

إنها صفات الأسد . . . اذا رأى أن يهجم هَجَم!!!

ولقد كانت هذه الصفة من بيبرس . . . مصدر خير له دائمًا . . . ومنبع الخير للأمة كلها من بعده!!!

إنه حين أشار على قُطُز أن يحتز رقاب رُسُل هولاكو . . . إنما كان يعلن الحرب في أعنف حالات إعلان الحرب . . .

وما له لا يفعل . . . وقد بعث اللعين هولاكو . . . يخاطبهم على أنهم حثالة لا ينبغي أن تتأبى عليه . . . بل عليهم أن يسارعوا رُكّعًا ورُعْبًا!!!

فكما ينقض عليك الأسد إذا هيَّجته لا يبالي مَن أنت . . . فإن بيبرس هنا حين استثاره هولاكو . . . انقض عليه لا يبالي مَن هُوَ هُولاكو!!!

فكانت خيرا وبركة ومفتاحًا للنصر في «عين جالوت» . . . ثم في جميع معارك بيبرس مع التتار أثناء سلطنته بعد ذلك!!!

وصَدَق الصدّيق حين أوصى سيف الله المسلول: احرص على الموت توهب لك الحياة!!!

وقد كانت هذه الصفة... غريزة وفطرة في تركيب بيبرس...

يؤكد ذلك ما أشار به من قتل رُسُل هولاكو...

وما كان منه حين انقض على الأمير أرتوا فسقط يشخب دمًا!!!

وحين انقضى على السلطان تورانشاه... لولا أن اتقى الضربة... بيده... فأطارت أصابعه...

وحين انقض هاهنا آمرا بقتل الرُّسُل التتريين... فذُبِحوا كما أمَر... وطافوا برؤوسهم ليلًا في القاهرة!!!

فكانت اعلانًا للحرب على التتار!!!

وردًّا للصفعة بعشر أمثالها!!!

وعزَّةً... وإقدامًا... وفتحًا... ونصرًا عزيزًا!!!

وبيبرس...

هو البطل الأسطوري...

في معركة عين جالوت...؟!

رأينا في الفصل السابق... كيف أشار الأسد الضاري... بقتل رُسُل هولاكو... فقَتِلوا!!!

فهل فعل كما يفعل القادة العسكريون الجبناء... حين يصدرون أوامرهم وهم على مكاتبهم... ولا ينزلون بأنفسهم الى الالتحام مع الأعداء؟!!

كلا... بل قَتَل رُسُل هولاكو...

وسارع إليه على رأس الجيش...

ليلتقي بنفسه مع جيش هولاكو... هذا الخسيس الذي ظنَّ أنَّ أحدًا لا يجرؤ على مقاومته في الأرض!!!

فماذا كان من بيبرس في معركة عين جالوت؟!

وأيهما أعظم شجاعة في المعركة... قُطُز... أم بيبرس؟!

أمّا قُطُز فقد كان يباشر القتال بنفسه... يبحث عن الموت...

وأمّا بيبرس فقد كان يبحث عن ضحاياه... ليذيقهم الموت... ولا مانع أن يموت أثناء ذلك!!!

ولا تستطيع أن تجيب عن هذا السؤال... لأن كليهما كان فارسًا فيها وشجاعًا ومقدامًا...

وكلاهما انتزع النصر انتزاعًا!!!

كان الفارس الرائع... السلطان قُطُز... يقاتل عاري الرأس... قد

ألقى خوذته!!!

وكان الفارس الرهيب بيبرس يصرع الفرسان كأنما هو أسد يطارد طائفة من الغزلان!!!

اذا اشتد اعجابك بشجاعة قُطُز... نازعتك نفسك اعجابا بشجاعة بيبرس!!!

عملاقان... كل منهما أعظم من أخيه...

تقاسما مَجْد «عين جالوت»...

وأدارا عجلة التاريخ...

قُطُز أدارها بيمينه!!!

وبيبرس أدارها بشماله!!!

قسما مَجْدِ في معركة مجيدة!!!

بيبرس في عين جالوت؟!

قالوا:

« فكان الملتقى بمنزلة عين جالوت...

« فلما التقى الجمعان... حمل السلطان الملك المظفر بنفسه...

« وألقى خوذته عن رأسه...»

اقول... حتى هنا الشرف منعقد فوق رأس قُطُز... فماذا عن بيبرس؟...

« وحملت الأمراء البحرية...

« والعساكر المصرية... حملة صادقة...

« فكسروهم أشد كسرة...

« وقُتل كتبغانوين في المعركة...

« وقتل أكثر التتار»!!!

عبقرية بيبرس؟!

« وجهزت خيل الطلب وراء مَن همَّ بالفرار . . .

« وكان المقدم عليها . . . الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري . . .

« فتبع المنهزمين . . .

« وأتى عليهم قتلا وأسرًا . . .

« حتى استأصل شأفتهم . . .

« فلم يفلت أحد منهم . . . »!!!

اقول... هذا بيبرس... ثم ماذا ؟!

ابادة ألفين آخرين؟!

« وصادفت طائفة من التتار جاءت من عند هلاون... مَدَدا لكتبغا . . .

« فلما وصلت هذه النجدة إلى بلد حمص . . .

« صادفت التتار منهزمين على أسوأ الأحوال . . .

« والخيول تجول في طلبهم كل مجال . . .

« فلم تمكنهم الهزيمة[1] . . . فكانوا للسيوف غنيمة . . .

« وكانت عدتهم ألفين . . . فلم يبق لهم أثر ولا عين . . . »!!!

اقول... هذا بيبرس في معركة عين جالوت... ثم ها هو يُصَفِّي الهاربين من المعركة في كل مكان... ثم ها هو يُجهز على الـمَدَد بأكمله... ويبيد ألفين

(١) المقصود أنه لم يمكنهم الهرب والفرار.

من قادة التتار وجنودهم!!!

وهو في كل هذه المواطن سبّاقٌ الى العدو بنفسه... يسبق المهاجرين الى كل خَطَر!!!

وبيبرس . . .

هو أوّل مَن ضربَ . . .

السلطان قُطُز . . .

بسيفه . . .؟!

قال الراوي:

لما قرر السلطان الملك المظفَّر قُطُز... أمور الشام... سار من دمشق إلى جهة الديار المصرية...

وفي نفوس البحرية منه... ومن أستاذه قبله... من قتلها الفارس أقطاي...

واستبدادهما بالمُلك...

وإلجائهم إلى الهرب... والهجاج... والتنقل في الفجاج...

إلى غير ذلك من أنواع الأهوان التي قاسوها... والمشقات التي لابَسُوها...

وإنما انحازوا إليه لما تعذَّر عليهم المقام بالشام...

وللتناصر على صيانة الإسلام...

لا لأنهم أخلصوا له الولاء... أو رضوا له بالاستيلاء!!!

وقد ينبت المرعى على دِمَن الثرى وتبقى حزازاتُ النفوس كما هيا

بيبرس يتفق على قتل قُطُز ؟!

فاتفق الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري...

والأمير سيف الدين أنص الأصفهاني...

والأمير سيف الدين بلبان الرشيدي...

والأمير بدر الدين بكتوت الجوكانداري...

والأمير سيف الدين بَيْدَغان...

ومن معهم... على قتله!!!

وجعلوا يترصدون له وقتًا لانتهاز فرصتهم... وإمضاء عزيمتهم...

فلا يجدون سبيلًا إلى ما همُّوا بفعله... ولا تمكنًا من الوثوب به وقتله...

إلى أن أفضى بهم السيرُ إلى منزلة القُصَيْر بطرف الرمل... بينه وبين الصالحيَّة مرحلة...

وقد سبق الدهليزُ إلى الصالحية...

وقالوا: متى فاتنا من هذه المنزلة وصل إلى القلعة... وأعجزنا مَرَامُه... ولم نأمن انتقامه!!!

فعاجله البندُقداري بالسيف؟!

واتفق انه انفرد عن المواكب لصيد الأرانب... ساق خلف أرنب عرض له... وهم يَرْمقونه...

فلما رأوه قد بَعُد عن الأطلاب...

قالوا: الآن ندرك الطلاب...

وساقوا في إثره ركضا... وجاءوا يتلو بعضهم...

فتقدَّم إليه أنص الأصفهاني كأنه يشفع عنده في إصلاح حال الركن بيبرس البندقداري... لأنه أقام في الخدمة مُدَّة... ولم يعين له عدَّة... وخرج إلى الغزاة برمحه... وبذل فيها غاية نصحه...

فأجابه المظفَّر إلى سُؤَالِه... ووعده بإصلاح حاله...

فأهوى إلى يده كأنه يقبلها...

فأمسكها أنص... وضبطها!!!

فأيقن المظفر أنه قد ختل وخُدع... وأن ذلك الأمر قد أبْرم ووضع!!!

وأراد أن يجذب سَيْفه ليدفَع عن نفسه...

فعاجله البندُقداري بالسيف!!!

وأخذته السيوف!!!

فخرَّ صريعًا... يَمُجُّ دمًا ونجيعًا!!!

وذلك في سابع عشر... ذي القعدة من هذه السنة!!!

* * *

اقول... واضح من هذه الرواية أنَّ بيبرس هو أوَّل من عاجل السلطان قُطُز بسيفه... لم يسبقه أحد الى ذلك الأمر الرهيب!!!

بل الرواية الآتية تؤكد ذلك:

«ويقال: لما أجاب المظفَّر إلى كلام أنص... أهوى لتقبيل يده... فقبض عليها...

وحمل عليه بيبرس البندقداري حينئذ...

وضربه بالسيف!!!

واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه!!!

ثم قتلوه بالنشاب...» !!!

وهكذا... بيبرس أوّلاً... هو أوّل من يقتحم المخاطر... لا يسبقه أحد إلى الأهوال!!!

بل الرواية القادمة... تؤكد أنه ليس فقط كان أوّل من اقتحم... بل وباشر الجريمة وحده... لم يُشرك معه أحدًا!!!

شأنه في ذلك شأن الأسد في الغابة... اذا لمح عن بُعْدٍ فريسة ما... انقضَّ عليها وحده... لا يسمح لأحد أن يشاركه تلك اللذة... لذّة التفرّد بالانقضاض!!!

فعل ذلك بيبرس... حين انقضَّ على غريمه قُطُز...

فكيف كان ذلك؟!!

« ذكر ابن عبد الظاهر...

« أن بيبرس هو الذي قتل قُطُز بمفرده... فقال:

« وفعل السلطان الملك الظاهر ما فعله بنفسه...

« وبلغ غرضه بمفرده!!!

« وذلك بين العساكر العظيمة... والاحتراز الشديد!!!

« وما قدر أحد أن يتكلم!!!

« ولا جسر أن يمد يده إليه...» !!!

اقول... هذه الرواية صريحة... أنّ بيبرس كانت فيه هذه الصفة... صفة الانفراد بالانقضاض على الفريسة... وهي صفة أصيلة في الأسد... ينقضّ وحده على فريسته!!!

وصَدَق مَن لقّبَ بيبرس... بالأسد الضّاري!!!

السلطان . . .

الملك الظاهر . . .

بيبرس البندُقداري . . . ؟ !

قال الراوي:

ذِكْرُ سَلْطَنة الملك الظَّاهِر...

وهو الأسد الضاري... بيبرس البندُقداري...

مَن قتله منكم؟!

ولما وصل بيبرس... وهو والجماعة الذين قتلوا الملك المظفر المذكور إلى الدهليز...

كان عند الدهليز... نائب السلطنة... فارس الدين أقطاي المستعرب... وهو الذي كان أتابكا لنور الدين علي... ابن الملك المعزّ أيبك التركماني... بعد الحلبيّ...

فلما تسلطن قُطُز أقرَّه على نيابة السلطنة بالديار المصرية...

فلما وصل بيبرس البندقداريّ مع الجماعة الذين قتلوه...

سأله أقطاي المُسْتعرب وقال: مَن قتله منكم؟...

فقال بيبرس: أنا قتلته...

قال أقطاي: يا خوند... اجلس في مرتبة السلطنة مكانه!!!

فجلس!!!

وتلقَّب بالملك الظاهر؟!

واستدعيت العساكر للتحليف...

فحلفوا له في اليوم الذي قُتل فيه قُطُز!!!

(وهو سابع عشر ذي القعدة... من سنة ثمان وخمسين وستمائة)...

واستقر بيبرس في السلطنة...

وتلقب بالملك القاهر!!!

ثم بعد ذلك غُيِّر لقبه...

وتلقَّب بالملك الظاهر...

لأنه بلغه أن القاهر لقبٌ غير مبارك!!!

استقبال بيبرس... بنفس الزينة... التي أعدَّت لقُطُز؟!

وكان بيبرس هذا... قد سأل من قُطُز نيابة حلب... فلم يُجبْه إليها.. ليكون ما قدر الله تعالى!!!

فكأنَّ القَدَر قال له حين سأل نيابة حلب: لا تستعجل فإنك عن قريب تتولى السلطنة!!!

ولما حلف الناس له بالصالحية...

ساق في جماعة من أصحابه... وسبق العسكر إلى قلعة الجبل...

ففتحت له ودخلها...

واستقرَّت قدمه في المملكة!!!

وكانت مصر... والقاهرة... قد زُيِّنتا لقدوم الملك المظفَّر قطز...

فاستمرَّت الزينة للملك الظاهر بيبرس البندقداري...
فسبحان الله الفعال لما يريد!!!

لماذا عدل بيبرس عن لقب الملك القاهر؟!

وقال ابن كثير:
ولما قتل الأمراء السلطان المظفر قُطُز... حارُوا فيما بينهم لَمن يملكون عليهم؟...
وصار كل واحد منهم يخشى غائلة ذلك... وأنه يُقتل سريعًا...
ثم اتفقت كلمتهم على أن بايعوا الأمير ركن الدين بيبرس البندقداريّ...
ولم يكن من أكابر المقدمين... ولكن أرادوا أن يُجَرِّبُوا فيه!!!
ولقبوه الملك القاهر!!!
فقال له الوزير: إن هذا اللقب لم يفلح مَن تلقَّب به...
فقد تلقب به القاهر بن المعتضد... فلم تطل أيامُه حتى خلع وسُمل!!!
وتلقب به القاهر ابن صاحب الموصل... فسُمَّ فمات!!!
قيل: لما قتل الأمير بيدرا السلطان الملك الأشرف خليل ابن الملك المنصور قلاون... تسلطن وتلقب بالملك القاهر... وضربت رقبته من يومه!!!
ولما سمع بيبرس بذلك...
عدل عن القاهر... إلى الملك الظاهر!!!

في ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٨ هجرية
جلس على العرش

وقالوا:

استقرّ الملك الظاهر في السلطنة... يوم قُتِل المظفر...

وهو يوم السبت... السابع عشر... من ذي القعدة من هذه السنة...

وطلع القلعة سحر يوم الاثنين التاسع عشر منه...

وابتدأ بأحْلاف الأمراء... والأكابر... وسائر العساكر... والوزراء... والحكام... وأرباب الوظائف والأقلام... على الاختلاف في مراتبهم وطبقاتهم...

فحلفوا جميعًا!!!

وصرف همته إلى تدبير دولته... وتمهيد مملكته...

واستمالة الخواطر... واستجلاب قلوب الأكابر...

والتحيل على من تجب الحيلة عليه...

والترغيب لمن تُميّله الرغبة إليه...

وانقضت هذه السنة... ولم يركب موكب السلطنة حتى وكّد الأسباب... وسَدّ ما يخاف فتحه من الأبواب!!!

مَنْ هو الذي علاه بسيفه...
وعاجله أوّلا بحتْفه؟!

وقالوا:

لما قتلوا قُطُز... كانت أوائل العسكر قد وصلت الى المنْزلة...

ولم يشعروا بما كان... ولا علموا بعدم السلطان!!!

ثم لما نزل الأمراء الذين قتلوه... وتشاوروا فيمن يقوم بالأمر... وتردَّد الكلام بينهم...

فمنهم من يظهر الامتناع... ومنهم من يأبى الاستماع!!!

فقال لهم الأمير فارس الدين أقطاي... الأتابك المستعرب:

مَنْ هو الذي علاه بسيفه... وعاجله أوّلا بحتْفه؟...

فقالوا: الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري!!!

الضارب الأول أولى؟!

فقال: الضارب الأول أولى... ونحن نراه للمُلك أهلا!!!

فأجمعوا رأيهم عليه...

وأجلسوه على الطراحة الملوكيّة...

ووقفوا بين يديه!!!

ورأوا أن المصلحة في السُرعة... وطلوع القلعة قبل أن يَفْشُ الأمر... ويشعر به خوشداشية المظفَّر وإلزامه... فربما ينتقضُ ما أُبرم احكامه...

السباق إلى القلعة...
قبل أن ينتشر الخبر؟!

فركبوا مسرعين... وساروا سابقين...

وقدَّموا الأمير عزّ الدين أيدَمُر الحلبيّ... ليسبقهم إلى القلعة...

فيستفتح لهم الأبواب... ويستصلح النُّواب...
فسبق وطلع إليها...
وتحدث مع الأمراء المقيمين بها...
وأعلمهم أن المظفَّر قد قُتل..
والبندقداريّ قد مَلَك... ووَصَل!!!
وأن اتفقوا على الرضى به والحلف له!!!
فاستحلفهم الأيمان المؤكَّدة... وقرر معهم القاعدة...
وأقبل الركن البندقداريّ...
فتوقل غارب قلّتِها[1]... وتسنَّم كاهل ذروتها...
بغير ممانع يمانعه... ولا معارض يعارضه!!!
ورحل العسكر من تلك المنزلة على الإثر... وقد تنسَّمُوا أنفاس الخبر... فوصلوا إلى القاهرةِ والحلّ قد استتَم... والظاهر قد استقرَّ له الملك وانتظم!!!

(١) أي صعد إلى أعلى مكان بالقلعة.

أنا مع مَن . . .

يملك الديار المصرية . . .

كائنًا مَنْ كان . . . ؟!

قال الراوي:[1]

ذِكْرُ سَلْطَنَة الملك المجاهد في دِمَشْق...

قد ذكرنا أن السلطان الملك المظفر قُطُز... لما انتصر على التتار... ودخل دمشق...

ولّى عليها الأمير علم الدين سنجر الحلبي... أحد الأتراك...

ولما استقر فيها نائبًا شرع في العشر الأخير من ذي القعدة في عمارة قلعة دمشق...

وجمع لها الصناع وكبراء الدولة والناس... وعملوا فيها حتى عملت النساء أيضًا...

وكان عند الناس بذلك سرور عظيم...

(١) الاقتباس في هذا الفصل والفصول القادمة من كتاب «عِقد الجُمان... في تاريخ أهل الزمان».

الأمير يدعو الى نفسه ويتسلطن؟!

ثم في العشر الأول من ذي الحجة من هذه السنة... دعا الناس إلى نفسه... ولقّب نفسه بالملك المجاهد!!!

وذلك لما بلغه مقتل المظفّر قُطُز...

ودخل القلعة... واستقرّ فيها زاعمًا أنه سلطان!!!

قال ابن كثير:

ولما جاءت البيعة للملك الظاهر بيبرس... خطب له يوم الجمعة السادس من ذي الحجة...

فدعى الخطيب للظاهر أولًا... ثم للمجاهد ثانيًا...

وضربت السكة باسمها معًا أيضًا!!!

الملك المجاهد؟!

وفي تاريخ المؤيد:

ولما بلغ علم الدين سنجر الحلبي الذي استنابه المظفر قطز على دمشق قتلُ قُطُز...

جمع الناس وحلّفهم لنفسه بالسلطنة!!!

وذلك في العشر الأول من ذي الحجة... من سنة ثمان وخمسين وستمائة...

فأجابه الناس الى ذلك... وحلفوا له... ولم يتأخّر عنه أحد!!!

ولقّب نفسه بالملك المجاهد!!!

وخطب له بالسلطنة!!!

وضربت السكة باسمه!!!

وكاتب الملك المنصور صاحب حماة في ذلك فلم يجبه وقال:
أنا مع مَن يملك الديار المصرية... كائنًا مَنْ كان!!!

* * *

اقول... كان هذا أول المتاعب التي واجهت بيبرس...
إلا أنه واجهها بحزم وعزم... فكيف كان مسار الأحداث؟!

هزيمة . . .

ساحقة . . .

للتَّتار . . . ؟!

قال الراوي:

ذِكْرُ عَوْدِ التتار إلى الشام...

وفي هذه السنة تحرك التتار... وتوجهوا إلى جهة الشام...

وفي يوم الجمعة خامس المحرم من السنة الآتية... وهي سنة تسع وخمسين وستمائة...

كانت كسرة التتار على حمص...

كيف هُزِمَ التَّتار؟!

وكانت التتار ساروا اليهم...

فاجتمعت العساكر الحلبيّة والحَماويَّة والحمصية... مع صاحب حمص الملك الأشرف...

واتفقوا على ملاقاة التتار...

فالتقوا بظاهر حمص... في نهار الجمعة المذكور...

وكان التتار أكثر من المسلمين بكثير...

ففتح الله عز وجل على المسلمين بالنصر!!!

وولت التتار منهزمين!!!وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون منهم

كيف شاءوا!!!

وقال ابن كثير:

وكانت كسرة التتار على حمص... قريبًا من قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه...

وكانت أعظم من كسرة عين جالوت بكثير... لكثرة التتار... وقلة المسلمين...

وكانت التتار في ستة آلاف...

والمسلمون ألف وأربعمائة!!!

وبعد أربعة أشهر توجَّه التتار من حلب الى الشرق!!!

لعبة سياسية بارعة...

بيبرس يلغي الضرائب...

التي فرضها قُطُز...؟!

قال الراوي:
ذكر بقية الحوادث في هذه السنة:
منها: أن السلطان الملك الظاهر بيبرس...
كتب للناس مسموحًا... بما كان الملك المظفر قُطُز قد قرَّره عليهم...
وهو ستمائة ألف دينار في كل سنة... تجيء من الناس بغير سبب!!!

بيبرس يلغي جميع الضرائب؟!

ذكر المقريزي أن قُطُز:
«أحدث في هذه السنة حوادث كثيرة عند حركته لقتال التتر:
منها تصقيع الأملاك وتقويمها...
وأخذ زكاتها من أربابها...
وأخذ من كل واحد من الناس... من جميع أهل إقليم مصر... دينارًا...
وأخذ من الترك الأهلية (التركات) ثلثها...

فأبطل الملك الظاهر جميع ما أحدثه قُطُز » !!!

★ ★ ★

أقول... هذا دليل على عبقرية بيبرس السياسية...
والسياسة لعبة مكر ودهاء وألاعيب...
وهذه لعبة بارعة... ينتزع بها بيبرس تصفيق جميع المصريين...
لقد أثقلهم قُطُز بالضرائب لزوم المعركة مع التتار...
وقد انتهت المعركة... وجاء النصر بأغاريده...
وها هو بيبرس يلغي جميع الضرائب التي فرضها قطز !!!
فينتزع بذلك حُبَّهم... وترتفع أيديهم بالتصفيق له طويلاً !!!
إنَّ بيبرس رجلٌ دولة من الطراز الأعظم!!!
إنه يعلم كيف يسوس الشعوب... وكيف ينال إعجابها!!!

بيبرس...

يقضي على الثورة...

ويصلب القائمين بها...؟!

ومنها:
أنَّ جمعًا من السودان...
اجتمعوا بالقاهرة... والركبداريَّة[1]... والغلمان[2]...
وخرجوا بليل... في وسط المدينة ينادون «يا آل عليّ»!!!

الثوّار يستولون على الأسلحة؟!

وفتحوا دكاكين السيوفيين بين القصرين...
وأخذوا ما فيها من السلاح!!!
وأخذوا خيل الجند من بعض الإصطبلات!!!

(١) هم الذين يحملون الغاشية بين يدي السلطان في المواكب... وهم تابعون للركاب خاناة أي بيت الركاب...

(٢) الغلمان: جمع غلام... وهو الصبي الصغير والمملوك... ثم غلب على من يقوم بخدمة الخيل من أرباب الخدم.

الزعيم المتمشيخ؟!

وكان الباعث لهم على ذلك شخص يعرف بالكوراني...
تظاهر بالزهد والمشيخة...
وعمل له قبّة على الجبل الأحمر... وأقام بها...
وتردَّد بعض الغلمان إليه... وأقبلوا عليه!!!
فأجرى معهم هذا الأمر... ووعدهم بالإقطاعات!!!
وكتب لبعضهم رقاعًا ببلاد معينة!!!
فثاروا هذه الثورة!!!

الثوار معلّقين... ومُصلّبين على باب زويلة؟!

فركبت جماعة من العسكر... وأحاطوا بهم...
وأُخِذُوا أخْذًا وبيلًا!!!
فأصبحوا مصَلَّبين على بابي زويلة!!!
وسكنت الفتنة!!!

★ ★ ★

اقول... واجه بيبرس هذه الثورة في عنف شديد...
وقتَّل القائمين بها تقتيلًا وبيلا...
وصَلَّبهم على بابي زويلة!!!
إنه أسد... إذا آنس خطرًا من بعيد... انقضَّ عليه بكل ما أوتي من قوة!!!

السلطان . . .

يباشر . . .

سُلطاته . . . ؟!

في السنة التاسعة والخمسين بعد الستمائة...

موكب السلطان؟!

في سابع صفر من هذه السنة...
ركب بشعار السلطنة... وأظهر المهابة المتمكنة...
وشقَّ المدينة... وقد زخرفت بالزينة...
ونثرت عليه الدنانير والدراهم...
وأفيضت الخلع على الأمراء... والمقدّمين... والوزراء... والمتعممين... على تفاوت أقدارهم...
وكتب إلى صاحب المغرب... وصاحب اليمن... وملوك الشام... وثغور الإسلام... بما قدَّره الله له من القيام بأمر عباده... وإيالة بلاده...
واستبشرت به القلوب... وانجلت بدولته الكروب!!!

اعادة تنظيم الدولة؟!

واستمرَّ بالصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير بُرهةً يسيرة... ثم عزله وولى الصاحب بهاء الدين علي بن عماد الدين محمد الوزارة...

وولى القاضي تاج الدين عبد الوهاب بن الأعز خلف الحُكم...

وقرَّر قواعد الدولة على النظام...

وأظهر عزمًا أرهف من حدّ الحسام!!!

وراعى القواعد الصالحيَّة... وتبع الآثار النجميَّة!!!

القبض على أعضاء مؤامرة لقلب نظام الحُكْم؟!

ومنها في ربيع الآخر:

قبض الملك الظاهر... على جماعة من الأمراء بلغه عنهم أنهم يريدون الوثوب عليه!!!

بناء مشهد عين جالوت؟!

ومنها: أن الظاهر أمر ببناء مشهد على عين جالوت...

لما شاهد من بركة ذلك المكان...

فبني هناك مشهد!!!

السلطان يغري بركة خان بهولاكو؟!

ومنها: أنه كتب إلى بركة بن صاين قان... صاحب البلاد الشمالية... كتابًا يغريه بهلاون...

ويعرفه أن جهاده واجب عليه...

لتواتر الأخبار بإسلامه... ويلزمه إذا دخل في دين الإسلام أن يجاهد الكفار!!!

اقول... إن بيبرس ليس مجرد سلطان... إنه داعية الى الله... يعلم ما عليه نحو دينه!!!

تعيين أمير العربان؟!

ومنها: أن الظاهر كتب منشور الإمرة على جميع العربان... للأمير شرف الدين عيسى بن مُهَنّا...

وأحضر أمراء العرب... وأجرى اقطاعاتهم...

وسلم إليهم خفر البلاد...

وألزمهم حفظها إلى حدود العراق!!!

اقول... هذا خبر خطير جدًا...

إن حفظ الأمن... في المملكة كلها... موكول الى العربان... لما يتميزون به من الجرأة والشهامة...

وسلطتهم ممتدة بطول البلاد وعرضها الى حدود العراق... اي الى آخر حدود الديار الشامية والديار المصرية...

حيث ان مملكة بيبرس كانت تشمل بلاد الشام كلها (سوريا ولبنان

وفلسطين والأردن اليوم) فضلًا عن الديار المصرية كلها الى آخر النوبة!!!

هناك تنظيم خطير... اعمال الأمن من اختصاص العربان!!!

هدية الى الامبراطور؟!

ومنها: أن الظاهر جهّز إلى الأنبَرُور[1] هدية من جملتها الزّراف...

وأرسل إليه جماعة من التتار الأسارى... المأخوذين في نوبة عين جالوت بخيولهم التترية وعُدَّتهم!!!

اقول... هذه ليست هدية وانما هي تهديد غير مباشر الى هذا الامبراطور... كأنه يريد أن يقول له: هذا ما حدث للتتار على أيدينا... ولست أعزّ علينا منهم!!!

اسلوب بيبرس في مواجهة خصومه؟!

ومنها: أن السلطان كتب الى علم الدين سنجر الحلبي... الذي كان الملك المظفر قُطُز ولاه نيابة دمشق... ثم أنه ركب في دمشق بشعار السلطنة... وخطب له على المنابر وتلقّب بالملك المجاهد... وذلك حين بلغه مقتل الملك المظفّر...

---

(١) يقصد بها الامبراطور... والمقصود هنا هو مانفريد بن فردريك الثاني الذي حكم صقلية وجنوب ايطاليا في الفترة من ١٢٥٨ - ١٢٦٦ م.

فكتب إليه الظاهر يقبّح هذا الفعل عليه... ويتلطّف به في الرجوع عنه...

ثم جرّد إليه الأمير جمال الدين المحمدي ليستميله ويردّه إلى الصواب...

وأرسل إليه صحبته مائة ألف وخمسة وعشرين ألف درهم... أنعامًا... وحوائص ذهب... وخلعًا نفيسة...

فأشهد على نفسه بأنه قد نزل عن الأمر... وأنه نائب من نواب السلطان!!!

ثم لم يلبث أن رجع إلى ما كان عليه من الخلاف...

وركب بشعار السلطنة!!!

بيبرس يرسل جيشًا لسَحْق الملك المجاهد؟!

فجهز السلطان إليه جيشًا صحبة الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار... وهو أستاذ السلطان الملك الظاهر...

فوصلوا الى دمشق في ثالث صفر من هذه السنة...

فخرج إليهم سنجر الحلبي لقتالهم...

وكان صاحب حماة... وصاحب حمص بدمشق... لم يخرجا مع سنجر الحلبي... ولا أطاعاه لاضطراب أمره...

ووقع القتال بينهم بظاهر دمشق... في ثالث عشر صفر...

فانهزم الحلبي!!!

وولّى وأصحابه معه... ودخل الى قلعة دمشق حتى أجنّه الليل...

فهرب من قلعة دمشق الى جهة بعلبك...

فتبعه العسكر... وقبضوا عليه...

وحُمل الى الديار المصرية...

فاعتقله الظاهر بها ... ثم أطلق!!!

اقول... هذا اسلوب من اساليب الظاهر في مصارعة خصومه... استماله أولًا باللين والملاطفة والذَهَب... فلمّا لم يفلح معه اسلوب اللين أخذه أخذًا وبيلًا!!!

قال الراوي:

واستقرَّت دمشق في ملك الظاهر بيبرس...

وأقيمت له الخطبة بها وبغيرها من الشام مثل حماة وحمص وحلب وغيرها...

واستقرّ أيدكين البندقدار الصالحي في دمشق لتدبير أمورها...

ولما استقرَّ الحال على ذلك... رحل الملك المنصور صاحب حماة... والأشرف صاحب حمص... وعادا الى بلادهما... واستقرّا بها...

وقال بيبرس في تاريخه:

وقرر السلطان الظاهر أن يكون حديث القلعة بدمشق... وأمر الأموال للأمير علاء الدين طيبرس الوزيري الحاج...

ثم رتبه في نيابة السلطنة!!!

وهكذا... صفت البلاد الشامية كلها لبيبرس... فضلًا عن الديار المصرية!!!

بيبرس ...
يقيم الخلافة العباسية ...
في مصر ...؟!!

ومنها:

نصب السلطان الملك الظاهر... الخليفة للمسلمين!!!

وأصل ذلك أن في رجب من هذه السنة قدم الى مصر جماعة من العرب...

ومعهم شخص أسمر اللون اسمه أحمد...

زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله... ابن الناصر لدين الله...

وأنه خرج من دار الخلافة ببغداد لما ملكها التتار...

فعقد السلطان الملك الظاهر بيبرس مجلسًا...

حضر فيه جماعة من الأكابر...

منهم الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام...

والقاضي تاج الدين عبد الوهاب بن خلف... المعروف بابن بنت الأعز...

فشهد أولئك العرب أن هذا الشخص المذكور...

هو ابن الظاهر محمد... ابن الإمام الناصر لدين الله...

فيكون عم المستعصم بالله... الذي قتله هلاون[1]!!!

وأقام القاضي جماعة من الشهود واجتمعوا بأولئك العرب وسمعوا

---

(١) هلاون: هو هولاكو.

شهادتهم . . .
فشهدوا بالنسَب بحكم الإستفاضة . . .
فأثبت القاضي تاج الدين نسَب أحمد المذكور . . .
ولقَّبوه بالمستنصر بالله . . . أبا القاسم . . . أحمد بن الظاهر بالله محمد . . .
وبايعه الملك الظاهر والناس بالخلافة!!!

بيبرس يبايع الخليفة؟!

ثم اهتمّ الظاهر بأمره... وعمل له الدهليز... والجمدارية... والسلاح داريّة... وآلات الخلافة... واستخدم له عسكرًا...

وعزم على تجهيزه جملة طائلة...

قيل: كانت جملتها ألف ألف دينار!!!

وفي تاريخ بيبرس:

وفي التاسع من رجب وصل الإمام أبو العباس أحمد ابن الإمام الظاهر بالله... ابن الإمام الناصر لدين الله... من العراق إلى الديار المصرية...

وركب السلطان الظاهر للقائه في موكب مشهود... ومحفل محفود...

وأنزله في القلعة... وبالغ في إكرامه...

وقصد إثبات نسبته... وتقرير بيعته...

لأن الخلافة كانت قد شغرت منذ قتل الإمام المستعصم بالله...

فسرّ السلطان باتصال اسبابها... وتجديد أثوابها... وإقامة منارها... وإظهار شعارها...

لتكون ثابتة الأساس... متصلة في بني العباس... كما سبقت

الوعود النبوية بأنها خالدة... تالدة في هذه الذرية!!!

فأحضر الأمراء الكبار... ومقدمي العساكر... والوزير... وقاضي القضاة... ونواب الحكم... والفقهاء... والعلماء... والصلحاء... وأكابر المشايخ... وأعيان الصوفية...

فاجتمع المحفل بقاعة الأعمدة بقلعة الجبل...

وحضر الخليفة!!!

وتأدَّب السلطان معه في الجلوس بغير مرتبة ولا كرسي...

وأمر بإحضار العربان الذين حضروا مع الخليفة من العراق...

فحضروا وحضر خادم من البغاددة... فسُئلوا عنه...

هل هو الإمام أحمد بن الظاهر بن المستنصر؟...

فقالوا: إنه هو...

فشهدت جماعة بالاستفاضة وهم:

جمال الدين يحي... نائب الحكم بمصر...

وعلم الدين بن رشيق...

وصدر الدين موهوب الجزري...

ونجيب الدين الحرّاني...

وسديد الدين التزمنتي... نائب الحكم بالقاهرة...

عند قاضي القضاة... تاج الدين عبد الوهاب...

فأسجل على نفسه بالثبوت...

فقام قاضي القضاة... وأشهد على نفسه بثبوت النسبة..

وسُمّي الإمام أحمد بالمستنصر بالله...

وبايعه السلطان علَى:

كتاب الله...

وسنة رسوله عليه السلام...

والامر بالمعروف والنهي عن المنكر . . .
والجهاد في سبيل الله . . .
وأخذ أموال الله بحقها . . . وصرفها في مستحقها!!!

الخليفة يُقَلِّد السلطان بيبرس البلاد الإسلامية؟!

وبعد البيعة له . . . قلَّدَ الخليفةُ . . . السلطان البلاد الإسلامية . . . وما يضاف إليها . . . وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار . . .
ثم بايع الناس الإمام على اختلاف طبقاتهم . . .
فتمت له الخلافة . . . وصحت له الإمامة . . .
وكتب السلطان إلى البلاد بأخذ البيعة له . . .
وأن يخطب له على المنابر . . .
وتنقش الصكة باسمه . . . واسم الملك الظاهر!!!
ولما كان يوم الجمعة السابع عشر من رجب خطب الخليفة بالناس في جامع القلعة!!!
وقال ابن كثير:
وكان منصب الخلافة شاغرًا ثلاث سنين ونصفًا . . .
لأن المستعصم بالله قتل في أوائل سنة ست وخمسين وستمائة . . .
وبويع هذا في يوم الاثنين الثالث عشر من رجب من هذه السنة . . . أعني سنة تسع وخمسين وستمائة!!!

الخليفة . . .

. . . يُقَلِّد السلطان . . .

في حفل مشهود . . .؟!

وقال ابن كثير:

ولما كان يوم الاثنين... الرابع من شعبان...

ركب الخليفة... والسلطان...

والوزير... والقضاة... والأمراء...

وأهل الحلّ والعقد...

إلى خيمةٍ عظيمة... قد ضربت بظاهر القاهرة...

فألبس الخليفةُ... السلطان بيده... خلعةً سوداء...

وطوقًا في عنقه...

وقيدًا في رجليه... وهما من ذهب!!!

وصعد فخر الدين... إبراهيم بن لقمان... رئيس الكتاب منبرًا...

فقرأ عليه تقليد السلطان...

وهو من إنشائه وبخط نفسه...

ثم ركب السلطان بهذه الأُبَّهة... والقيد في رجليه... والطوق في عنقه...

والوزير بين يديه... على رأسه التقليد...

والأمراء... والدولة في خدمته... مشاة... سوى الوزير...

فشقَّ القاهرة!!!

وقد زينت له!!!

وكان يومًا مشهودًا!!!

ونسخة التقليد المكتتب عن الخليفة للسلطان:

«الحمد لله الذي اصطفى الإسلام بملابس الشرف... وأظهر بهجة دُرَره... وكانت خافية بما استحكم عليها من الصدَف... وشيّد ما وَهى من عُلائه حتى أنسى ذكر ما سَلَفْ... وقيّض لنصره مُلوكًا اتفق على طاعتهم من اختلَفْ.

أحمده على نِعَمِه التي رتعَتْ الأعين منها في الـروض الأُنف... وألطافه التي وُقِّفَتُ للشكر عليها... فليس له عنها مُنصَرَف...

وأشهد أن لا إله إلا الله... وحده لا شريك له، شهادةً توجبُ من المخاوف أمْنًا، وتُسَهِّلُ من الأمور ما كان حَزَنا. وأشهد أن محمدًا عبده الذي جبر من الدين وَهْنًا، ورسولِه الذي أظهر من المكارم فنونًا لا فَنًّا، صلى الله عليه وعلى آله. الذين أضحت مناقبُهم باقيةً لا تَفْنى، وأصحابه الذين أحْسَنوا في الدين فاستحقُّوا الزيادة في الحُسْنى، وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد: فإنّ أولَى الأولياء بتقديم ذكره، وأحقهم أن يُصْبح القلمُ ساجدًا وراكعًا في تسطير مناقبه وبرّه، من سعى فأضحى بسعيه الجميل مُقَدّمًا، ودعا إلى طاعته فأجاب من كان مُنْجِدًا ومُتْهمًا، وما بدَت يدٌ من المكرمات إلا وكان لها زندًا معصمًا، ولا استباح بسيفه حِمى وغًى إلا أضرمه نارًا وأجراه دَمًا.

ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصةً بالمقام العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري الركني، شرّفه الله وأعلاه، ذكره الديوانُ العزيزُ النبويّ الإماميُّ المستَنْصِريُّ، أعز الله سلطانه، تنويهًا بشرف قدره، واعترافًا بصنيعه الذي تنفذ العبارةُ المسهبة ولا تقوم بشكره، وكيف لا؟ وقد أقام الدولة العباسيّة بعد أن أقعدتها زمانة الزمان، وأذهب ما كان لها من محاسن

وإحسان، وعتب دهرها المسيء لها فأعتب، وأرضى عنها زمانها، وقد كان ضال عليها صولة مغضب، فأعاده لها سلمًا بعد أن كان عليها حربًا، وصرف إليها اهتمامه فرجع كل متضايقٍ من أمورها واسعًا رحبًا، ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنوًا وعطفًا، وأظهر له من الولاء رغبة في ثواب الله ما لا يخفى، وأبدى من الإهتمام بأمرِ [الشريعة و] البيعةِ أمرًا لو رامه غيره لامتنع عليه، ولو تمسك بحبله متمسك لانقطع به ٤٦٥ قبل الوصول إليه، لكن الله تعالى ادخر هذه الحسنة ليثقل بها في الميزان ثوابه ويخفف بها يوم القيامة حسابه، والسعيد من خفف حسابه، فهذه منقبة أبي الله إلا أن يخلدها في صحيفة صنعه، ومكرمة قضت لهذا البيت الشريف بجمعه، بعد أن حصل إياس من جمعه.

وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع، ويعترف أنه لولا اهتمامك بأمره لاتسع الخرق على الراقع، وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية، والديار البكرية، والحجازية، واليمنية، والفراتية، وما يتجدّد من الفتوحات غورًا ونجدًا، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت في المكارم فردًا، ولا جعل منها بلدًا من البلاد، ولا حصنًا من الحصون مستثنى، ولا جهة من الجهات تعد في الأعلى ولا الأدنى.

فلاحظ أمور الأمة، فقد أصبحت لها حاملًا، وخلص نفسك من التبعات اليوم ففي الغد تكون مسئولًا ولا سائلًا، ودع الاغترار بأمر الدنيا فما نال أحد منها طائلًا، وما رآها أحد بعين الحق إلا رآها خيالًا زائلًا، فالسعيد من قطع منها آماله الموصولة، وقدم لنفسه زاد التقوى، فتقدمة غير التقوى مردودة لا مقبولة، وابسط يدك بالإحسان والعدل، فقد أمر الله بالعدل والإحسان وكرر ذكره في مواضع من القرآن، وكفر به عن المرء ذنوبًا كتبت عليه وآثامًا، وجعل يومًا واحدًا فيه كعبادة العابد ستين عامًا، وما سلك أحد سبيل العدل إلا واجتنيت ثماره من أفنان، ورجع الأمر به بعد تداعي أركانه

وهو مشيد الأركان، وتحصن به من حوادث زمانه، والسعيد من تحصن من حوادث الزمان، وكانت أيامه في الأيام أبهى من الأعياد، وأحسن في العيون من الغُرَر في أوجه الجياد، وأحلى من العقود إذا حلي بها عطل الأجياد.

وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى نواب وحكام، وأصحاب رأي من أصحاب السيوف والأقلام، فإذا استعنت بأحد منهم في أمورك فنقب عليه تنقيبًا، واجعل عليه في تصرفاته رقيبًا، وسل عن أحواله ففي يوم القيامة تكون عنه مسئولًا، وبما أجرم مطلوبًا، ولا تول منهم إلا من تكون مساعيه حسنات لك لا ذنوبًا، وأمرهم بالإناة في الأمور والرفق، ومخالفة الهوى إذا ظهرت لهم أدلة الحق، وأن يقابلوا الضعفاء في حوائجهم بالثغر الباسم، والوجه الطلق، وأن لا يعاملوا أحدًا على الإحسان والإساءة إلا بما يستحق، وأن يكونوا لمن تحت أيديهم من الرعية إخوانًا، وأن يوسعوهم برًا وإحسانًا، وأن لا يستحلوا حرماتهم إذا استحل الزمان لهم حرمانًا، فالمسلم أخو المسلم ولو كان أميرًا عليه أو سلطانًا، والسعيد من نسج ولاته في الخير على منواله، واستنوا بسنته في تصرفاته وأحواله، وتحملوا عنه ما تعجز عن حمل أثقاله.

ومما يؤمرون به أن يمحى ما أحدث من سيء السنن، وجدد من المظالم التي هي على الخلائق من أعظم المحن، وأن يشتري بإبطالها المحامد، فإن المحامد رخيصة بأغلى ثمن، ومهما جبي منها من الأموال فإنما هي باقية في الذمم، وإن كانت حاصلة، وأجياد الخزائن وإن أضحت بها خالية، فإنما هي على الحقيقة منها عاطلة، وهل أشقى ممن احتقب إثمًا، واكتسب بالمساعي الذميمة ذمًا، وجعل السواد الأعظم يوم القيامة له خصمًا، وتحمل ظلم الناس فيما صدر عنه من أعماله، ﴿وقد خابَ مَن حَمَلَ ظلمًا﴾[1].

وحقيق بالمقام الشريف، المولوي، السلطاني، الملكي، الظاهري، الركني،

---

(١) سورة طه، آية ١١١.

أن تكون ظلامات الأنام مردودة بعدله، وعزائمه تخفف عن الخلائق ثقلًا لا طاقة لهم بحمله، فقد أضحى على الإحسان قادرًا، صنعت له الأيام ما لم تصنعه لمن تقدم من الملوك وإن جاء آخرًا، فاحمد الله على أن وصل إلى جنابك إمام هدى يوجب لك مزية التعظيم، وينبه الخلائق على ما خصك الله به من هذا الفضل العظيم، وهذه أمور يجب أن تلاحظ وترعى، وأن يوالى عليها حمد الله فإن الحمد لله يجب عليها عقلًا وشرعًا، وقد تبين أنك صرت في الأمور أصلًا وصار غيرك فرعًا.

ومما يجب أيضًا تقديم ذكره، أمر الجهاد الذي أضحى على الأمة فرضًا، وهو العمل الذي يرجع به مسود الصحائف مبيضًا، وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم، وأعد لهم عنده المقام الكريم، وخصهم بالجنة التي ﴿لا لَغْوٌ فيها ولا تأثيمٌ﴾[1]، وقد تقدمت لك في الجهاد يد بيضاء أسرعت في سواد الحساد، وعرفت منك عزيمة وهي أمضى مما تجنه ضمائر الأغماد، واشتهرت لك مواقف في القتال هي أشهر وأشهى إلى القلوب من الأعياد، وبك صان الله حمى الإسلام من أن يبتدل، وبعزمك حفظ على المسلمين نظام هذه الدول، وسيفك أثر في قلوب الكافرين قروحًا لا تندمل، وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه في الأيام الأول.

فأيقظ لنصرة الإسلام جفنًا ما كان غافيًا ولا هاجعًا، وكن في مجاهدة أعداء الله إمامًا متبوعًا لا تابعًا، وأيد كلمة التوحيد فما تجد في تأييدها إلا مطيعًا سامعًا.

ولا تخل الثغور من اهتمام بأمرها، تبتسم له الثغور، وإحتفال يبدل ما دجي من ظلماتها بالنور، واجعل أمرها على الأمور مقدمًا، وشيد منها كل ما غادره العدو متهدمًا، فهذه حصون بها يحصل الإنتفاع، وبها تحسم الأطماع،

(١) سورة الطور، آية ٢٣.

وهي على العدو داعية افتراق لا اجتماع، وأولاها بالإهتمام ما كان البحر له مجاورًا، والعدو إليه ملتفتًا ناظرًا، لا سيما ثغور الديار المصرية، فإن العدو وصل إليها رابحًا وراح خاسرًا، واستأصلهم الله فيها حتى ما أقال منهم عاثرًا.

وكذلك أمر الأسطول الذي ترى حبله كالأهلّة، وركائبه سائقة بغير سائق مستقلة، وهو أخو الجيش السليماني، فإن ذاك غدت الرياح له حاملة، وهذا تكلفت بحمله المياه السائلة، وإذا لحظها الطرف جارية في البحر كالأعلام، وإذا شبهها قال: هذه ليال تقلع بالأيام.

وقد سنى لك الله من السعادة كل مطلب، وآتاك من أصالة الرأي الذي يريك المغيَّب، وبسط بعض القبض منك الأمل، ونشط بالسعادة ما كان من كسل، وهداك إلى مناهج الحق، وما زلت مهتديًا إليها، وألزمك المراشد فلا تحتاج إلى تنبيه عليها، والله تعالى يمدّك بأسباب نصره، ويوزعك شكر نعمه، فإن النعمة تستتم بشكره إن شاء الله تعالى».

* * *

وركب السلطان، وشق المدينة، وحمل التقليد الأمير جمال الدين النجيبي أستاذ الدار والصاحب بهاء الدين في بعض الطريق، فكان السلطان في موكبه هذا كما قيل:

خِلَعٌ خَلَعْنَ من العِداةِ قلوبَهُم ... وملأن بالإشراق أبْصَارَ المَلَا
لما طلعتَ بها بهرتَ فلم تُطق ... طرف إليك من الشجاع تأمّلَا

* * *

اقول ... وهكذا جُمع لبيبرس المجد من أطرافه ...

مُلْك يمتد الى ما بعد حلب شمالًا ... الى أقصى النوبة جنوبًا ...

ومن الفرات شرقًا ... الى البحر الأبيض المتوسط غربًا!!!

وها هو الخليفة يُقَلِّده أمر البلاد كلها ... البلاد الاسلامية ... وما ينضاف اليها ... وما سيفتحه الله على يديه ...

وها هو يلبسه الخليفة بيده الخلعة السوداء المباركة!!!

وإنك اذا تأملت نصوص التقليد الذي أذيع على ملأ مِن السادات والكبراء والعلماء والأمراء ...

آنستَ بلاغةً رائعة ... وبيانًا جميلًا ... أخّاذًا جذّابًا ...

ثم هو بعد ذلك نصيحة خالصة للسلطان ... في قول هيِّن ليِّن ...

وتلمس في ثناياه حرصًا من الجميع ... على نصرة هذا الدين ...

وإشاعة العدل ... وتحقيق المساواة بين الجميع!!!

لقد كان القوم أولى بقية مِن دين!!!

السلطان بيبرس . . .

يتوجه الى الشام . . .

ويَحْكم من دمشق . . .؟!

ومنها: أن السلطان الملك الظاهر بيبرس توجه الى الشام... خارجًا من مصر في السادس من شوال من هذه السنة...

وصحبته العساكر... والخليفة... وحاشيته...

وكان قصد الظاهر تقرير ما تغير من القواعد... وإعادة الأحوال بدار السلام...

وقال ابن كثير:

وكان سبب خروج السلطان الى الشام...

أن البر لي كان قد استحوذ على حلب...

فأرسل اليه الأمير علم الدين سنجر الحلبي الذي كان قد تغلب على دمشق... فطرده عن حلب وتسلمها منه... وأقام بها نائبًا عن السلطان...

ثم لم يزل البرلي حتى استعادها منه واستولى عليها كما كان...

فاستناب السلطان على الديار المصرية عز الدين أيدمر الحلبي... وجعل تدبير المملكة بها إلى الوزير بهاء الدين بن حنا...

واستصحب ولده فخر الدين بن الحنا وزير الصحبة...

وجعل تدبير العسكر والجيوش معه إلى الأمير بدر الدين بَيْلَبَك الخزندار...

اقول... هذا هو بيبرس... آنس في الشام خطرًا محتملًا من جهة البرلي

الذي عاد واستولى على حلب...

فسارع بنفسه الى الشام... يدبر أمرها... ويحفظ ثغورها!!!

بيبرس يدخل دمشق ومعه الخليفة؟!

وكان دخول السلطان إلى دمشق... يوم الاثنين سابع ذي القعدة من هذه السنة...

وكان يومًا مشهودًا!!!

وصلى هو والخليفة الجمعة بجامع دمشق...

وكان دخول الخليفة إلى الجامع من باب البريد...

ودخول السلطان من باب الزيادة...

وكان يومًا مشهودًا!!!

السلطان يرسل جيشًا لمحاربة البرلي؟!

وقدم إليه صاحب حمص... الملك الأشرف... فخلع عليه... وأطلق له... وكتب له تقليدًا ببلاده...

ثم جهز جيشًا صحبة الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار إلى حلب لمحاربة البرلي... المتغلب عليها المفسد فيها...

بيبرس يعزل الفجّار ويُولّي الأبرار؟!

وفي يوم الخميس... ثامن ذي الحجة...

عزل عن قضاء دمشق... النجم بن الصدر بن سني الدولة...

وتولى الحكم القاضي شمس الدين أحمد بن بهاء الدين... بن خلكان... الذي كان نائبًا في الحكم بالقاهرة سنين كثيرة... وجلس مكان النجم وابنه بالمدرسة العادلية...

ثم وكل على النجم... وأمره بالسفر الى الديار المصرية...

وكان حاكمًا جائرًا فاجرًا ظالمًا متعديًا!!!

فاستراح منه البلاد والعباد!!!

ثم سافر القاضي المعزول إلى مصر... تحت الحوطة يوم الخميس خامس عشر ذي الحجة...

والدعاء عليه كثير... والتظلم منه شائع... والدعاوى عليه كثيرة!!!

اقول... هذا هو بيبرس... لم يذهب الى الشام للنزهة كما يفعل كثير من الملوك... كلا وإنما لنزع الطغاة أمثال البرلي بالقوة... وتقرير العُدول في ممالكهم أمثال صاحب حمص الملك الأشرف... وفصل الجبابرة المجرمين أمثال هذا القاضي المرتشي الظالم النجم بن الصدر!!!

وهذه هي عبقرية الحُكْم...

ينبغي أن يكون الحاكم... رأس الدولة... حسّاسًا غاية الحساسية... يشعر بمتاعب الجماهير من بُعد... ويسارع الى اتخاذ القرارات اللازمة لتصحيح الأوضاع... أمّا أن يكون الحاكم بليدًا عديم الإحساس بآلام الجماهير... فإنه يكون مصيبة يتعوذ الناس من شرورها!!!

العدل يرفرف على بلاد الشام؟!

وفي الغد ... يوم الجمعة ... قُرِئَ بالشباك الكمالي بجامع دمشق ... تقليد القضاء للقاضي شمس الدين بن خلكان الإربلي ...

ويتضمن أنه فوض إليه الحُكْم في جميع بلاد الشام... من العريش الى سلمية ...

يستنيب فيها من يراه!!!

وفوض إليه النظر في أوقاف الجامع ... والمصالح ... والمارستان ... والمدارس وغيرها ... مما كان تحت يد الحاكم المعزول ...

وفوض إليه تدريس سبع مدارس... كانت تحت يد المعزول أيضًا ...

وفي تاريخ النويري:

ولما سار السلطان الملك الظاهر من مصر الى الشام ...

أمر القاضي شمس الدين بن خلكان... أن يسافر في صحبته من مصر الى الشام ... فسافر ...

ولما دخل السلطان دمشق ... عزل عن قضاء دمشق ... نجم الدين بن صدر الدين بن سنى الدولة... وولى عوضه القاضي شمس الدين بن خلكان!!!

ملوك الفرنج يطلبون المثول بين يديه؟!

ومنها:
أنه جاءت الرسل من جهة جُوَانْ دِلين كُند يافا[1] ...
وغيره من الفرنج الذين بالساحل...
إلى السلطان الملك الظاهر... والسلطان في منزلة ماء العوجاء...
يسألون السلطان الإذن لصاحبهم في حضوره الى الأبواب الشريفة!!!
فأذن لكُند يافا المذكور!!!
فأكرمه السلطان... وأقبل عليه... وأجاب سؤاله... ورسم بتقدير الهدنة له!!!

وصاحب بيروت يُقَبِّل الأرض أمام بيبرس؟!

ورسم بتقرير الهدنة له...
ولصاحب بيروت على حكم القاعدة التي كانت مقررة في الأيام الناصرية...
وكتب له منشورا بما في يده من البلاد...
فقَبَّل الأرض شكرًا... على هذه النعمة!!!
وعاد!!!
وكثرت الأجلاب... وأمنت السبل... وترددت التجار... وسلكت السفار... واندفعت عن أهل السواحل المضار!!!

---

(١) هو ـ جون إبلين John of Ibelin صاحب يافا.

اقول... ما معنى هذا؟!

معناه أن بيبرس أوتي من عبقرية السياسة حظًا عظيمًا!!!

لا مركزية عنده في الحُكْم... كما يفعل مهاويس الديكتاتوريين حين يصرون على الرجوع اليهم في كل صغير وكبير من الأمور...

كلَّا... وإنما هو يعزل قاضي قضاة الشام المجرم... ويُعَيِّن مكانه ابن خلكان القاضي العادل الرحيم... ثم يطلق له حرية التصرف في سائر بلاد الشام... من اعلاها الى ادناها بالعرش... يتصرف كما يشاء!!!

وهذا يدل على عبقرية من بيبرس... إنه ينزع الفاسد... ويُوَلِّي الصالح... ثم يترك للصالح حرية التصرف فيما تحت يده!!!

وبهذا انزاح كابوس... وجاء مكانه رحمة واسعة... رحمة العدل بين الناس!!!

ليس هذا وحده... وإنما هو يدع لكل حاكم إقليمه أو بلده التي يحبّها وتحبه...

حتى الفرنجة الذين كانوا ما زالت بأيديهم بعض بلاد ساحل الشام...

جاءوا يلتمسون منه الصفح وأن يتركهم وبلادهم!!!

جُون... صاحب يافا... يحضر بعد الإذن له... ويكرمه السلطان... ويُقبل عليه ويلاطفه... ويرسم له بتقدير الهدنة السابقة!!!

وصاحب بيروت... يكتب له منشورًا بما في يده من البلاد!!!

ولم يتمالك الرجل... فقَبَّل الأرض بين يدي بيبرس... شكرًا على هذه النعمة!!!

إن بيبرس ليس ديكتاتورًا... وإنما يحكم بالعدل... ومن العدل ان يترك كل أمير حيث هو لأنه أعرف الناس بما يصلح بلده وولايته...

فعل ذلك مع أمراء المسلمين حين جاءوه من فجاج الشام...

وفَعله مع أمراء الفرنج... حين التمسوا المثول بين يديه!!!

فماذا كانت نتيجة ذلك؟!

«وكثرت الأجلاب... وأمنت السبل... وترددت التجار... وسلكت السفار... واندفعت عن أهل السواحل المضار»!!!

وليس كالعدل أساس للرخاء والأمن والاستقرار!!!

الملوك يتوافدون ويعلنون الولاء؟!

ومنها:

أنه وصل إلى السلطان رسول الأشكري[1]... ببذل المودة والمساعدة!!!

ومنها:

أنه حضر الى خدمة السلطان... وهو في الشام...

الملك المنصور...

والملك الأشرف صاحب حمص...

فتلقاهما بالإكرام... وحباهما بالإنعام!!!

وأرسل إليهما شعار السلطنة!!!

فركب كل منهما... وكتب لهما التقاليد بممالكهما!!!

وزاد كل منهما على ما بيده!!!

فزاد المنصور صاحب حماة بلاد الإسماعيلية!!!

والملك الأشرف تل باشر!!!

وأعادهما الى مستقرهما!!!

اقول... هكذا كانت عبقريته السياسية...

---

(١) المقصود الامبراطور البيزنطي وهو الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوجس.

يُعطى كُلًّا مما يُحبّ... لا يستأثر لنفسه بشيء!!!

وإنما يجمع حوله الرجال... ويرضيهم ويَمُنّ عليهم... فيطوّق أعناقهم بالجميل!!!.

وأعيان الدولة الأيوبية يعاملهم بالإنعام الجزيل؟!

وحضر لخدمته الملك الزاهد... أسد الدين شيركوه...

والملك الأمجد... بن العادل صاحب بعلبك...

والمنصور والسعيد... ولدا الملك الصالح عماد الدين اسماعيل ابن الملك العلال الكبير...

والملك الأمجد بن الملك الناصر داود...

والملك الأشرف بن الملك المسعود...

والقاهر بن المعظم...

فعاملهم بالجميل... والإنعام الجزيل!!!

وهؤلاء من أعيان الذرية الأيوبية...

وفدوا إلى خدلته!!!

ومثلوا بحضرته!!!

ووطئوا بساطه!!!

وأكلوا سماطه!!!

فكان هذا من أمارت الإقبال... وسعادة جد دولته الآمنة من الزوال!!!

اقول... عبقرية أخرى من فنون عبقرية بيبرس!!!

ملوك وأمراء الأسرة المالكة السابقة... أسرة بني أيوب...

وما أدراك ما تلك الأسرة!!!

مؤسسها البطل الخالد صلاح الدين الأيوبي...

وتَسَلْسَلَ المُلْك في أبنائه وإخوته وأحفاده... يُظلل الشام ومصر وما حولها نحوا من تسعين عامًا!!!

ثم جاء من بعدهم حُكم المماليك...

عز الدين أيبك... ثم قُطُز...

ثم بيبرس هذا...

وكان المفروض لو أنَّ بيبرس كان من الملوك الأخسَّة أن ينكل بأمراء تلك الأسرة ويتوجس منهم خيفة على عرشه...

ولكن لم يفعل... وإنما أنزلهم منازلهم... وأكرمهم إكرامًا عظيمًا...

ولم ينس أنه كان عبدًا مملوكًا... اشتراه آخر ملوكهم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب... ثم أعتقه...

فعاملهم أجل معاملة... وبالغ في الحفاوة بهم... تعظيمًا لشأنهم... ورحمةً بهم!!!

إنَّ معدن بيبرس معدن كريم!!!

يزداد صفاء كلما صادف واقعة تبرز حقيقته!!!

« وارحموا عزيزَ قومٍ ذلَّ »!!!

مِن أحداث...

السنة الستين...

بعد الستمائة...

المثيرة...؟!

قتل الخليفة المُستَنْصِر بالله ؟!

قد ذكرنا أنه بويع له في رجب من السنة الماضية... وذكرنا أنه ما أقامه إلا السلطان الملك الظاهر بيبرس... وسافر به الى الشام... وجهزه من الشام الى بغداد...

وأنه لما عبر الفرات بمن معه من العسكر ظن أن التتار قد انتزحوا من العراق... وفارقوها على عادتهم أنهم يخربون ويذهبون ولا يقيمون...

ولم يدر أنهم في البلاد... فسار على ما هو عليه... واتصل بالتتار قدومه لأخذ الثأر...

فجردوا إليه عسكرا صحبة هُلاجو وأُزْدان...

فأدركوه وقد بلغ عانًا[1]... فحاربوه حربًا عوانًا...

فصابرهم جهده... وثبت لصدمتهم وكده...

ثم تكاثروا عليه وتبادروا إليه...

فلم يكن له قبل بكثرتهم... ولا طاقة بمنعهم لمنعتهم...

فأخذته السيوف... وأدركته الحتوف...

فمات شهيدًا وتولى حميدًا... وقتل أكثر من كان معه... وتفرق من نجا

---

(١) عانة: بلد مشهور من أعمال الجزيرة... مشرفة على الفرات.

بنفسه... وكان قتله في ثالث المحرم من هذه السنة... أعني سنة ستين وستمائة!!!

وشغرت البلاد من الخليفة العباسي!!!

لم يعلم أحدٌ ماذا يريد؟!

ولما عاد السلطان من الشام الى الديار المصرية في السنة الماضية... جرد الأمير بدر الدين الأيدمري ومعه جماعة...

ولم يُعلم أحدًا جهة مقصده...

لأن الملك الظاهر كان حازمًا في أمره... كأنما لسره مقتديًا بقول القائل:

إذا ضاق صَدْرُ المرء عن سرِّ نَفْسِه   فصَدْرُ الذي يَستودعُ السرَّ أضْيَقُ

فسار الأمير المذكور ومن معه الى الشوبك... وتسلمها يوم الأحد وقت العصر في العشر الأواخر من شهر ذي الحجة!!!

القبض على نائب السلطان بدمشق لظُلْمه؟!

وفي ذي القعدة... قبض الملك الظاهر على نائبه بدمشق... وهو علاء الدين طيبرس الوزيري... وكان قد تولى دمشق بعد مسير الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار عنها...

وسبب القبض عليه أنه بلغ الملك الظاهر عنه أمور كرهها...

فأرسل إليه عسكرًا مع عز الدين الدمياطي... وعلاء الدين الركني

وغيرهما من الأمراء ...

فلما وصلوا إلى دمشق ... خرج طيبرس للقائهم ...

فقبضوا عليه ... وقيدوه ... وأرسلوه الى مصر ...

فحبسه الملك الظاهر ... واستمر في الحبس سنة وشهرًا ... وكانت مدة ولايته بدمشق سنة وشهرًا أيضًا !!!

وكان رديء السيرة في أهل دمشق ...

حتى نزح منها جماعة كثيرة من ظُلمه ...

وقيض الله عليه من جازاه بمثله !!!

اقول ... نتأمل مَليًّا هذا التصرف الحازم من بيبرس ... كان نائب السلطان في دمشق ... مجرمًا ظالمًا ... فماذا يفعل بيبرس ؟!!

فورًا ... أرسل اليه مَن يقبض عليه !!!

وفورًا ... سيق الى القاهرة مقيدًا !!!

وفورًا ... حَبَسَه سنة وشهرًا !!!

هكذا يكون الضرب على أيدي اصحاب المناصب اذا انحرفوا ...

أمَّا أن يتركوا (يُبرطعون) كيف شاؤا في المحافظات ... والشعب يئن ولا مُغيث !!! ... فهذا هو الضياع والظُلْم والفوضى !!!

القضاء على فوضى العربان ؟!

ومنها: أن السلطان جرد الأمير عز الدين ... أمير جاندار ... إلى الصعيد ... ليردع العربان ...

فإنهم كانوا قد طمعوا بتغير الممالك ... ونافقوا وقتلوا عز الدين الحواش والي قوص ...

فحسم مادتهم... وبدّد شملهم!!!

اقول... بيبرس هو بيبرس!!!

حسم سريع... وقضاء تام على أي ظاهرة من ظواهر الفوضى أو الخروج على النظام!!!

الغارة على أنطاكية؟!

ومنها: أن السلطان رسم للعساكر التي بالشام بالغارة على بلد أنطاكية...

فتوجه الأمير شمس الدين سنقر الرومي... بمن كان قد جرد معه لتشييع الخليفة الذي قُتِل...

توجه صاحب حماة وحمص...

فأغاروا عليها... وأخذوا ميناءها... ونهبوا وغنموا...

وعادوا سالمين غانمين إلى مصر... ومعهم أزيد من ثلاثمائة أسير...

فقابلهم السلطان بالإحسان والإنعام!!!

تعيين قضاة من المذاهب الأربعة؟!

ومنها: أن السلطان عزل عن القضاء بمصر والقاهرة القاضي بدر الدين السنجاري...

وأعيد القاضي تاج الدين بن بنت الأعز...

وفي هذه السنة أمر السلطان للقاضي تاج الدين هذا... بأن يستنيب

من المذاهب الثلاثة...

فاستناب صدر الدين سليمان... الحنفي...

والشيخ شرف الدين عمر السبكي... المالكي...

والشيخ شمس الدين محمد بن الشيخ العماد... الحنبلي!!!

وفاة سلطان العلماء العزّ بن عبد السلام؟!

الشيخ الإمام العالم العلامة... عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام... بن أبي القاسم... الحسن... بن محمد... بن المهذب... أبو محمد السلمي... الدمشقيّ... الشافعي...

شيخ المذهب... ومفيد أهله... وصاحب المصنفات الحسان منها:

التفسير... واختصار النهاية... والقواعد الكبرى والصغار... وكتاب الصلاة... والفوائد الموصلية... وغير ذلك...

ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة...

وسمع كثيرًا... واشتغل على الشيخ فخر الدين بن عساكر... وغيره...

وبرع في المذهب... ودرَّس بعدة مدارس بدمشق... وولي خطاباتها...

ثم انتقل عنها الى الديار المصرية... بسبب إنكاره على الصالح إسماعيل تسليمه صفد والشقيف إلى الفرنج وغير ذلك...

ووافقه الشيخ ابو عمرو بن الحاجب المالكي...

فأخرجهما من بلده...

فسار أبو عمرو بن الحاجب إلى الناصر داود صاحب الكرك...

فأكرمه . . .

وسار عز الدين إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر . . .
فأكرمه وولاه قضاء مصر وخطابة الجامع العتيق . . .
ثم انتزعها منه وأقره على تدريس الصالحية . . .
فلما حضره الموت أوصى بها للقاضي تاج الدين بن بنت الأعز . . .
وكانت وفاته في العاشر من جمادي الأولى من هذه السنة . . .
وقد نيف على الثمانين . . . ودفن من الغد بسفح جبل المقطم . . .
وحضر جنازته الملك الظاهر . . . وخلق من الأئمة!!!

أهمّ أحداث . . .

السنة الحادية والستين . . .

بعد الستمائة . . .؟!

خلافة الحاكم بأمر الله ؟!

لما كان يوم الخميس ثاني المحرم من سنة إحدى وستين وستمائة ...

جلس الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ... وأمراؤه ... وأهل الحل والعقد ...

في الإيوان الكبير بقلعة الجبل ...

وجاء الخليفة الحاكم بأمر الله راكبًا حتى نزل عند الإيوان ...

وقد بسط له إلى جانب السلطان ...

وذلك بعد ثبوت نَسَبه ... فقرئ نَسَبه على الناس ...

ثم أقبل عليه الملك الظاهر فبايعه ... وبايعه الناس بعده ... وكان يومًا مشهودًا !!!

الخليفة يُقَلِّد السلطان أمور البلاد والعباد ؟!

ثم أقبل الخليفة على السلطان ... وقلده أمور البلاد والعباد ...

ووكل إليه تدبير الخلْق ...

وجعله قسيم نفسه في القيام بالحق ... وفوض إليه سائر الأمور ...

وغدق[1] به صلاح الجمهور...

ثم أخذ الأمراء والوزراء والقضاة والأجناد والفقهاء والناس على اختلاف طبقاتهم في المبايعة... فتمت هذه البيعة المباركة!!!

وهذا الخليفة هو التاسع والثلاثون من خلفاء بني العباس!!!

خطبة الخليفة يوم الجمعة؟!

ولما كان يوم الجمعة الثانية... خطب الخليفة للناس خطبة بليغة... وصلى بالناس بالقلعة...

الخطبة الأولى التي خطب بها:

الحمد لله الذي أقام لآل العباس رُكنًا ظهيرًا... وجعل لهم من لدنه سلطانًا نصيرًا... أحمده على السراء والضراء... وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء... واستنصر به على دفع الأعداء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ﷺ، وعلى آله وصحبه، نجوم الإهتداء، وأئمة الإقتداء الأربعة الخلفاء، وعلى العباس عمه وكاشف غمه، أبي السادة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين، وعلى بقية أصحابه أجمعين والتابعين بإحسان إلى يوم الدين.

أيها الناس أعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام، والجهاد محتوم على جميع الأنام، ولا يقوم علم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد، ولا سبيت الحرم إلا بانتهاك المحارم، ولا سفكت الدماء إلا بارتكاب المآثم، فلو شاهدتم أعداء الإسلام حين دخلوا دار السلام، واستباحوا الدماء والأموال، وقتلوا الرجال والأبطال والأطفال وسبوا الصبيان والبنات، وأيتموهم من الآباء

---

(١) غدق العيش: اتسع.

والأمهات، وهتكوا حرم الخلافة والحريم، وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم، فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل، وعلت الضجات من هول ذلك اليوم الطويل، فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه، وكم من طفل بكى فلا رحم لبكائه، فشمرّوا عباد الله عن ساق الإجتهاد في إحياء فرض الجهاد، ﴿فاتَّقُوا اللهَ ما استطعتم واسمَعُوا وأَطِيعُوا، وأَنْفِقُوا خيرًا لأنفسكم، ومن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئك هُمُ المفْلِحُون﴾[1].

فلم تبق معذرة في القعود عن أعداء الدين والمحاماة عن المسلمين.

وهذا السلطان الملك الظاهر السيد الأجل العالم العادل المجاهد المؤيد ركن الدنيا والدين قد قام بنصر الإمامة عند قلة الأنصار، وشرد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار، فأصبحت البيعة باهتمامه منتظمة العقود، والدولة العباسية متكاثرة الجنود، فبادروا عباد الله إلى شكر هذه النعمة، وأخلصوا نياتكم تنصروا، وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا، ولا يروعنكم ما جرى، فالحرب سجال ﴿والعاقِبَةُ للمُتَّقِين﴾[2] والدهر يومان، والآخر للمؤمنين

جمع الله على التقوى أمركم، وأعز بالإيمان نصركم، واستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين، فاستغفروه ﴿إنه هُوَ الغفورُ الرحيمُ﴾[3].

الخطبة الثانية:

الحمد لله، حمدًا يقوم بشكر نعمائه، ويشهد بوحدانيته عدة عند لقائه، والصلاة على محمد خاتم أنبيائه، عدد ما خلق في أرضه وسمائه.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، إن أحسن ما وعظ به الإنسان كلام الملك الديان، ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا أَطِيعُوا اللهَ، وأَطِيعُوا الرَّسُولَ، وأُولِي الأمرِ منكم...﴾[4] الخ...

---

(١) سورة التغابن، آية ١٦.

(٢) سورة الأعراف آية ١٢٨.

(٣) سورة الزمر، آية ٥٣.

(٤) سورة النساء، آية ٥٩.

مسير السلطان الى عَكّا والإغارة عليها ؟!

وفيها :

ركب من الطور . . . وسار الى عكا جريدة . . . ومعه من كل عشرة فارس واحد . . .

وكان ركوبه نصف الليل من ليلة السبت رابع جمادي الآخرة . . .

فأصبح بالوادي الذي دون عكا . . .

ثم أحاط بها من ناحية البر . . .

وكان بالقرب منها برجٌ فيه جماعة من الفرنج . . .

فسير إليه طائفة من الجند . . . فحاصروه . . . وخرج من فيه مستأمنين . . . وحرق ما حولها من الأخشاب . . . وقطع ما هنالك من الأشجار . . .

وناوشوا الفرنج القتال . . . فقتل منهم أقوام . . .

وأحضر إليه جندي يسمى حبش من أصحاب أطلس خان . . . فارسا خيالة من الفرنج . . . طعنه ورماه عن فرسه وأسره . . . فأنعم عليه ووعده بعدة . . .

وعاد إلى الدهليز بالطور . . .

فرتب الأمير ناصر الدين القَيْمري نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية . . .

ورحل وتوجه إلى القدس الشريف . . .

وزار . . . ورسم بعمارة المسجد الأقصى . . . ثم خرج طالبًا الكرك!!!

اقول . . . هذا المشهد وحده يُعطي فكرة واضحة عن اسلوب حياة بيبرس . . .

فهو فارس . . . بطل . . . فاتح . . . أحبّ شيء إليه حياة الغزو والقتال . . .

خرج الى الطور... أولًا... وخرج بجيوشه وجموعه...

ثم ركب من الطور... ومعه طائفة من فرسانه... من كل عشرة فارس واحد...

وخرج نصف الليل!!!

منظر رائع بهيج... يحبه الله!!!

الفارس الأول... البطل الأول... بيبرس على رأس الفرسان...

ثم ها هو يتحرك على رأس الكتيبة التي أعدها وانتقاها من الفرسان...

في نصف الليل البهيم... فأصبح بالوادي الذي دون عكا...

هكذا... اذا انشق الفجر... والعدو يغط في نومه...

كان بيبرس على صهوة جواده... يقود فرقة الفرسان... يحيط بعكا من ناحية البرّ...

وناوشوا الفرنج القتال... وقتل منهم أقوامًا!!!

إنه استعراض قوة... وتحطيم لمعنويات الأعداء من الفرنج...

حتى اذا هاجمهم فيما بعد الهجوم الكاسح الماسح... استسلموا خوفًا ورعبًا!!!

شخصية بيبرس في هذا المشهد على الغاية من الجمال!!!

فارس مغوار مقدام... يتقدم فرقة من الفرسان الأبطال...

يناوشون عكًا... تمهيدًا للاستيلاء عليها... ونزعها من الفرنج...

ثم يعود الى الدهليز بالطور...

ثم يرحل الى القدس الشريف...

ثم خرج طالبًا الكرك!!!

مشهد جميل... لبطل مهيب... يتقدم الى الموت قبل ان يتقدم إليه أصحابه!!!

السلطان يتوجه الى الكرك؟!

ولما خرج السلطان من القدس الشريف... سار نحو الكرك... ونزل عليها في الثالث عشر من جمادي الآخرة...

فنزل إليه أولاد الملك المغيث... وقاضي المدينة... وخطيبها... وجماعة من أهلها...

يطلبون العفو... فأحسن إليهم...

وأعطاهم حتى رضوا...

وتسلم القلعة... وطلع اليها...

وأحضر دواوينها... ورتب أمر جيشها...

وأعطى رجالها جامكية ثلاثة أشهر من خزائنه...

وعين لها خاتمًا...

وأعطى أولاد الملك المغيث ما كان فيها من المال والأثاث...

وخلع على العزيز فخر الدين عثمان ولد المغيث... وعلى خادمه وأتابكه...

وكتب مناشير عُربانها...

وأُحْلِفوا له... وأحْلِف مقدمو المدينة... ونصاراها... وجميع أمراء بني مهدي وبني عقبة...

وترك بها مما كان معه من الخزانة سبعين ألف دينار... ومائة وخمسين ألف درهم... والزردخاناة التي صحبته...

ورحل عنها عائدًا الى القاهرة!!!

اقول... هذا هو بيبرس... حركة دائبة... وعقل مدبر... سريع التصرف... سريع التنظيم...

لقد حَوّل القلعة الى حركة دائبة... وتركها وقد رضيت عنه تمام

الرضى... والألسنة تلهج بالثناء عليه!!!

فهو إمّا مقاتل على رأس جيشه...

وإمّا منظِّم لأمور البلاد والعباد!!!

عَوْد السلطان إلى القاهرة؟!

لما قضى السلطان شغله في الكرك...

رحل عنها عائدًا الى القاهرة...

فوصلها في سابع عشر رجب... فكانت مدة سفرته هذه خمسة وتسعين يومًا...

وأحضر أولاد المغيث وحريمه إلى الديار المصرية... وأعطى ولده فخر الدين عثمان إمرة بمائة طواشي بالديار المصرية...

اقول... إن السلطان لا وقت عنده ليلعب ويعبث...

إنه عيون مفتوحة... يرقب ما حوله في حذر!!!

وُصُول رُسُل بُركة خان[1] ملك التتار في الجهة الشمالية؟!

وفي هذه السنة...

وصلت رسُل... بُركة خان... وهم: الأمير جلال الدين بن القاضي... والشيخ نور الدين علي... وغيرهما...

---

(١) هو ابن عم هلاون ـ هولاكو ـ

مُخْبرين بإسلامه... وعلى أيديهم كتاب منه يتضمن ذكر من أسلم من بيوت التتار... وخرج عن زُمرة الكفار...

وتفصيلهم بقبائلهم وعشائرهم... وأنفارهم وعساكرهم... وصغيرهم وكبيرهم!!!

قال: ودخل في دين الإسلام... إخواننا الكبار... واخواتنا الصغار... وذراريهم...

أولاد بوداكور... بجشمهم وأولادهم!!!

بلاد كوكاخور ينشو نوقا... ومن في بلادهم: قُودَغْوَ... وقراجار... وتتش بغا... وشَرَامُون... وبُورْباكُو... ومنكقدار... بجيوشه وسَوادِه!!!

وَبكْ قُداقْ ابينال...

وتُقُوزَا غُولَ...

وقُتْلُغ تَيْمُورْ...

وآجي وذُريته...

ودُرَباي...

والتُومَان الذي تجرد إلى خُراسان...

وكل من توجه صحبة بايْجُو... مثل بَانْيال نُوين... وايكاكُوا...

كل هؤلاء أسلموا بأسرهم!!!

وأقاموا بالفرائض والسنن!!!

والزكاة والغزاة!!!

والجهاد في سبيل الله... وقالوا ﴿الحمدُ للهِ الذي هَدَانَا لهذا وما كُنَّا لنهتديَ لولا أن هَدَانَا اللهُ﴾[1].

وقرأنا ﴿آمَنَ الرسولُ بما أُنْزِلَ إليه من رَبِّهِ والمؤمنون كُلٌّ آمَنَ

---

(١) سورة الأعراف، آية ٤٣.

بالله﴾[1] الآية...

فليعلم السلطان أنني حاربت هلاون الذي من لحمي ودمي... لإعلاء كلمة الله العليا!!!

تعصبًا لدين الإسلام!!!

لأنه باغٍ... والباغي كافر بالله ورسوله...

وقد سيرت قصادي ورُسُلي صحبة رسل السلطان وهم: أربغا... وأرتَيْمُو... وأُونَامَاس...

ووجهت ابن شهاب الدين غازي معهم... لأنه كان حاضرًا في الوقعة...

ليحكي للسلطان ما رآه بعينه من عجائب القتال...

ثم لنوضح لعلم السلطان أنه موفق للخيرات والسعادات... لأنه أقام إماما من آل عباس... في خلافة المسلمين... وهو الحاكم بأمر الله...

فشكرت همته... وحمدت الله تعالى على ذلك...

لا سيا لما بلغني توجُّهه بالعساكر الإسلامية إلى بغداد... واستخلاص تلك النواحي من أيدي الكفار!!!

اقول... امبراطور من أباطرة التتار... يدخل الإسلام!!!

ليس هو وحده... بل ومعه قبائل التتار... وعشائرهم... وبيوتاتهم... وجيوشهم... وأولادهم!!!

دخل عن طواعية لا عن إكراه...

وها هو يبعث الى السلطان بيبرس يبشره بما حدث...

ويعلن إليه أنه حارب هولاكو في سبيل اعزاز دين الله!!!

وهذا شيء عجيب من أمر هذا الإسلام... إنه يجتذب إليه أعدى أعدائه... ويحتويهم ويحوِّلهم من قوى مضادة له... الى قوى مدافعة عنه... تغار عليه أشد من غيرة المسلمين القدامى!!!

---

(1) سورة البقرة، آية ٢٨٥.

السلطان يرسل الى بُركة خان أعظم الهدايا ؟!

فأكرم السلطان رسل بُركة خان... ورسل الأشكري... الواصلين معهم...

وجهز لبُركة من الهدايا من كل شيء مستحسن وهي:

ختمة شريفة... ذكر أنها بخط عثمان بن عفان رضي الله عنه... بمراوقات...

وسجادات للصلاة متنوعة الألوان... الخ...

وخدام سود... وجواري طباخات... وخيل سوابق عربية... وهجن نوبية... ودواب فارهة... ونسانيس... وبغابغ... وغير ذلك...

وألبس رسله الفتوة... وأعادهم في شهر رمضان!!!

الحرب بين الامبراطور بُركة خان والامبراطور هولاكو ؟!

قال الراوي:

أما إسلام بُركة خان... فقد ذكرنا أنه كان في سنة اثنتين وخمسين وستمائة...

وأما الحرب الذي وقع بين بُركة خان وهلاون...

فكان حربًا عظيمًا... انكسر فيها هلاون كسرا شنيعًا... وقُتل أكثر أصحابه... وغرق أكثر من بقي!!!

وهرب هو في شرذمة قليلة من أصحابه!!!

وبعد فراغ بُركة خان من الحرب عاد على بلاد القسطنطينية... وصانعه صاحبها...

وأرسل إلى السلطان الملك الظاهر الرسل المذكورين...

وأرسل السلطان إليه الهدايا المذكورة!!!

اقول... قوة جبّارة قهّارة... أرعبت العالم كله سنين طويلة... ها هي تنقسم على نفسها... بل ويُحطم بعضها بعضاً...

ويعلن الملك التتري المنتصر على هولاكو الذي لا يُقهر... يعلن ذلك الى السلطان بيبرس!!!

توجُّه السلطان إلى الاسكندرية؟!

وفي شوال منها:

سافر السلطان الظاهر الى الاسكندرية... ونظر في أحوالها وأمورها... وعزل قاضيها وخطيبها...

وحَطَّ عن أهل الثغر ما كان مقداراً من الفائدة... وهو ربُع دينار على كل قنطار يباع ويبتاع...

وسدَّ أبواب المظالم!!!

وأنعم على الأمراء الذين معه بالقماش والخلع...

وعاد إلى قلعة الجبل المحروسة في الحادي عشر من ذي القعدة الحرام!!!

الف من التتار؟!

وفيها: في سادس ذي الحجة...

وصلت جماعة كبيرة من التتار... مستأمنين... وفي الإسلام راغبين...

فكانوا زهاء ألف نفس... وفيهم من أعيانهم... وهؤلاء كانوا من أصحاب بُركة... وكان قد أرسلهم الى هلاون نجدة... فأقاموا عنده مدة...

فلما وقع بينه وبين بُركة... وتمكنت العداوة... كتب بُركة إليهم بأن يفارقوا هلاون ويحضروا إليه...

وإن لم يتمكنوا من التوجُّه اليه... فينحازوا إلى عساكر الديار المصرية...

الألف يعلنون إسلامهم؟!

ولما وصلوا أسلموا... وطُهِّروا...

وقُدِّم كبراؤهم وأُمِّروا... وعينت لهم الإقطاعات... والطبلخانات... وأفيضت عليهم الصلات والخلع والهبات وأنزلهم باللوق...

فقال في ذلك القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر:

يا مالك الدُنيا الذي أضحى صلاحًا للأُمم
يا من محا بالعدل ما للظُّلم فينا مِنْ ظُلَم
يا من تُسَاق له التتا ر غنيمة مثل الغنم
خافوا سيوفك أنها ستسوقهم نحو النقم
فأتوا لبابك كلّهم يأوون منه الى حَرَم
أمِنوا مما يخا ف من البلايا والسّقم
جعلوا جنابك جنة وثرى خيولك مُسْتَلم
بَسطوا يمنًا للهدا ية طالما خضبت بدم

أعطيتهـــم مـــا للمُـــؤَ   لَّفـةِ القُلـوب مـن القِسَم
لا زِلْـتَ يـا ملـكَ الزمـا   ن لـك الملـوك مـن الخدم

عمارة المسجد النبوي

ومنها: أن الملك الظاهر جهز صُنّاعًا وأخشابًا وآلات كثيرة لعمارة المسجد النبوي بعد حريقه، فطيف بتلـك الأخشـاب والآلات فـرحـة بها، وتعظيمًـا لشأنها، ثم ساروا بها إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلوات.

اقول... أصبحت مملكة الملك الظاهر ملاذا للناس من كل الأقطار... يأمنـون فيهـا... ويعلنـون إسلامهـم... ويجدون فيهـا الترحيـب والأرزاق والتكريم!!!

أحداث...
السنة الثانية والستين...
بعد الستمائة...؟!

انشاءات متتابعة؟!

منها: أن الظاهر توجه إلى الغربيَّة، ومنها إلى ثغر دمياط، وزار البرزخ، ورسم بعمل فم بحر الدمياط وردمه بالقرابيس وتضييقه، ليمنع سفن العدو الكبار من دخولها، وأمر بحفر أشمون.

ومنها: أنه رسم بعمارة بير اللَّبُونة غربي الإسكندرية، وحفر منافسها، وأنشأ بستانًا فيها، لأنها منزلة من المنازل عند توجهه إلى الحمامات للصيد، فشرع فيها.

ومنها: أنه عمر مسجدًا مجاورًا لمشهد الحسيني، رضي الله عنه.

ومنها: أنه عمر بالقدس الشريف خانًا، ووقف عليه أوقافًا للنازلين به في إصلاح نعالهم وأكلهم وغير ذلك، وبنى به طاحونًا وفُرنًا.

ومنها: أنه ندب عز الدين الأفرم لحفر فم الخليج للإسكندرية، فحفر وبنى هناك مسجدًا.

ومنها: أنه ندب الأمير جمال الدين موسى بن يغمور إلى جزيرة بني نصر للاهتمام بريّها.

ومنها أنه سامح ما كان مقررًا على ولاية مصر من رسوم الولاية.

كيف عالج مشكلة الغلاء؟!

ومنها: أنه لما غلت ديار مصر أمر بالتسعيرة طلبًا للرفق، ورسم بأن يباع من أهرائه خمسمائة أردب كل يوم، بما قسمه الله عز وجل من السعر.

وفي تاريخ بيبرس: وفي هذه السنة غلت أسعار الغلال بالديار المصرية، وبلغ القمح قريب مائة درهم نقرة الإردب، فرسم السلطان بالتسعير طلبًا للرفق بالفقير، والجبر للكسير، واشتد الحال، وقلت الأقوات، وكاد الخبز يعدم من أسواق القاهرة ومصر، فأمر بالنداء في الصعاليك والفقراء أن يجتمعوا تحت القلعة، فاجتمعوا ونزل إلى دار العدل، وأبطل التسعير، ورسم بأن يباع من أهرائه خمسمائة أردب كل يوم، بما يقدره الله تعالى من السعر، ويوزع على الضعفاء والأرامل من ويبتين فما دونها، وأمر بإحضار كل من بالقاهرة ومصر وحواضرها من الفقراء وأفرد منهم ألوفًا يقوتهم من ماله، ووزع منهم لولده الملك السعيد جماعة، وفرق على كل أمير نظير عدّة جنده، وفرق على مفاردة الحلقة بحسب أحوالهم، وعلى المقدمين والبحرية والوزير والأكابر والتجار والشهود والمتعممين، ورسم أن كل من خصه فقير يعطيه مؤنته لثلاثة أشهر.

مطابخ لفطر الصائمين؟!

ومنها: أنه اهتم بتجهيز كسوة الضريح النبوي، على ساكنه أفضل الصلوات، صحبة الطواشي جمال الدين محسن الصالحي في شهر رمضان، وأجرى في هذا الشهر الصدقات على الفقراء بالقاهرة ومصر، ورتب لهم مطابخ لفطر الصائمين.

استعراض القوات المسلحة؟!

ومنها: أنه عزم على طهور ابنه الملك السعيد ناصر الدين بركة، فعرض الجيوش المنصورة لابسي عُدَدِ الحروب، وعبروا عشرة عشرة وهو جالس على الصُفَّة التي بجانب دار العدل تحت القلعة، ثم طهر ولده المذكور، وطهر معه جماعة من أولاد الأمراء الكبار، ولم يقبل السلطان من أحد من الأمراء تقدمة:

ملك تَعود أنه يهب البلادَ مع الممالك
ويجود بالمدن العظام وبالحصون وما هنالك
حاشاه يَسْلك من قبول هدية تلك المَسالِك
أو أنه مع جودة وعطائه يرضى بذلك

إلزام عرب برقة بالزكاة؟!

ومنها: أنه توجَّه إلى ثغر الإسكندريّة متصيِّدًا، ووصل إلى الكش، وهي قريب العقبة الصغرى التي غربي الحمامات، وعند عوده جعل سيف الدين عطاء الله بن عزاز مقدّما على عربَ بَرْقَة، وقرر عليهم الزكاة، وألزمهم باستخراجها منهم وحملها.

ومنها: أنه بلغه أن جماعة من التتار واصلون مستأمنون، فأخذ بالعزم، وعزم على الخروج بالعساكر لأجل تواتر الأخبار بمجيء هلاون مع التتار، وعزم على تقرير السلطنة لابنه ناصر الدين بركة.

ولاية العهد للملك السعيد ناصر الدين بركة

ولما كان يوم الخميس ثالث عشر شوال من هذه السنة، أركب السلطان ولده الملك السعيد بشعار السلطنة ومشى في ركابه حاملًا له الغاشية، وأخذها الأمراء الكبار واحدًا بعد واحد، وعليهم الخلع الفاخرة، والحلل الزاهرة، وزينت المدينة زينة تامة، واستبشر بذلك الخاصة والعامة، وتقرّر أن يكون أتابكه الأمير عز الدين أيدمر الحلي.

وكتب تقليده الشريف، وقُرِئ في السابع عشر من الشهر وهو:

الحمد لله مُنْمِي الغُرُوس، ومبهج النفوس، ومزين سماء المملكة بأحسن الأهلة وأضواء البُدور، وأشرق الشموس الذي شد آزر الإسلام بملوك يتعاقبون مصالح الأنام، ويتناوبون تدبيرهم كتناوب العينين واليدين في مهمات الأجساد ومُلِمَّات الأجسام.

نحمده على نعمه التي أيقظت جَفْن الشكر المتغافي، وأوردت منهل الفضل الصافي، وخوَّلت الآلاء حتى تمسَّكت الآمال منها بالوعد الوفي، وأخذت بالوزن الوافي.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة عبد كثر الله عَدَدَه وعُدده، وأحْمَدَ أمْسَه ويومه، ويُحمدُ إن شاء الله غده، ونصلي على سيد محمد الذي أطلع الله به نجم الهُدَى، وألبس المشركين به أردية الردّى، وأوضح به مناهج الدين، وكانت «طرائق قِدَدًا» صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة دائمة لا تنقضي أبدًا.

وبَعْدُ فإنا لما ألهمنا اللهُ من مصالح الأمم، وخولناه من الحرص على مُهمَّات العباد التي قطع بها شأفة الكُفَر وَحَسْم، وأتى بنا والشرك قد علم كل أحد اشتعال ناره، فكان علما بنارٍ مُضَرَّمَةٍ، لا نارًا على علم، وقدره من دفع الكفر من جميع الجوانب، وقمعهم من كل جهة حتى رميناهم بالحتْف الواصل

والعذاب الواصب، فأصبح الشرك من الإبادة في شرك، والإسلام لا يخاف من فَتْكٍ ولا يخاف من درك، وثغور الإسلام عالية المبتنى نامية المقتنى، جانية ثمار الادخار من هنا ومن هنا، تزاحم بروجها في السماء البروج، ويشاهد الأعداء منها سماء بنيت وزينت ومالها من فروج، وعساكر الملة المحمدية في كل طرف أطراف الممالك تَجُول، وفي كل واد تهيم حين تُشْعِرُ بالنصر ولكنها تفعل ما تقول، قد دوّخت البلاد فقتلت الأعداء تارة بالإلمام وتارة بالأوهام، وسلت سيوفها فراعتهم يقظة بالقراع ونومًا بالأحلام، نرى أنا قد لذّ لنا هذا الأمر التذاذ المستطيب، وحُسن لدينا موقعه فعكفنا عليه عكوف المستجيد ولبيناه تلبية المستجيب، وشغلنا فيه جميع الأوقات والحواش، وتقسمت مباشرتُه ومؤامرته سائر الزمن حتى غدا أكثر ترداذًا الى النفس من الأنفاس، واستنفدنا الساعات في امتطاء الضمّر الشُوس، وإدراع محكم الدلاص التي كأنها ومضات برق أو شعاع شموس، وتجريد المرهفات التي قد حفّتْ لحاظها الأجفان، وجرت فكّا لمياه واضطرمت فكا لنيران، وتفويق السهام التي قد غدت قسيُّها من اتعابنا لهاتئن، واعتقال السمهرية التي تقرع الأعداء سِنَّها ندمًا كلما قرعت هي السِنّ، الى غير ذلك من كلّ غارة شعواء تُسيء للكفار الصباح، وتصدُم كالجبال وتسيرُ كالرياح، ومنازلات كم استكبت من موجود، وكم استنجزت من نصر موعود، وكم مدينة أضحت لها مُدْنِيَةً ولكن أخرها الله إلى أجل مَعْدُود.

وكانت شجرتنا المباركة قد امتدّ منها فرعٌ تفرّسنا فيه الزيادة والنموّ، وتوسمنا منه حسن الجناء المرجُوّ، ورأينا أنه الهلال الذي أخذ في ترقي منازل السعود إلى الإبدار، وإنه سِرُّنا الذي صادف مكان الاختيار له حسن الاختيار، أردنا أن ننصبَه في منصب أحلنا الله فسيح غُرَفه، ونُشرّفه بما خَوّلنا الله من شرفِه، وأن تكون يدنا ويده يقتطفان من ثَمَره، وجيدُنا وجيده متحليان بجوهره، وأنا نكون للسَّلْطنة الشريفة السمع والبصر،

وللمملكة المعظمة في التناوبُ بالاضاءة الشمسُ والقمر، وأن تصول الأمةُ منا ومنه بجدّين، ويبطشون من أمرنا وأمره بيدين، وأن نُربيه على حسن سياسة محمد الأمة إن شاء الله عاقبتها عند الكبر، وتكون الأخلاق الملوكية منتشية معه ومنتشبة به من الصغر، ونجعل سعي الأمّة حيدًا، ونهبُ لهم منه سُلطانًا نصيرًا، وملكًا سعيدًا، ونقوي به عضد الدين، ونُريشُ جناح المملكة، وننجح مطالب الأمّة بإيالتِه، وكيف لا ينجح مطلب يكون فيه بركة.

وخرج أمرنا، لا برح مسعدًا ومسعفًا، ولا عدمت الأمة منه خلفًا منيلًا ونواء مخلفًا، بأن يكتب هذا التقليد لولدنا الملك السعيد ناصر الدين بركة خاقان محمد، جعل الله مطلع سعده بالإشراق محفوفًا، وارى الأمّة من منامه ما يدفع للدهر صرفًا ويحسن بالتدبير تصريفًا بولاية العهد الشريف على قرب البلاد وبعدها، وغورها ونجدها، وعساكرها وجندها، وقلاعها وثغورها، وبرورها وبحورها، وولاياتها وأقطارها، ومدنها وأمصارها، وسهلها وجبلها، ومعطلها ومعتملها، وما تحوي أقطاره الأقلام، وما ينسب للدولة القاهرة من يمن وحجاز ومصر وغرب وسواحل وشآم بعد شام، وما يتداخل ذلك من قِفارٍ ومن بيد في سائر هذه الجهات، وما يتحللها من نيلٍ وملحٍ وعذبٍ فُراتٍ، ومن يسكنها من حقير وجليل، ومن يحتلها من صاحب رُغاءٍ وثُغاءٍ، وصليل وصهيل، وجعلنا يده في ذلك كله المبسوطة، وطاعته المشروطة، ونواميسه المضبوطة، ولا تدبيز ملك كلي إلا بنا أو بولدنا يُعمل، ولا سيف ولا رزق إلا بأمرنا هذا يُسَلُّ وهذا يُسْأل، ولا دَسْتِ سلطةٍ إلا بأحدنا يتوضح منه الإشراق، ولا غض قلم في روض أمر ونهي إلا ولدينا أو لديه وتمتدّ له الأوراق، ولا منبر خطيب إلا باسمينا يميس، ولا وجه درهم ولا دينار إلا بنا يشرق ويكاد تبرُّجًا لا بَهْرجًا يتطلع من خلال الكيس.

فليتقلد الولد ما قُلّدناه من أمور العباد، وليشركنا فيما نباشره من مصالح الثغور والقلاع والبلاد، وسنعاهد الولد من الوصايا بما سينشأُ معه توأمًا،

ويمتزج بلحمه ودمه حتى يكاد يكون ذلك إلهامًا لا تعلمًا، وفي الولد بحمد الله من نقاء الذهن وصحة التصوّر ما يتشكل فيه الوصايا أحسن التشكيل، وتظهر صورة الإبانة في صفائه الصقيل، فلذلك استغنينا عن شرحها مسرودة، وفيه بحمد الله من حسن الخليقة ما يحقق أنها بشرف الإلهام موجودة، والله لا يعدمنا منه إشفاقًا وبرًا، ويجعله أبدًا للأمة سندًا وذُخْرًا.

المدرسة التي بناها السُّلطان الظاهر بالقاهرة؟!

وفي أول هذه السنة، كملت المدرسة الظاهرية التي بين القصرين، ورتب لتدريس الشافعية بها القاضي تقي الدين محمد بن الحسين بن رزين، ولتدريس الحنفية مجد الدين عبد الرحمن بن كمال الدين عمر بن العديم، ولمشيخة الحديث بها الشيخ شرف الدين الدمياطي عبد المؤمن بن خلف الحافظ.

وكان الإجلاس بها في الخامس من صفر من هذه السنة، واجتمع بها أهل العلم والأدباء والفقهاء، ودرس المدرسون، واندفع الشعراء يمتدحون، فأنشد السراج عمر الوراق:

مَليكٌ لـه في العلم حـبٌّ وأهلُـهُ ... فللـه حـبٌّ ليس فيـه مَلامُ
فشَيَّدهـا للعلم مـدرسـةً غـدا ... عـراقٌ إليهـا شَيِّـقٌ وشـآمُ
فـلا تَذْكُرَنْ يـومًا نظـاميـة لها ... فليس يضـاهـي ذا النظـام نظـامُ
ولا تذكرن مَلْكًا وبيبرسُ مـالكًـا ... وكـل مليـك في يـده غُلامَ
ومُذْ بَرزت كالروض في الحسن أنبأت ... بـأنّ يـديـه في النـوال غمام

وأنشد الجمال يوسف بن الخشاب:

قصـد الملـوك حماك والخلفـاءُ ... فـافخـر فـإن محلـك الجوزاءُ
أنـت الذي أمـراؤه بين الورى ... مثـل الملـوك وجنـدهُ أمـراءُ

ملك تزينت الممالك باسمه | وتجملت بمديحه الفصحاءُ
وترفّعت لعُلاه خير مَدَارس | حلّت بها العلماء والفضلاءُ
يبقى كما يبقى الزمانُ وملكه | باق له ولحاسديه فناءُ
كم للفرنج وللتتار ببابه | رُسْلٌ مُنَاها العفو والإعفاء
وطريقه لبلادهم مَوْطوءة | وطريقهم لبلاده عَذْراءُ
دامت له الدنيا ودام مخلّدًا | ما أقبل الإصْبَاح والإمساءُ

وأنشد الأديب أبو الحسن الجزار:

ألا هكذا يَبْني المدارسَ من بَنَى | ومَنْ يتغالى في الثواب وفي الثَنا
لقد ظهرت للظاهر الملك هِمّةٌ | بها اليوم في الدارين قد بلغ المُنَا
تجمَّع فيها كلُّ حُسْن مُفَرَّقٍ | فراقت قلوبًا للأنام وأعْيُنَا
ومُذ جاورَتْ قبر الشهيد فنفسُه | النفيسَةُ منها في سرورٍ وفي هَنا
وما هي إلا جنّةُ الخلْد أُزْلِفتَ | له في غدٍ فاختار تعجيلها هُنا

فشرّف الشعراءُ المذكورون ووُصِلوا.

تلقين الأرمن درسًا قاسيًا؟!

منها: أن هيثوم بن قسطنطين متملك الأرمن وصل من جهة السلطان هلاون إلى حضرة السلطان ركن الدين قليج أرسلان صاحب الروم، واستصحب معه قاضي هلاون، وجماعة من التتار، فالتقاه صاحب الروم مترجلًا، وجاء إلى هرقلة، وتحالفا واتفقا، واهتم الأرمني بجمع عساكره لقصد البلاد الإسلامية، وسار إلى قلعة صرفند كار، ومعه ألف فارس من بني كلاب، وقصدوا عينتاب.

فجهز السلطان عسكري حماة وحمص إلى حلب، وأمرهم بالإغارة على عسكر الأرمن، فأغاروا عليهم، وقتلوا منهم ثلاثين نفرًا، وأسروا أميرًا من أمرائهم، وأخذوا مائة حمل من البخاتي، وجرح بَارُون بُهرَام، وهو صاحب حَمُوص، وقرابة الملك، جراحة شديدة، وانهزموا راجعين.

فرنسا تتملق بيبرس؟!

منها: أنه وصلت جماعة من عسكر شيراز إلى الخدمة، مقدمهم الأمير سيف الدين بكلك، ومعهم سيف الدين اقتبار جدار جلال الدين خوارزم شاه، وغلمان أتابك سعد، وهم: شمس الدين سنقرجاه ورفقته، ووصل معهم حسام الدين حسين بن علاج أمير العراق، ومظهر الدين وشاح بن شهري، وجماعة من أمراء خفاجة، فأحسن إليهم وجهزهم إلى بلادهم.

ومنها: أنه وصل رسول من الأمير شارل أخي الفرنسيس بهدية.

استلام خيبر

ومنها: أنه وصلت إلى السلطان كتب أصحاب خيبر عبيد الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يبذلون الطاعة، ويسألونه إرسال من يتسلم خيبر، فندب أمين الدين موسى بن التركماني، وكتب إلى نائب الكرك، بأن يجرد معه جماعة من البحرية الذين بالكرك، فتوجه اليها وتَسلمها.

ومنها: أنه وصل الأمير جلال الدين شكر ولد الدوادار مجاهد الدين دوادار الخليفة ببغداد، فأعطاه السلطان طبلخاناه ومعها عشرة عقبان، فأطلقها وفرقها.

فقال في ذلك الأمير جمال الدين بن الإمام الحاجب:

جاءتْ ملـوك الطير في يـد آسِـرٍ ... قهـرًا إلى ملـك الأنـام الظـاهـر
أضحـى سليمان الزمـان فملكـه ... يَسمُـو بـه لقيـاصر وأكـاسر
ملـك الزمـان سيـأتينَك مثلُهـم ... في أسْر خـادمـك الزمـان الجائـر

قصة غازية الخناقة؟!

ومنها: أنه وجدت بظاهر القاهرة، خارج باب الشعرية، امرأة تتحيل على الناس، وتدخلهم بيتًا لها هناك، وقد أعدت فيه رجالًا يطابقونها على سوء فعلها، فيخنقون من تأتي به فقتلت خلقًا كثيرًا من رجال ونساء، فأمر بها فسُمرت.

وكان اسم هذه المرأة السيئة غازية الخناقة، وكانت ذات حسن وجمال، وكانت تمشي بالمدينة ومعها عجوز تطمع الناس في نفسها، وكان من طمع فيها وطلبها تقول له العجوز: إنها لا يمكنها التوجه إلى أحد، ولكن تعال أنت إلى بيتها، فيجيء، فيطلع له رجلان، فيقتلانه ويأخذون ما معه، وكانوا ينتقلون من مكان إلى مكان، فاتفق أن العجوز أتت إلى بعض المواشط، وأمرتها أن تأخذ ما تقدر عليه من الحلي والحُلَلَ، وتمضي معها لعروسة عندها، ففعلت الماشطة، واستصحبت معها جارية لها، ولما دخلت الماشطة منزلهم، رجعت الجارية إلى مكانها، فقتلوا الماشطة، وأخذوا ما معها، فاستبطأتها جاريتها، فجاءت إليهم وطلبتها، فأنكروها وادعوا أنها خرجت من يومها، فمضت وأتتهم بصاحب الشرطة، فاحتاط عليهم وعذبهم، فأقروا بما كانوا يفعلون، وأطلعوا في بيتهم على حفرة فيها خلق عظيم مقتولين، وكان بعض الطوابين قد اتفق معهم، وجعلوا يحضرون إليه القتلى مختفيا،

فيحرقهم في أقمنة الطوب، فأمسكوا جميعًا وسُمِّرُوا، وكانوا خمسة أنفس، وأما المرأة فإنها بعد التسمير أطلقت، فأقامت يومين، ثم ماتت، عليها ما تستحق.

★ ★ ★

اقول... هذه أهم أحداث السنة الثانية والستين بعد الستمائة...

والملاحظ أن السلطان في صعود... يزداد يومًا بعد يوم تألقًا!!!

والذي يستوقف الباحث هنا... هو موقف السلطان من مشكلة الغلاء ونقص المواد التموينية...

لجأ أولًا الى التسعير لانقاذ الشعب...

ثم أبطل التسعير... وأمر أن يباع من خزائنه خمسمائة أردب يوميا... بسعر اليوم...

ثم أمر بإحضار فقراء مصر والقاهرة... فحضر منهم ألوف يطعمهم من ماله الخاص!!!

بل وأبرع من ذلك «وفرّق على كل أمير عدّة جنده»!!!

فمن كان أمير ألف فارس... يلتزم بإطعام ألف من الفقراء... وهكذا!!!

وعلى المقدمين والبحرية والوزير والأكابر والتجار والشهود والمتعممين... ورسم أن كل من خصه فقير يعطيه مؤنته لثلاثة أشهر!!!

ما هذا؟!... هذا بيبرس العبقري العادل!!!

هناك غلاء... هناك مجاعة!!!

فلينزل بنفسه الى المشكلة...

وأخرج من خاصته كل يوم خمسمائة أردب تباع بالسعر الرخيص... لتهبط الأسعار في الأسواق نتيجة عرض هذه الكمية يوميًا!!!

ثم أوامر متتابعة الى الأمراء والأغنياء... والزامهم جميعًا ببذل العون الى الفقراء!!!

وعلى رأس الجميع... تجد السلطان يتقدم الصفوف في البذل والتضحية...

أمّا هؤلاء الرؤساء... الذين يدعون الناس الى شدّ الأحزمة على البطون... وهم يرفلون في القصور والنعيم... فهؤلاء ليس أحد أعظم منهم اجرامًا!!!

وكان من أهم أحداث ذلك العام هو مرسوم ولاية العهد لابنه الملك السعيد ناصر الدين بركة!!!

ثم أمره بالإغارة على الأرمن!!!

ثم ارسال الأمير شارل أخي ملك فرنسا هدية الى بيبرس تقربًا وتملقًا!!!

إنَّ السلطان في صعود!!!

البطل بيبرس...
يبدأ تدمير التَّتار...
والصليبيين... في وقت واحد...؟!

همّة خارقة!!!

تذكرنا بهمّة سيف الله المسلول... حين ألقاه أبو بكر على الفرس ثم على الروم ليدمرهم في وقت واحد!!!

ها هو بيبرس... يشن على التتار... فلما هربوا أمامه...

شنَّ الهجوم بنفسه على بلاد الساحل التي بأيدي الصليبيين... في نفس الوقت الذي كان يهاجم فيه التتار!!!.

فكيف كان ذلك؟!!

في السنة الثالثة والستين بعد الستمائة

استهلت هذه السنة، والخليفة: هو الحاكم بأمر الله، وهو مقيم بالقاهرة.

وسلطان الديار المصرية والشامية: الملك الظاهر بيبرس البندقداري، وتوجه الظاهر إلى أعْراس والعباسة للصيد، ثم عاد إلى قلعة الجبل، وكان سبب عوده وصول الأخبار إليه بأن مقدّمًا من مقدّمي التتار يُسَمَّى دُرَباي قد قصد البيرة بتُمان من التتار وشرع في المنازلة والحصار، فأسرعَ العود إلى القلعة، وجرَّد الأمير عز الدين يوغان الملقَّب سم الموت بمقدمة العساكر، ومن جُرِّد

معه من الجند المتوجهين جرائد، فتوجهوا في رابع ربيع الأول من هذه السنة، ثم جرد السلطان.

سَفَر السُّلطان الظاهر إلى الشام؟!

ولما جهز السلطان العسكر المذكورين، وخرجوا في التاريخ المذكور، شرع هو أيضًا في التجهيز، ورحل في سادس ربيع الآخر من هذه السنة.

قال بيبرس: شرع في التجهيز وإحضار الخيول من الربيع، وطرد الجند المتفرقين بالديار المصرية، ورحل في سابع ربيع الآخر، فوصل إلى غزة في العشرين منه، فوردت إليه مطالعة الأمير جمال الدين أقوش النجيبي نائب السلطنة بالشام، معطوفة على بطاقة وصلت إليه من الملك المنصور صاحب حماة، وكان قد توجه صحبة الأمير عز الدين يُوغان والأمراء المجردين إلى البيرة، مضمونها أنهم لما وصلوا إليها، وشاهدهم التتار النازلون عليها، انهزموا، وكان درباي المذكور قد نصب على البيرة سبعة عشر منجنيقًا، فلما ولوا هاربين عدى العسكر الفرات ونهبوا المجانيق، وسائر الآلات، فلما وردت هذه الأخبار بهزيمة التتار، استبشر السلطان، وثنى العنان قاصدًا بلاد الفرنج، فنزل على قيسارية.

فتوح قِيسَارِيَّة الشام؟!

نزل السلطان عليها يوم الخميس تاسع جمادي الأولى، وللوقت نصبت عليها المجانيق وأطافت بها العسكر، وعمِدُوا إلى سكك الخيل فجعلوها

أوتادًا، وتعلقوا فيها من كل جانب وطلعوا إليها، ونصبوا السناجق السلطانية عليها، وحرقت أبوابها، وهتك حجابها، فهرب أهلها إلى قلعتها، فجد العسكر في الحصار، فلما كانت ليلة الخميس منتصف جادي الأولى هربت الفرنج، وأسلموا القلعة بما فيها، فتسلق المسلمون إليها من الأسوار واستولوا عليها، ورسم السلطان بهدم مبانيها، فهدمت وهي أول فتوح السلطان الملك الظاهر رحمه الله!!!

فتح حيفا؟!

ثم توجه السلطان إلى جهة عِثْليث جريدة، وبث عساكره تشنّ الغارات وتقول يا للثَّارات، وجرَّد عسكرًا إلى حَيْفا، فدخلوها، فنجا الفرنج بأنفسهم إلى المراكب، وأخربت المدينة وقلعتها في يوم واحد. ووصل إلى عثليث وعاد عنها، وقد ترك أهلها في حبس منها، فنزل على أُرْسُوف.

فتح أَرْسُوف؟!

وكان نزول السلطان عليها في مستهل جادي الآخرة من هذه السنة، ورامتها العساكر بالسهام والمجانيق، وضيقوا عليها أنواع التضييق، وتمكنوا منها، وأطلعوا السناجق السلطانية عليها، فما أحسّ الفرنج إلا وقد خالطهم المسلمون، وأنشبت فيهم براثنها المنون، قبل أن يسألوا الأمان، ويبذلوا الطاعة والإذعان، فتسلمها السلطان في يوم الخميس، وأسر أهلها وأرسلهم إلى الكرك مصفدين.

قال بيبرس رحمه الله: وحضرت هذه الغزاة مع الجيش وكنت إذ ذاك الوقت في خدمة الأمير سيف الدين المخدوم، وأراد به قلاون لأنه مملوكه، قال: كنت في سنّ المراهق او قريبًا منه، وكنت أجُرُّ الجنيب، ولما ملكها قسم أبراجها على الأمراء ليَهْدمُوهَا، وجعل هدمها دستورهم.

وقال محيي الدين بن عبد الظاهر أبياتًا يصف فيها هذه الفتوح منها:

لا يحسب الناس قيساريَّة ضعُفت ... وأسلمت نفسها من خبقة رهَبا
لكنها بـذُيـول النصر قـد علِقـت ... وقـد أتتـه لعكـا تطلـب الحَسَبَـا
كذاك أرْسُـوفُ لما حـاز غـايتهـا ... ما جاء مختطبًـا بـل جـاء مُختطِبـا
لئـن غـدا آخـذ الدنيـا ومُعطيهـا ... فـإنـه أحسـن التعميم مُحْتسِبـا

البلاد التي ملَّكَها للأمراء لمَّا مَلكَهَا؟!

ولما استولى السلطان على هذه الفتوح، جعلها لأمرائه من إنعامه الممنوح، فقسمها عليهم بتواقيع بأيديهم، وكتب بالتمليك توقيعًا جامعًا نسخته:

أما بعد حمد الله على نصرته المتناسقة العقود، وتمكينه الذي رفلت الملَّةُ الإسلامية منه في أصفى البرود، وفتحه الذي إذا شاهدت العيون مواقع نفعه وعظيم وقعه، علمت لأمر ما يُسوَّدُ من يَسُود، والصلاة على سيدنا محمد الذي جاهد الكفار، وجاهرهم بالسيف البتار، وأعلمهم لمن عقبى الدار، وعلى آله وصحبة صلاةً تتواصل بالعشي والإبكار، فإن خير النعم نعمةٌ وردت بعد اليأس، وأقبلت على فترة من تخاذُل الملوك وتهاوُن الناس، فأكرمْ بها نعمة وصلت للملَّة المحمدية أسبابًا، وفتحت للفتوحات أبوابًا، وهزمت من التتار والفرنج العَدُوّين، ورابطت من الملح الأُجاج والعذب الفُرات بالبرين والبحرين، وجعلت عساكر الإسلام تُذِلُّ الفرنج بغزوهم في عقر الدار،

وتجوس من حصونهم المانعة خلال الديار والامصار، وتقود من فضل عن شبع السيف الساغب إلى حلقات الإسّار، ففرقَةٌ منها تقتلع للفرنج قلاعًا وتهدم حُصُونًا، وفرقة تبني ما هدم التتار بالمشرق وتعليه تحصينًا، وفرقة تتسلم بالحجاز قلاعًا شاهقة، وتتسنم هضابًا سامقة، فهي بحمد الله البانية الهادمة، والقاسية الراحمة، كل ذلك بمن أقامه الله سيفا ففرى، وحملت رياح النُصرة بركابه تسخيرًا، فسار إلى مواطن الظفر وسَرَى، وكونته السعادة ملكًا إذا رأته في دستها قالت: ما هذا بشرًا، وهو السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين أبو الفتح بيبرس، جعل الله سيوفنه مفاتيح البلاد، وأعلامه أعلامًا على رأسها من الأسنة نار لهداية العباد، فإنه آخذ البلاد ومعطيها، وواهبها بما فيها، وإذا عامله الله بلطفه شكر، وإذا قدر عفا وأصلح، فوافقه القدر، وإذا أهدت إليه النصرة فتوحات قسمها في حاضريها لديه متكرمًا وقال: الهدية لمن حضر، وإذا خوَّله الله تخويلًا وفتح على يديه قلاعًا، جعل الهدم للأسوار، والدماء للسيف البتار، والرقاب للإسار، والبلاد المزدرعة للأولياء والأنصار، ولم يجعل لنفسه إلا ما تُسَطرهُ الملائكةُ في الصحائِف لصفاحه من الأجور، وتطوى عليه طويات السير التي غدت بما فتحه الله من الثغور بإسمه، باسمة الثغور:

فتى جعل البلاد من العطايا	فأعطى المدن واحتقر الضياعا
سمعنا بالكرام وقد أرانا	عيانًا ضعف ما فعلوا سماعا
إذا فعل الكرام على قياس	جيلًا كان ما فعل ابتداعا

ولما كان بهذه المثابة، وقد فتح الفتوحات التي أجزل الله بها أجره، وضاعف ثوابه، وله أولياء كالنجوم ضياء، وكالأقدار مضاء، وكالعقود تناسقًا، وكالويل تلاحقًا إلى الطاعة وتسابقًا، رأى أن لا ينفرد عنهم بنعمة ولا يتخصص، ولا يستأثر بمنحة غدت بسيوفهم تستنقذ وبعزائمه تستخلص، وأن يؤثرهم على نفسه، ويقسم عليهم الأشعة من أنوار شمسه،

ويبقي للولد منهم وولد الولد، ما يدومُ إلى آخر الدهر ويبقى على الأبد، ويعيش الأبناء في نعمته كما عاش الآباء، وخير الإحسان ما شمل وأحسنه ما خلد، فخرج الأمر العالي، لا زال يشمل الأعقاب والذراري، وينير إنارة الأنجم الدراري، أن يملك أمراءه وخواصه الذين يذكرون، وفي هذا المكتوب يسطرون، ما يعين من البلاد والضياع[1]، على ما يشرح ويبين من الأوضاع وهو:

الأتابك فارس الدين أقطاي الصالحيّ، عَتّيل بكمالها.
الأمير علاء الدين أيدغدي العزيزي، نصف زَيْتا.
الأمير بدر الدين بَيْسَري الشمسي، نصف طُورْ كَرَم.
الأمير سيف الدين الدُكُز الكركي، رُبع زَيْتا.
الأمير سيف الدين قليج البغدادي، رُبع زَيْتا.
الأمير ركن الدين بيبرس خاص ترك الكبير، أفراسين.
الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار نَامه الشريفة.
الأمير عز الدين أيدمر الحلبي، نصف قلنسوة.
الأمير شمس الدين سنقر الرومي، نصف قلنسوة.
الأمير سيف الدين قلاون الألفي، نصف طيبة الإسم.
الأمير عز الدين يوغان سم الموت، نصف طيبة الإسم.
الأمير جمال الدين أقوش النجيبي، أم الفحم بكمالها.
الأمير علم الدين سنجر الحلبي، تبان بكمالها.
الأمير جمال الدين أقوش المحمدي الصالحي، نصف بورين.
الأمير علاء الدين أيدغدي الحاجب، نصف تيرين.
الأمير فخر الدين الطوينا الحمصي، نصف تيرين.
الأمير بدر الدين بيليك الأيدمري، نصف بورين.

---

(١) هي جميعًا قرى وضياع حول قيسارية وأرسوف.

الأمير فخر الدين عثمان بن الملك المغيث، ثلث حلبة.
الأمير شمس الدين سلار البغدادي، ثلث حلبة.
الأمير صارم الدين صراغان، ثلث حلبة.
الأمير ناصر الدين القيمري، نصف البرج الأحمر.
الأمير سيف الدين بلبان الزيني، نصف البرج الأحمر.
الأمير سيف الدين أيتمش السعدي، نصف تِما.
الأمير سيف الدين آقسنقر السلحدار، نصف تِما.
الملك المجاهد سيف الدين إسحاق، نصف ذنابة.
الملك المظفر «علاء الدين أخوه»، نصف ذنابة.
الأمير بدر الدين محمد بن بركتخان دير العصفور.
الأمير عز الدين أيبك الأفرم نصف شويكة.
الأمير سيف الدين كرمون أغا التتري، نصف شويكة.
الأمير بدر الدين بيليك الوزيري، نصف طرس.
الأمير ركن الدين منكورس الدواداري، نصف طرس.
الأمير سيف الدين فشتمر العجمي، علاّر بكمالها.
الأمير علاء الدين أخو الدوادار، نصف عَرْعَرَا.
الأمير سيف الدين بيجق البغدادي، نصف عَرْعَرَا.
الأمير علم الدين سنجر الأزكشي، نصف قرعور.
الأمير سيف الدين دكاجك البغدادي، نصف قرعور.
الأمير علم الدين سنجر طرج الآمدي، سباها.
الأمير سيف الدين أيتمش بن أطلس خان، سَبَدَا [بكمالها].
الأمير علاء الدين كندغدي الظاهري أمير مجلس، الصير القوما.
الأمير عز الدين أيبك الحموي، نصف أرتاح.
الأمير شمس الدين سنقر الألفي، نصف أرتاح.

الأمير علاء الدين طيبرس الظاهري، نصف باقة الغربية.
الأمير علاء الدين التنكزي، نصف باقة الغربية.
الأمير عز الدين «أيدمر الفخري»، الفصير بكمالها.
الأمير علم الدين سنجر الصيرفي الظاهري، أخصاص بكمالها.
الأمير ركن الدين بيبرس العزي، نصف قفير.
الأمير شجاع الدين طغريل الشبلي، نصف كفرراعي.
الأمير علاء الدين كندغدي الحبيشي، نصف كفرراعي.
الأمير شرف الدين يعقوب بن أبي القاسم، نصف كسفا.
الأمير بهاء الدين يعقوب الشهرزوري، نصف كسفا.
الأمير جمال الدين موسى بن يغمور، نصف ابرويله.
الأمير علم الدين سنجر الحلبي، نصف بروينه.
الأمير علم الدين سنجر أمير جاندار، نصف حانوتا من أرسوف.
الأمير سيف الدين بينعان الركني افراد، نسيفا.
الأمير عز الدين أيدمر الظاهري نائب الكرك، ثلث حَبْلة من أرسوف.
الأمير شمس الدين سنقرجاه الظاهري، ثلث حَبْلة.
الأمير جمال الدين أقوش، ثلث حَبْلة.
الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح، ثلث جلجولية.
الأمير «سيف الدين بجكا الرومي»: ثلث جلجولية.
الأمير علاء الدين كشتغدي الشمسي، ثلث جلجولية.

ولما فرغ السلطان من ذلك عاد إلى الديار المصرية مظفرًا منصورًا، فدخل المدينة يوم الخميس حادي عشر شعبان من هذه السنة.

★ ★ ★

اقول... لقد بدأ الأسد الضاري هـجماته... ليثأر من التتار... فلما ولّوا الأدبار...

أقبل على البلاد الباقية بأيدي الفرنج بالساحل... يستخلصها من أيديهم ثغرًا ثغرًا... وبلدًا بلدًا...

فكانت أول فتوحاته قيسارية وما حولها...

ثم حيفا وما حولها...

ثم أرْسوف وما حولها!!!

إلا أنَّ أروع أخلاقه... أنَّ ما فتحه من بلاد الفرنجة... وزعها كلها على أمرائه... ولم يستبق لنفسه شيئًا!!!

وهذا دليل جديد على عبقرية بيبرس!!!

إنه جواد كريم... واسع الإنعام على مَن حوله...

وهذا أمضى سلاح يجمع القلوب على الحاكم... ويثبت عرشه تثبيتًا!!!

بيبرس . . .

وعبقرية . . .

الحُكْم والسياسة . . . ؟!

قطع أيدي الولاة والمسئولين؟!

ومنها:

أنه قطع أيدي جماعة من نواب الولاة... والمقدمين... والحقراء... وأصحاب الرباع... بالقاهرة...

وسببه أنه نزل القاهرة بالليل متنكرًا... ليرى أحوال الناس...

فرأى بعض المقدمين... وقد أمسك امرأة وعراها سراويلها بيده... ولم يجسر أحد أن ينكر عليه!!!

اقول... هاهنا وقفة طويلة للتاريخ!!!

إن السلطان الفاتح المنتصر... لا تشغله انتصاراته الحربية وفتوحاته العسكرية... عن الجبهة الداخلية!!!

إنه يتنكر ليلًا... وينزل بنفسه ليشهد أحوال الجماهير...

فرأى مسئولًا يمسك امرأة... وعراها سراويلها بيده!!!

فثارت ثورة بيبرس... وهاج هياج الأسد الضاري...

وعلى الفور أمر بقطع أيدي مجموعة من نواب الولاة والمقدمين والحقراء!!!

وهذه هي عبقرية الحكم... وليس الحكم أن يجلس الحاكم ميْتًا على كرسيه لا يشعر بآلام الناس... ولا يبطش بمجرم ولا ينكل بوَغْد أثيم!!!

وانظُر حين يفعل بيبرس ما فعل من قطع أيدي المستهترين... هل يجرؤ كلب أن يعتدي على أحَد؟!!

السلطان يُوَلِّي قضاة من بقية المذاهب؟!

ومنها: أن السلطان ولى من بقية المذاهب قضاة بالديار المصرية... مستقلين... يولون من جهتهم في البلدان أيضًا... كما يولي الشافعي...

فكان قاضي الشافعية تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز...

وقاضي الحنفية شمس الدين بن سليمان...

وقاضي المالكية شرف الدين السبكي...

وقاضي الحنابلة شمس الدين محمد بن ابراهيم المقدسي...

وكان ذلك يوم الاثنين الثاني والعشرين من ذي الحجة بدار العدل...

وكان سبب ذلك كثرة توقف القاضي تاج الدين...

فأشار الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي على السلطان الملك الظاهر...

بأن يولي من كل مذهب قاضي قضاةٍ استقلالًا...

وكان السلطان يحب رأيه ومشورته...

فأجاب إلى ذلك...

وكذلك فعل بدمشق في السنة الآتية!!

مقتل خمسة وأربعين ألف مقاتل في المغرب؟!

ومنها: أنه ورد خبر من بلاد المغرب بأنهم انتصروا على الفرنج...

وقتلوا منهم خمسة وأربعين ألف مقاتل!!!

وأسروا عشرة آلاف!!!

واسترجعوا اثنتين وثلاثين بلدة... منها سرين وأشبيلية وقرطبة ومرسية...

وكانت النصرة يوم الجمعة الرابع عشر من رمضان... سنة ثنتين وستين وستمائة...

هَرَم من رءوس القتلى؟!

وقال أبو شامة:

ورد الى دمشق كتاب يتضمن أنه ورد إلى القاهرة في جمادي الآخرة من هذه السنة... كتاب من المغرب... يتضمن نصر المسلمين على النصارى في بر الأندلس...

ومقدّم المسلمين سلطانهم... أبو عبدالله بن أحمر... رحمه الله...

وكان الفُنس[1] ملك النصارى قد طلب منه الساحل من طريف إلى الجزيرة ومالقه إلى المرية...

فاجتمع المسلمون ولقوهم... فكسروهم مرارًا...

وأخذ أخو الفُنس أسيرًا!!!

---

(١) هو إلفونسو العاشر ملك قشتالة وليون...

ثم اجتمع العدو في جمع كثير على غرناطـة...
فقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة...
فجمع من رءوسهم نحو خمسة وأربعين ألف رأس...
فعملوها كومًا!!!
وطلع المسلمون عليها وأذَّنوا!!!
وراح الفُنس إلى أشبيلية منهزمًا!!!

* * *

اقول... قد رأينا بيبرس حازمًا قاطعًا كالسيف... اذا رأى انحرافًا عالجه على الفور...

رأى في تجسسه ليلًا متنكرًا هذا العربيد يحاول أن ينزع سراويل امرأة بالقوة... فتعقب السلطان الأمر على الفور... وأمر بقطع أيدي كل من كان على صلة بالحادث من قريب أو بعيد!!!

ورأيناه ييسر للناس قضاياهم...

فلا احتكار للقضاء بأيدي الشافعية وحدهم...

وإنما هناك قضاة لكل مذهب... تخفيفًا عن الناس وتيسيرًا!!!

فهو يتطور دائمًا نحو الأحسن...

لا جمود ولا تسيّب... وانما تطور وتيسير!!!

وفاة طاغية الزمان...

هولاكو...

حفيد جنكيزخان...؟!

هَلاَوُن؟!

الكلام فيه على أنواع:

الأوّل في نسبه ومبدأ أمره: هو هَلاَون قان بن طلوخان بن جنكزخان ملك التتار، وهو بفتح الهاء واللام وضم الواو وفي آخره نون مثل قلاوُن، وقد يقال بضم الهاء، ويقال له أيضًا: هُلاكُو بالكاف بعد اللام بغير نون في آخره، ويقال له أيضًا: هلاَلُو باللام موضع الكاف.

وكان باطوخان والد هلاون استولى على بلاد العجم، بعضها في حياة والده جنكزخان، ولما مات جنكزخان استولى باطوخان على الجميع، وأفسد وقتل في البلاد، ثم لما هلك استولى ولده هلاون على البلاد، ولكن كان تحت حكم أخيه منكوقان، وكان منكوقان هو المالك للبلاد كلها، ولما هلك منكوقان في سنة ثمانية وخمسين وستمائة استبدَّ هلاون بالمملكة، ولم يبق له معارض، فأفسد في بلاد الإسلام ما لا يمكن وصفه، فطغى وتجبر إلى أن أهلكه الله تعالى على ما نُبيِّنُهُ عن قريب.

الثاني في سيرته: كان ملكًا جبارًا عنيدًا، سفاكًا للدّماء، لا يتدين بدين من الأديان، وكانت زوجته طغرخاتون قد تنصرت، وكانت تعضد النصارى، وكان هلاون يترامى على محبة المعقولات، ولا يتصور منها شيئًا، وكان أهل المعقولات من أفراح الفلاسفة عنده، لهم وجاهة ومكانة، وكان

نصير الدين الطوسي العالم في العقليات ـ صاحب التصانيف منها: التجريد في الكلام ـ عنده، خصيصًا به، يشاوره في مصائبه، وكان الطوسي شيعيًا خبيثًا، وكان معه حين أخرب هلاون بغداد وقتل الخليفة، وكان هو أحد الأسباب لذلك، عليه ما يستحق، وكانت همة هلاون في تدبير المملكة وملك البلاد شيئًا فشيئًا حتى أباده الله تعالى في هذه السنة.

الثالث في هلاكه:

مات في تاسع ربيع الآخر من هذه السنة، بالقرب من كورة مراغة بمرض الصَّرْع.

وقال ابن كثير: مات بمدينة مراغة. قيل: حملوه إلى قلعة تَلاَ ودفنوه بها، وبنوا عليه قبة، وكان عزمه أن يجمع عساكره من البلاد ويقصد بلاد الشام ومصر، ولكن الله أهلكه وأراح البلاد والعباد منه، ولما بلغ السلطان الملك الظاهر بيبرس خبر هلاكه فرح فرحًا عظيمًا، وعزم على جمع العساكر ليأخذ بلاد العراق، فلم يتمكن من ذلك لتفرق العساكر.

الرابع: في مدّة مملكته وبيان عددها وأولاده:

أما مدّة مملكته فكانت نحو عشر سنين.

وأما بيان عدد مملكته: فإنها البلاد التي كانت بيد والده حال وفاته وهي:

إقليم خراسان وكرسيها نيسابور، ومن مدنها المشهورة: طوس وهراة وترمذ وبلخ.

وعراق العجم: وكرسيه أصبهان، ومن مدنه قزوين وقم وقاشان وسهرورد وسجستان وطبرستان وكيلان وبلاد الإسماعيلية.

وعراق العرب: وكرسيه بغداد، ومن مدنه واسط والكوفة والبصرة والدينور وغيرها.

وأذربيجان: وكرسيها تبريز، ومن مدنها خوى وسلماس ونقجوان.

وخوزستان: وكرسيها ششتر، ومن مدنها الأهواز وغيرها.

وبلاد فارس: ومدينتها شيراز، ومن أعمالها كتشن وكرمان وكازرون والبحرين.

وديار بكر: وكرسيها الموصل، ومن مدنها ميافارقين ونصيبين وسنجار واسعرد ورأس العين ودنيسر وحران والرها وجزيرة بني عمر.

وبلاد الروم: وكرسيها، قونية، ومدنها كثيرة.

وأما أولاده فخمسة عشر ذكرا وهم[1]:

جاغار: وهو أكبرهم سنًا، وأبغا: بالغين. ويقال بالقاف، ويصمت، وتبشين، وتكشي، وتكدار وهو الذي يقال له أحمد، وآجاي، وألاجو، وسبوجي، ويشودار، ومنكوتمر، وقنغرطاي، وطرغاي، وطغاي، وتمر وهو أصغرهم.

ولما هلك هلاون جلس موضعه أبغا بن هلاون.

ذكر جلوس أَبْغَا في كرسي المملكة:

ولما استقر في المملكة بعد وفاة والده هلاون، جهز جيشًا لحرب عساكر بركة خان ملك بلاد الدشت والجهة الشمالية، وبركة هو ابن صاين خان بن دوشي خان بن جنكزخان، وهو ابن عم هلاون، ولما بلغ بركة ذلك جهز جيشًا وقدم عليه بيشو نوغا بن ططر بن مغل بن دوشي خان بن جنكزخان، فسار في المقدمة، ثم أردفه بركة بمقدّم آخر اسمه يَسُنْتاي في خمسين ألف

(١) «وكان لهولاكو خان أربعة عشر ولدًا وسبع بنات».

فارس، فسبق بِيشو نوغا فيمن معه، وتقدم إلى عسكر أبغا وردفه يسنتاي على الأثر، فاستشرفت عساكر أبغا على يسنتاي وهو مقبل في سواده العظيم، كقطع الليل البهيم، فتكردسوا وتجمعوا للهزيمة فبصر بهم يسنتاي، وقد تخلفوا فظنهم أحاطوا بينوغا ومن معه، فلم يلبث أن انهزم راجعًا وفر مسارعًا، وأما نوغا فإنه تبع عسكر أبغا وساق عليهم، وتواقع معهم، فكسرهم وقتل منهم جماعة وظفر بهم، وعاد إلى بركة فعظم أمره وارتفع قدره، وقدمه بركة على عدّة تماناوت، وصار معدودًا في الخانات، وأما يسنتاي فعظم ذنبه عند بركة.

★ ★ ★

اقول... وهَلَك الطاغية الأكبر... والهمجي الذي لا يعرف رحمة ولا شفقة!!!

مات كما يموت الجبارون... ميتة الكلاب!!!

فيتحولون إلى جيَف منتنة... تعافها الكلاب!!!

مات مَن كان اسمه يثير الرعب والهلع في الكبار والصغار!!!

مات فكان موته هدية من القَدَر الضاحك ملء فمه... الى الملك الظاهر بيبرس!!!

كأن المقادير تتولى افساح المجال لبيبرس شرقًا وغربًا...

لينتفض عملاقًا وحده...

أما أعدى أعدائه بالشرق... هولاكو... فقد مات!!!

وأمّا بقايا أعدائه بالغرب بلاد الصليبيين بساحل الشام... فها هي تتهاوى تحت قدميه!!!

قالوا:

«ولما بلغ السلطان الملك الظاهر بيبرس خبر هلاكه فرحًا

عظيمًا »!!!

وقالوا:

« وكان عزمه - اي هولاكو - أن يجمع عساكره من البلاد ويقصد بلاد الشام ومصر ... ولكن الله أهلكه وأراح البلاد والعباد منه»!!!

البطل...

السلطان الملك الظاهر...

يواصل الفتوحات...؟!

في السنة الرابعة والستين بعد الستمائة...

استهلت هذه السنة والخليفة... هو الحاكم بأمر الله... ولكنه غير مرجوع إليه... ولا اليه الأمر والنهي... وإنما هو باسم الخليفة!!!

وسلطان البلاد المصرية والشامية والحلبية: الملك الظاهر بيبرس...

وقضاة مصر أربعة من أربع مذاهب مستقلين...

ونائبه في دمشق: الأمير جمال الدين النجيبي...

وقاضي القضاة الشافعية بها شمس الدين بن خلكان...

وقاضي القضاة الحنفية شمس الدين عبدالله...

وقاضي القضاة المالكية زين الدين بن عبد السلام...

وقاضي القضاة الحنابلة شمس الدين... بن قدامة....

وكان هذا الصنيع لم يسبق الى مثله... وتجدد هذا في دمشق في هذه السنة... وأما في ديار مصر ففي السنة الماضية!!!

سفر السلطان الى جهة الشام؟!

وفي هذه السنة قصد السلطان... فتح صفد... من أيدي الفرنج الكفار... وما حولها من البلاد... فتوجه إلى الشام... واستناب بالقلعة الأمير عز الدين أيدمر الحلبي... في خدمة ولده الملك السعيد... وكان خروجه من القاهرة مستهل شعبان... ولما وصل إلى غزة جرد الأمير سيف الدين قلاون الألفي... والأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي... لمنازلة الحصون التي حول طرابلس!!!

★ ★ ★

فَتْحُ القُليعات وحَلْبَاء وعَرْقًا في شعبان من هذه السنة؟!

قال بيبرس: ولما أشرفنا على القليعات، سأل أهلها الأمان، فآمنهم قلاون، وتسلم الحصن، وحمل الأسرى المأخوذين منه على جمال أرسلها السلطان إليه، وحمل بهم على جسر يعقوب بحيث يراهم أهل صفد، فانقطعت قلوبهم خوفًا وفرقًا؛ وشاهدوا أصحابهم على تلك الحال، والعساكر تسوقهم مصفدين على الجمال، فأيقنوا بالتلف، هذا والسلطان قد نازلهم، فانضم هذا العسكر إليه، واجتمعوا لديه.

فتح صفد؟!

في تاسع عشر رمضان منها، أعني من سنة أربع وستين وستمائة، نـزل السلطان الملك الظاهر على صفد في الثامن من شهر شعبان، وقد جمع لحصارها العساكر المصرية والشامية، وأحضر إليها المجانيق، فحملتها الرجالة على أعناقهم وحاصرها حصارًا شديدًا، وأخذت النفوس، واستمر القتال، فسلموا الباشورة في خامس عشر الشهر، واشتد على الفرنج الحصار، وامتد للمسلمين الإستظهار، فأرسلوا في طلب الأمان، فأجيبوا إليه في تاسع عشر الشهر، وفتحت أبوابها، وطلعت عليها السناجق، وتسلمها السلطان، وأخرج أهلها، وأمر بأن يجمعوا على تل هناك كانوا يجتمعون فيه لقطع الطريق على المسلمين، وأن تسفك دماؤهم حيث كانوا يسفكون الدماء الحرام، فأذيقوا هنالك طعم الحمام.

ونقل السلطان إليها ما يحتاج إليه من الآلات والزردخانات، وأحضر جماعة من الرجالة الدمشقيين، فرتبهم بها، وقرر لهم الجامكيات والجرايات، ورتب للقلعة كفايتها من النفقات، وعمر فيها جامعًا في ربضها للصلوات، ورحل عنها متوجهًا إلى دمشق ودخلها في الخامس من ذي القعدة وأقام بها.

غزو سيس

ولما استقر ركاب السلطان في دمشق جرد العساكر للإغارة على سيس، صحبة الملك المنصور صاحب حماة، وقدم على العسكر الأمير سيف الدين قلاون، والأمير عز الدين يوغان الركني سمّ الموت، فساروا ودخلوا

دربساك[1]، ومنه إلى الدربند[2]، وكان الملك هيثوم بن قسطنطين بن باساك قد ملك ولده ليفون وانقطع مترهبًا، وبنى ليفون أبراجًا لينتفع بها، فكانت كقول الشاعر:

وإن يَبْن حيطانًا عليه فإنما أولئك عقالاته لا مَعاقِله

ولما خرجت العساكر من الدربند، وجدوا الأرمن على سطح الجبل، قد صفوا الصفوف، واستعدوا للوقوف؛ بل للحتوف، فالتقوا معهم، وصدموهم صدمة كانت الكسرة فيها عليهم، وأخذوا ليفون أسيروا وولده معهم، وقتلوا عمه وأخاه، وانهزم عمه الآخر المسمى كنداسطيل، وصاحب حموص[3]، وتمزقت منهم جماعة، وقتلت أكابرهم، وأغارت العساكر على كرنجيل وسرفندكار، وتل حمدون، ونهرجان، ونزلوا من هنالك إلى مكان قريب من قلعة تسمى العمودين[4]، فأصابوا جماعة كثيرة من التتار وغيرهم، وقتلوا ما شاء الله منهم، وسبوا سباياهم، وأخربوا القلعة وأحرقوها، ودخلوا إلى سيس فأخربوها، وتركوها خاوية على عروشها، وهدموا قلعة الديوية المعروفة بالساب، وغنمت العساكر في هذه الغزاة ما لا يحصى كثرة، وبيع الرأس البقر بدرهمين لكثرة المواشي التي أصابوها، وأرسلوا إلى السلطان يخبرونه بالنصرة، ويبشرونه بأن له الظفر ولأعدائه الكسرة.

وكان الذي بعث به الأمير عز الدين سمّ الموت جنديًا من أجناده اسمه كرجي، فسبق إلى الدهليز، وبشر السلطان وعرفه صورة الغزاة وكيفية الغارات، فرأى فيه شهامة، ولمح منه نقمة وصرامة، فسأله عن شأنه فأخبره

---

(١) دربساك=ديربساك: حصن شمال غرب أنطاكية.

(٢) الدربند: لفظ فارسي بمعنى المضايق والطرقات، والمعابر الضيقة، والمقصود هنا الطرق المؤدية إلى سيس.

(٣) حموص=حمص: قلعة حصينة بالقرب من قصر جيحان.

(٤) قلعة العمودين: قلعة حصينة للداوية بأرمينية الصغرى.

أنه من أجناد الأمير المشار إليه، فأنعم عليه وأمره بطبلخاناة، ولم يزل مستمرًا على الإمرة إلى حين وفاته في الدولة الأشرفية.

رحيل السُّلطان من دمشق؟!

ولما سمع السلطان من الجندي المذكور بشارة الفتح رحل من دمشق نحو حماة، ومنها إلى أفامية لملتقى العسكر، وعاد ودخل دمشق، وملوك الأرمن قدامه راكبين، وأسراهم مساقين أمامه، والعساكر الشامية والمصرية قد طلبت وتجملت.

وقال أبو شامة: وكان دخول السلطان دمشق في الخامس والعشرين من ذي الحجة، فدخلها وبين يديه ابن صاحب سيس، وسائر الملوك الذين أسرهم لما أخذ بلادهم على نهر جيحان، وكان يومًا مشهودًا.

قال أبو شامة: وفي بكرة يوم الاثنين السادس والعشرين من ذي القعدة قرئ بجامع دمشق كتاب ورد من بلاد الأرمن السيس وما يجاورها، يتضمن أن المسلمين من عسكر صاحب الشام ومصر الملك الظاهر بيبرس الذين سيرهم إليها في هذه السنة دخلوها عنوة، واستولوا عليها قتلًا ونهبًا، وأُسِرَ ملكها، وقتل أخوه وجماعة من ملوك الأرمن، وكان ذلك يوم الثلاثاء العشرين من ذي القعدة سنة أربع وستين وستمائة، وكان هذا الملعون قد فتك في المسلمين، وظاهر عليهم العدو من التتار، وعمل في حلب لما فتحها التتار أمورًا منكرة، واستولى على أكثر نسائها وأطفالها أسرًا، وتقدم إلى بلاد الإفرنج والروم برًا وبحرًا تحت الذل والصغار، فأمكن الله منه ومن بلاده وأخذ بثأر الاسلام.

إيقاع السُلطان بأهل قارًا ؟!

لما خرج السلطان من دمشق للقاء العسكر المجرد إلى سيس نزل على قارا[1]، فشكى إليه أهل الضياع التي حولها أن أهلها يعدون عليهم، ويتخطفونهم، ويبيعون من وقع لهم إلى الفرنج بحصن عكار؛ فأمر العسكر بنهبهم، فنهبوا، وقتل كبارهم، وسبي نساؤهم وصغارهم.

قال أبو شامة: وفي رابع ذي الحجة من سنة أربع وستين وستمائة، أوقع السلطان الظاهر بأهل قارا النصارى، فقتل وسبي وغنم، وكانوا كما شاع عنهم يأخذون من قدروا عليه من المسلمين، ويصبحون بهم إلى بلاد الفرنج، وكان بعض الأسارى الذين خلصوا من قلعة صفد أخبروا أن سبب وقوعهم في الأسر أهل قارا، ففعل السلطان بهم ذلك.

توجُّه السلطان إلى مصر ؟!

ولما فرغ شغله في دمشق خرج منها، وفارق العسكر على الدرب، وتوجه جريدة إلى الكرك، وعاد منها إلى الديار المصرية، فتقنطر عن فرسه قريبًا من زيزا فأقام هناك أيامًا، وركب محفة في الطريق بسبب ألم تألم في وركه، ولما وصل إلى مسجد التبر، الذي تقوله العامة مسجد تبن، لم يرد أن يدخل إلى القاهرة على تلك الحال، فأقام ليالي إلى أن صح وركه، وزال وعكه، وطلع القلعة ممتطيًا صهوة جواده، مكمدًا قلوب حُسّاده، ففك عن ليفون ابن صاحب سيس قيده وأحسن إليه، وأخذه صحبته وتوجه لرمي البندق ببركة

(١) قارا: قرية على الطريق من دمشق إلى حمص.

الجب، وكتب له موادعة على بلاده.

وقال ابن كثير رحمه الله: وطلب صاحب سيس أن يفادي ولده من السلطان فقال: لا نفاديه إلا بأسير لنا عند التتار يقال له: سنقر الأشقر، فذهب صاحب سيس إلى ملك التتار، فتذلل له وتخضع حتى أطلق له سنقر الأشقر، فأطلق السلطان ابن صاحب سيس.

ومنها: أنه قدم ولد الخليفة المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بن العباسي واسمه عليٌّ إلى دمشق، وأنزل بالدار الأسدية تجاه المدرسة العزيزية، وقد كان أسيرًا في أيدي التتار، فلما كسر بركة خان لهلاون تخلص منهم وصار إلى ههنا.

اعظم انجاز للسلطان؟!

ومنها: أن السلطان أمر بإراقة الخمور وإبطال المنكرات، وتعفية آثار المسكرات، ومنع الحانات والخواطي بجميع أقطار مملكته بمصر والشام!!!

يحضر زواج الأمير قلاون؟!

ومنها: أنه عُقِد عَقْد الأمير سيف الدين قلاون الألفي على ابنة سيف الدين كرمون التتري الوافد، وهي والدة الملك الصالح علاء الدين علي، وكان يومًا مشهودًا، وحضر السلطان، وجلس على الخوان، وكان ذلك في الدهليز بسوق الخيل[1].

(١) سوق الخيل: تحت قلعة الجبل بالقاهرة.

قال بيبرس: وقدم السلطان للأمير قلاون تقدمة من خيل، وتعابي قماش وأربعة من المماليك السلطانية، فقبل التقدمة، واستعفى من قبول المماليك، وقال هؤلاء خوشداشيتي في خدمة السلطان، وشكر ما أولاه من الإحسان، وقدم كل أمير من الأمراء ثلاثة رءوس خيلًا وثلاث بقج قماشًا.

حوادث متفرقة؟!

ومنها: أنه وصلت رسل الأنبرور، والفرنش[1]، وملوك الفرنج، واليمن، بالهدايا إلى صاحب الإسماعيلية، فأمر السلطان بأن تؤخذ الحقوق الديوانية من هذه المراكب إفسادًا لنواميس الاسماعيلية، وتعجيزًا لمن اكتفى شرهم بالهدية.

ومنها: أنه جمع، البُرُنْس بيمَنْد بن بيمند صاحب طرابلس جماعة من الديوية والاسبّتار، وقصد مخاضبة بلاله، طالبًا جهة حمص، وكان النائب بها الأمير علم الدين سنجر الباشقردي، فبلغه الخبر، فسبق الفُونَسن إلى المخاضة فلما داناها عدت العساكر، فجرَّ ذيول الهزائم، وكان يأمل أملًا، فخاف، وقنع من الغنيمة بالإياب.

ومنها: أن السلطان رسم بعمارة مراكب بدمشق وحملها إلى البيرة، فعمرت وحملت إليها.

ومنها: أنه رسم ببناء جسر على الشريعة[2]، وكان ماؤها قوي التيار، فاقتضت سعادته أن جاء سيل كثير فحدر صخورًا كبارًا فصارت كالسكر[3]، فوقفت جرية الماء وبني الجسر.

---

(١) هكذا بالأصل، والسلوك، ولعل المقصود البرنس صاحب طرابلس.

(٢) الشريعة: نهر الشريعة.

(٣) سكر النهر: أي جعل له سدًا.

ومنها: أنه بلغه أن خليج الاسكندرية قد ارتدم فتوجه بنفسه لحفره.

ومنها: أنه رسم لمتولي قوص وهو علاء الدين الخزندار بأن يتوجه إلى سواكن[1]، ويساعد تجار الكارم على المجيء، ويروع علم الدين اسنبغاني صاحبها عن التعرض إليهم، فتوجه وصحبته عدة مراكب، وجهز إليه من القصير خمسة «... ...»[2] فيهم الرجال المقاتلة، فدخلها وفعل ما رسم له وعاد.

مؤسسة لأهل العاهات؟!

ومنها: أنه أمر بجمع أهل العاهات فجمعوا بخان السبيل، وأمر بنقلهم إلى الفيوم، وأفرد لهم بلدًا ليكونوا فيه، ويجري عليهم ما يحتاجون إليه، فلم يستقروا وتفرقوا، وعاد أكثرهم إلى القاهرة ومصر.

اقول... هذا حصاد عام ٦٦٤ هجرية في حياة الملك الظاهر بيبرس... اسلوب حياته هو هو!!!

فارس على صهوة جواده... ينتقل في ربوع مملكته غازيًا في سبيل الله!!!

وهذا أعلى وأرقى اسلوب... يمكن أن يرقى اليه انسان!!!

فلا شيء هو أكرم على الله... من مقاتل يقاتل في سبيله... أعداء الله!!!

إلا أن أروع أفعاله كان أمره **بإراقة الخمور... وإبطال المنكرات... وتعفيه آثار المسكرات... ومنع الحانات... والخواطي... بجميع أقطار مملكته بمصر والشام» ؟!!!**

هذا في رأيي هو أعظم انجاز في هذا العام لذلك السلطان العظيم...

(١) سواكن: ميناء مشهور على ساحل البحر الأحمر، يتبع حاليًا جمهورية السودان.

(٢) «... ...» موضع كلمة غير مقروءة، ويدل السياق على أنها سفن حربية بحرية.

فإن القتال في سبل الله شيء ليس أعظم منه...

ولكن الأعظم منه هو النهي عن المنكرات... وتطهير جميع البلاد من نجاساتها...

لأنه لا قيمة لجيش مخمور تشيع فيه الفحشاء...

إن امرأة حسناء لعوب متهتكة واحدة... تتلاعب أمام عيون جنود سكارى... كفيلة أن تدفعهم جميعًا إلى الزنى...

ولا تنتظر من جندي سكّير... زانٍ... أن يقاتل قتال الشجعان!!!

ثم إن المسألة ليست مسألة تطهير للمجتمع من خبائث الخمر والزنى فقط... وإنما المدلول العظيم الذي تلألأ من السلطان العظيم حين منع المسكرات والحانات وبنات الهوى... هو امتثاله لأمر ربّه...

أمره الله بتحريم الخمر... وتحريم الزنى... فأطاع واستعمل السلطات المطلقة التي في يديه... في تنفيذ ذلك...

فلا خمر... ولا زنى... ولا حانات... ولا راقصات عاهرات...

والويل لمن يعصي أوامر بيبرس!!!

إن أعظم انسان على الأرض... حاكم آتاه الله مُلكًا... فحَكَم بما أنزل الله... وعدل في الناس... وأمر بالمعروف... ونهى عن المنكر!!!

وقد كان بيبرس كذلك!!!

بطل... لا يتوقف عن الفتوحات واذلال التتار شرقًا... والصليبيين غربًا...

وفي الداخل... مارد عملاق يرعب المجرمين... ويرهب الداعرين... ويبطش بالمفسدين!!!

وهذا أقصى ما يُطلب من حاكم يحكم الناس!!!

انظر الى جمال عبقرية بيبرس!!!

اراقة الخمور... فورا يُحَطَّم أواني الخمر في جميع انحاء المملكة الممتدة من السودان جنوبًا... الى ما بعد حلب شمالًا!!!

إبطال المنكرات... فورًا كل شيء حرمه الله ممنوع... في جميع أنحاء المملكة!!!

وتعفية آثار المسكرات.... المخدرات... الحشيش... المشمومات... كل أنواع الإدمان القذر... ومجتمعاته تُدَمَّر فورًا في جميع أنحاء البلاد!!!

ومنع الحانات... جميع أنواع الصالات... والمراقص... وسهرات الليل... تُدَمَّر فورًا...

والخواطي... جمع خاطئة... أي امرأة عاهرة... تتعاطى الفاحشة... جميع هؤلاء يُقضى عليهن فورًا... وان اقتضى الأمر إعدامهن فليُعدَمْن فورًا!!!

ذلكم بيبرس!!!

أسد ضارٍ... في الخارج... يزأر في الأعداء فتترنح مفاصلهم ما بين قتيل وأسير!!!

ويزأر في الداخل... فيُبَدِّد المجرمين والقوّادين والمخمورين والمدمنين... فإمَّا تَابوا وأقلعوا... وإما تعقبهم بالإبادة والقتل!!!

إنه مثال رائع... للمعنى الجامع... للحاكم في الإسلام!!!

فلا فصْل بين الدين والدولة... وإنما هما وحدة واحدة لصلاح الإنسان والمجتمع!!!

وأخرى من أعظم انجازاته... «أنه أمر بجمع أهل العاهات... فجمعوا بخان السبيل... وأمر بنقلهم إلى الفيوم... وأفرد لهم بلدًا ليكونوا فيه... ويجري عليهم ما يحتاجون إليه»!!!

لم تشغله فتوحاته الخارجية... عن اصلاح الداخل...

حتى أصحاب العاهات يعالج موضوعهم...
أمرٌ عام... يُجمع جميع أصحاب العاهات في أنحاء المملكة...
ثمَّ يُنقلون الى الفيوم...
ومنها الى بلدٍ خاصٍ لهم...
مؤسسة عامة... فيها جميع ما يحتاجون اليه في معيشتهم...
وعلاجهم... ويحقق السعادة لهم ولذويهم!!!
ذلكم بيبرس!!!
وكم في تاريخنا من أمجاد وأماجد لا نعرف عنهم شيئًا!!!

رسالة السلطان...

الملك الظاهر بيبرس...

الى القاضي ابن خلكان...

لما أخذ حصن صفد...؟!

رسالة السلطان الظاهر بيبرس إلى القاضي ابن خلكان سنة ٦٦٤ هـ لما أخذ صفد من إنشاء كمال الدين أحمد بن العجمي؟!

سر الله خاطر المجلس السامي وأطلع عليه وجوه البشائر سوافر، وأمتع نواظره باستجلاء محاسنها النواضر، وواصلها إليه متوالية تواجهه كل يوم بمراتبها الزواهي الزواهر، وأماثلها لديه متضاهية الجمال متناسبة في حسن المبادي والأواخر، ولم تزل وجوه البشائر أحسن وجوه تستجلى، وألفاظه أعذب ألفاظ تستعاد وتستحلى. وإذا كررت على المسامع أحاديث كتبها لا تمل بل تستملي، لا سيما إذا كانت بإعزاز الدين وتأييد المسلمين، ونبأ فتح نرجو أن يكون طليعة فتوحات كل فتح منها هو الفتح المبين، فإن أنباءها تجل وقعًا وتعظم في الدنيا والآخرة نفعًا، وتود كل جارحة عند حديثه أن تكون سمعًا لحديث هذا الفتح الذي كرم خبرًا وحسن أثره في الإسلام وردًا وصدرًا، وطابت أخبار ذكره فشغل به الساورن حِداءً والسامرون سمرًا. وهو فتح صفد واستنقاذه من أسره واسترجاعه إلى الإسلام، وقد طالت عليه في النصرانية مدة من عمره، واقرار عين الدين بفتحه، وكان قذى في عينه وشجى في صدره. وقد كنا لما وصلنا الشام بالعزم الذي نفرته دواعي الجهاد، وأنقذته عوالي الصغاد وقربته أيدي الجياد ملنا على سواحل العدو المخذول،

فغرقناها ببحار عساكرنا الزاخرة، وشنينا بها من الغارات ما ألبسها ذلّا رفل بها الإسلام في ملابس عزه الفاخرة. وهي وإن كانت غارة عظيمة شنت في يوم واحد على جميع سواحله واستولى بها النهب والتخريب على أمواله ومنازله، واستبيح من حرمه وحرمه مصونات معاقله وعقائله، إلا أنها كانت بين يدي عزائمنا المنصورة نشيطة نشطنا بها الغازين واسترهفنا بها همم المجاهدين، وقدمناها لهم كاللهنة قبل الطعام للساغبين، واعقبنا ذلك بما رأيناه أولى بالتقديم وأحرى، وتبيناه أشد وطأة على الإسلام وأعظم ضرّا، وهي صفد التي باء بإثمها حاملها على النصرانية ومسلطها بالنكاية على البلاد الإسلامية، حتى جعلها للشرك مأسدة آساده ومراد مراده ومجر رماحه ومجرى جياده، كم استبيح بسببها للإسلام من حمى، وكم استرق الكفار بواسطتها مسلمة من الأحرار ومسلمًا، وكم تسرب منها جيش الفرنج إلى بلاد المسلمين فحازوا مغنمًا وقوضوا معلمًا، فنازلناها منازلة الليل بانعقاد القساطل، وطالعناها مطالعة الشمس ببريق المرهفات وأسنة الذوابل، وقصدناها بجحفل لم يزحم بلدًا إلا هدمه ولا قصد جيشًا إلا هزمه، ولا امّ ممتنعًا طغى جباره إلا سهله وقصمه، فلما طالعتها أوائل طلائعنا منازلة، وقابلتها وجوه كماتنا المقاتلة اغتر كافرها فبرز للمبارزة والقتال، ووقف دون المنازلة داعيًا للنزال. فتقدم إليه من فرساننا كل حديد الشبا جديد الشباب يهوي إلى الحرب فيرى منه ومن طرفه أسد فوق عقاب، ويخف نحوها متسرعًا فيقال: أذا لقاء أعداء أم لقاء أحباب؟! فهم فوارس كمناصلهم رونقًا وضياء، تجري بهم جياد كذوابلهم علانًا ومضاءً، إذا مشوا إلى الحرب مزجوا المرح بالتيه فيظن في أعطافهم كسل، وهزوا قاماتهم مع الذوابل فجهلت الحرب من منهم الأسل. فحين شاهد أعداء الله آساد الله تصول من رماحها بأساودها، وتبدي ظمأً لا ينقعه إلا أن ترد من دماء الأعداء محمر مواردها، وأنها قد أقبلت نحوهم بجحافل تضيق رحب الفضاء، وتحقق بنزولها ونزالها كيف نزول القضاء، وأنه

جيش بعثه الله بإعزاز الجمعة وإذلال الأحد، وعقد برايته مذ عقدها أن لا قبل بها لأحد، وأن الفرار ملازم أعدائه ولا قرار على زأر من الأسد، ولوا مدبرين وأدبروا على أعقابها ناكصين، ولجأوا إلى معقلهم معتقلين لا متعقلين. فعند ذلك زحفنا إليه من كل جانب حتى صرنا كالنطاق بخصره، ودرنا به حتى عدنا كاللثام بثغره، وأمطرنا عليه من السهام وبلًا سحبت ذيول سحبه المتراكمة، وأجرينا حولها من الحديد بحرًا غرقه أمواجه المتلاطمة وضايقناها حتى لو قصد وفد النسيم وصولًا إليه لما تخلص، أو رام ظل الشمس أن يعود عليه فيئًا لعجز لأخذنا عليه أن يتقلص. ثم وكلنا به من المجانيق كل عالي الغوارب عاري المناكب، عبل الشوى سامي الذرى، له وثبات تحمل إلى الحصون البوائق، وثبات تزول دونه ولا يزول. الشواهق، ترفع لمرورها الستائر فتدخل أحجاره بغير استئذان، وتوضح لنزوله رؤوس الحصون فتخر خاضعة للأذقان فلم يزل يصدع بثبات أركانه حتى هدمها، وتقبل ثنيات ثغره حتى أبدى ثرمها. وفي ضمن ذلك لصق الحجارون بجداره وتعلقوا بأذيال أسواره ففتحوها أسرابًا، وأججوها جحيمًا يستعر جمرها التهابًا، فصلي أهل النار بنارين من الحريق والقتال، ومنوا بعذابين من حر الضرام وحد النصال، هذه تستعر عليهم وقودًا، وهذه تجعل هامهم للسيف غمودًا.

فعند ذلك جاءهم الموت من فوقهم ومن أسفل منهم، وأصبح ثغرهم الذي ظنوه عاصمًا لا يغني عنهم، ومع ذلك فقاتلوا قتال مستقتل لا يرى من الموت بدًا، وثبتوا متحابين يقدون ببيضهم البيض والأبدان قدًا؛ فصبر أولياء الله على ما عاهدوا الله عليه، وقدموا نفوسهم قبل إقدامهم رغبة إليه، ورأوا الجنة تحت ظلال السيوف فلم يروا دونها مقيلًا، وتحققوا ما أعده الله لأهل الشهادة فاستحلوا وجه الموت على جهامته جميلًا. فعند ذلك خاب ظن أعداء الله وسُقِط في أيديهم وصار رجاء السلامة برؤوسهم أقصى تمنيهم، فعدلوا عن

القتال إلى السؤال، وجنحوا إلى السلم وطلب النزول بعد النزال، وتداعوا بالأمان صارخين وجاؤوا بدعاء التضرع لاجين، فأغمد الصفح عنهم بيض الصفاح، وقاتلوا من التوسل بأحد سلاح، واستدعوا راياتنا المنصورة فشرفوا بها الشرفات ونزلوا على حكمنا فأقالت القدرة لهم العثرات. وتسلم الحصن المبارك وقت صلاة الجمعة ثامن عشر شوال، وتحكم نوابنا على ما بها من الذخائر والأموال... ونودي في أرجائها بالواحد الأحد... الخ.

عامٌ حافل...

في حياة...

السلطان...؟!

في السنة الخامسة والستين بعد الستمائة...

عودة السلطان من دمشق إلى مصر؟!

كان اول السنة يوم الأحد... وفي اليوم الثاني خرج السلطان من دمشق الى مصر... وقد ذكرنا أنه أرسل العساكر بين يديه إلى غزة... وعدل هو الى ناحية الكرك[1] لينظر في أحوالها...

ولما وصل إلى القاهرة واستقرّ ركابه فيها نظر في أمور الناس.

السلطان يصلي الجمعة في الأزهر ويأمر بعمارته؟!

ثم في ثامن عشر ربيع الأول نزل السلطان الى الجامع الأزهر... وصلى فيه الجمعة...

ولم تكن تقام فيه الجمعة من زمن العُبَيْديين[2] الى هذا الحين...

---

(١) الكرك: قلعة حصينة جدًا في أطراف الشام... بين أيلة والقلزم على سن جبل عال.

(٢) نسبة الى عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب. وقد سقطت الدولة الفاطمية بالقاهرة على يد صلاح الدين الأيوبي في اول المحرم ٥٦٧ هـ.

وهو أول مسجد وضع بالقاهرة...

بناه جوهر القائد...

وكان تقام فيه الجمعة إلى أن بنى الحاكم جامعه فحول إليه الجمعة وترك الأزهر...

فأمر السلطان بعمارته... وبياضه... وإقامة الخطبة فيه...

وكان فراغ جوهر القائد من بنائه في سنة إحدى وستين وثلاثمائة في خلافة المعز بن المنصور... بعد بناء القاهرة بثلاث سنين...

واستمرت إقامة الجمعة فيه الى يومنا هذا...

وقد كانت انقطعت الخطبة فيه مدة تناهز مائة سنة... فأراد الله إعادتها للإمام الحاكم... والملك الظاهر...

الملك المنصور يستأذن ليشهد الاسكندرية؟!

ثم وصل الملك المنصور صاحب حماة إلى خدمة السلطان بالديار المصريّة، ثم طلب منه الدستور[1] بأن يتوجه إلى الإسكندرية ليتفرج فيها، فرسم له بذلك، وأمر لأهل الإسكندريّة بإكرامه واحترامه، وفرش الشقق[2] بين يدي فرسه، فتوجه إليها وتفرج، ثم عاد إلى الديار المصريّة مكرّمًا محترمًا، ثم خلع عليه السلطان وأحسن إليه على جاري عادته، ورسم له بالعود إلى بلده، فعاد.

وتوجّه الملك المنصور إلى العباسة[3] أيضًا صحبة السلطان للصيد، وعاد صحبته، ثم سافر إلى محلّ ولايته.

---

(١) الدستور=الدساتير: فارسية، من معانيها الإجازة أو الإذن.

(٢) الشقة=الشقق: قطعة من قماش الكتان أو شعر الماعز.

(٣) العباسة: بفتح أوله وتشديد ثانيه ـ بلدة في الطريق من مصر إلى الشام تبعد عن القاهرة نحو ٧٥ كم، أصبحت منذ عهد الملك الكامل الأيوبي منتزهًا فقد كان يكثر الخروج إليها للصيد لأن إلى جانبها مما يلي البرية مستنقع ماء يأوي اليها طير كثير.

توجُّه الملك الظَّاهر إلى ناحية الشَّام؟!

وفي هذه السنة توجه السلطان إلى الشام في بعض أمرائه، وأراح بقية العساكر بالديار المصريَّة، وسار إلى صفد، فلما وصلها بلغه أن طائفة من التتار على عزم قصد الرحبة[1]، فرتَّب أمر عمارة صفد وسار إلى دمشق مسرعًا، فورد الخبر برجوع التتار عن قصد الرحبة، فأقام بدمشق خمسة أيام، ثم عاد إلى جهة صفد وحفر خندقًا حول قلعتها، وعمل فيه بنفسه وأمرائه وجيشه، وأمر بعمارة سور صفد وقلعتها وأن يكتب عليها: ﴿وقد كتبنا في الزَّبورِ من بعد الذكر أَنَّ الأرضَ يرثُها عبادي الصالحون﴾[2]، ﴿أولئك حزبُ الله ألا إن حزبَ الله هُمُ المُفْلحون﴾[3].

السلطان يعمل بنفسه في حفر الخندق؟!

وقال أبو شامة: وفي شهر رجب حفر السلطان الظاهر بيبرس خندقًا لقلعة صفد، وعمل فيه بنفسه وعسكره، وفي بعض تلك الأيام بلغه أن جماعة من الفرنج بعكا تخرج منها غدوة وتبقى ظاهرها إلى ضحوة، فسري ليلة بعض عسكره فكمن لهم في تلك الأودية، فلما أبعدوا عن عكا فخرج عليهم من ورائهم فقتل وأسَرَ، وضربت البشائر بدمشق بذلك.

---

(١) الرحبة: على شاطىء الفرات بين الرقة وبغداد.

(٢) سورة الانبياء، آية ١٠٥.

(٣) سورة المجادلة، آية ٢٢.

وقال بيبرس: وفيها وصل إلى السلطان رسل الإفرنج وأجابوا إلى المناصفة في صيدا، وهدم الشقيف[1]، وكان قد بلغه أنهم أغاروا على مَشْغَرا، فأنكر عليهم وأقيموا بين يديه قيامًا مزعجًا، ثم ركب وشن الغارة على عكا، وعمل اليزك[2] على أبوابها، وقطع الأشجار، وأحرق الثمار، وهدم طاحونًا لبيت الاسبتار يسمى طاحون كردانة.

وكان أهل صور قد قتلوا شخصًا من مقدمي رجال الصُبَيْبة يسمى السابق شاهين، فقرَّر عليهم ديته خمسة عشر ألف دينار صُوريّة وسألوا الصلح، فأجابهم، وكتبت هُدْنَة لمدة عشر سنين لصور وبلادها وهي تسعة وتسعون قرية، وقررت الهدنة مع بيت الاسبتار على حصن الأكراد والمرقب[3].

الصلح مع ملكة بيروت؟!

واستقرت قاعدة الصلح مع صاحبة بيروت، فإن أخاها كان قد غدر بمركب الأتابك فيه جماعة من التجار كانوا متوجهين إلى قبرس، فطالبهم السلطان بمال التجار، فالتزموا به، والتزموا إطلاق التجار، وتقرَّر الصلح.

---

(١) الشقيف=شقيف أرنون: بفتح أوله وكسر ثانيه، قلعة حصينة جدًا في كهف من الجبل قرب بانياس.

(٢) اليزك: طلائع الجيش.

(٣) المرقب: بالفتح ثم السكون: بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بانياس.

وفاة بَركة خان... ملك التتار... ببلاد الشمال؟!

بـركـة خـان... بـن صـايـن خـان... بـن دُوشي خـان... بـن جنكزخان...

ملك التتار ببلاد الشمال...

وهو ابن عم هلاون خان...

وكان قد دخل في بلاد الإسلام... وكان بينه وبين السلطان الملك الظاهر صحبة ومودّة...

وكان لا يقطع مكاتبته ولا مراسلته من الظاهر...

وقد وقع بينه وبين هلاون من الحروب ما ذكرناه...

وكان يحب العلماء والصالحين...

ومن أكبر حسناته كسرُه لهلاون... وتفريقه جنوده...

وكان أعظم ملوك التتار...

وكرسيّ مملكته مدينة صَرَاي...

توفي في هذه السنة ولم يكن له ولد ذكر...

فاستقر عوضه... ابن أخيه... منكوتمر... بن طوغان... بن دُوشي خان... بن جنكزخان...

وجلس على كرسي صَرَايْ[1]...

وصـارت إليـه مملكـة التتـار... ببلاد الشمال... والتُـرك... والقفجاق... وباب الحديد وما يليه...

ثم وقعت بينه وبين أبْغا بن هلاون حروب كثيرة... فكسرة أبغا وغنم منه شيئًا كثيرًا... وعاد أبْغا إلى بلاده!!!

---

(١) صَراي: مدينة شمال غرب بحر قزوين

السادسة والستين بعد الستمائة...
سنة الفتوحات الكبرى...
والانتصارات العظمى...؟!

في السّنة السّادسة والسّتين بعد السّتمائة

استهلت هذه السنة والخليفة هو: الحاكم بأمر الله.

وسلطان البلاد المصريّة والشاميّة والحلبيّة: الملك الظاهر بيبرس.

وسلطان الروم: الملك ركن الدين قليج أرسلان.

وصاحب العراقين وغيرهما: أبغا بن هلاون.

وصاحب البلاد الشمالية التي كرسيُّها صَرَايْ: منكوتُمر بن طوغان، وكتب إليه الملك الظاهر بالتعزية لأجل بركة خان، والتهنئة لأجل ولايته عوضه، وأغراه على قتال أبغا بن هلاون.

سفر السلطان الظّاهر إلى الشّام؟!

وفي شهر جمادي الآخرة تجهز السلطان لأجل السفر إلى الشام، وخرج من القاهرة في ثالث الشهر المذكور، ولما وصل إلى غزة أمر العساكر بمنازلة الشقيف[1]، فنازلوها بغتة وضايقوها، وناوشوا أهلها القتال، ونزل السلطان

(١) الشقيف: معقل حصين بين دمشق والساحل بالقرب من بانياس.

بالعوجاء[1].

فتح يافا؟!

وفي جمادي الآخرة فتحت يافا، وذلك أن صاحبها جُوَان دباين[2] سيَّر متجرِّمة في زيّ صيّادين إلى قطنا، واتفق هلاكه وقيامُ ولده مقامه، فلما وصل السلطان إلى العوجاء حضر إليه رسله وهم قسطلان[3] يافا وأكابرُها، فعوَّقهم، وسيَّر الحجاب إلى العساكر يأمرهم بلبس العَدَد والركوب على أتم أهْبَة، وركب نصف الليل، فصبَّح يافا صبَاحًا، فلما عاينوا كثرة العساكر المنصورة، وشاهدوا تلك الجيوش بتلك الأهْبة والصورة، شملهم الذهول، وطارت منهم العقول، فملك المسلمون المدينة، ولجأ أهلها إلى القلعة، وسألوا الأمان على أن يطلقوا بأموالهم وأولادهم، فأجابهم، وتسلم القلعة منهم، وطلعت عليها السناجق[4] السلطانيَّة في العشر الأوسط من جمادي الآخرة من هذه السنة، وأمر السلطان بهدم المدينة فهدمت، وكذلك هدمت القلعة، وقد كانت الفرنج قد اعتنوا بعمارتها وتحصينها فجعلوها بَلْقَعًا[5] لئلا يكون لهم إليها عودة، وقد كان الريد أفرُنس[6] لما أطلق من الأسْرِ من ثغر دمياط حضر إليها وعمّرها وأنفق عليها أموالًا.

---

(١) العوجاء: موضع بين أرسوف والرملة بفلسطين.

(٢) هو John II d'Ibelin.

(٣) القسطلان: معرب اللفظ اللاتيني Castellanus وهو حارس القصر.

(٤) سنجق = سناجق: لفظ تركي، يطلق في الأصل على الرمح، والمقصود الأعلام السلطانية.

(٥) البلقع: الأرض المقفرة.

(٦) المقصود لويس التاسع ملك فرنسا.

وذكر ابن عساكر في تاريخه: أن أوّل من بناها الملك طنكلي في سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة، ولما فرغ السلطان من هدمها رحل عنها إلى الشقيف منصورًا.

فتْح شَقِيف أرْنُونَ؟!

في رجب من هذه السنة.

ولما أتى إليها السلطان نزل عليها، وقد كان جهَّز لمضايقتها عسكرًا صحبة بجكا العزيزي، وله قلعتان، ولما ضُويقوا عجزوا عن حماية القلعتين، فأحرقوا أحديهما، فتسلمها المسلمون في السَّادس والعشرين من رجب، وخرج الوزير كُلْيَام من القلعة الأخرى مستأمنًا فَأَمَّنه السلطان، وفي آخر الشهر تسلمت وطلعت عليها السناجق السلطانيّة ونصبت، وأخرج أهلها وصيَّرُوا إلى جهة صُور، وبعث السلطان الأثقال إلى الشام.

ثم رحل عنها وبثَّ العساكر للإغارة على طرابلس وأعمالها، فقطعوا أشجارها وخرَّبوا ما حولها من الكنائس، ونهبوا وسبوا، فلما سمع صاحب صافيتا وأنطرسوس بما حل بالفرنج من العكوس خاف أن يمسّهُ ما مسَّهُم من البؤس، فبادر إلى الخدمة، وتلقَّى العساكر بالإقامة، وأحضر مَنْ كان عنده من أسرى المسلمين، وكانوا ثلاثمائة أسير.

ثم رحل السلطان إلى حمص، ومن حمص إلى حماة.

فتح أنطاكية؟!

في شهر رمضان من هذه السنة.

وهي مدينة عظيمة، يقال إن دَوْرَ سُورِها اثني عشر ميلًا، وعدد بروجها مائة وثلاثون برجًا، وعدد شرفاتها أربعة وعشرون ألف شرفة.

ولما رحل السلطان من حمص إلى حماة فرَّق العساكر ثلاث فرق: فرقة صحبته، وفرقة صحبة الأمير سيف الدين قلاون الألفي، وفرقة صحبة الأمير عز الدين يوغان الركني.

قال بيبرس: وكنت في هذه الغزاة المبرورة، فأما قلاون ومن معه فإنه سار من أفامية[1]، فصابحنا القُصَير[2] صباحًا وشنّنا أهله القتال غدوًّا ورواحًا، وارتحلنا إلى أنطاكية فنزلنا من غربيها على سفح الجبل، وتواصلت العساكر إليها، ونزل السلطان عليها في اليوم الأول من شهر رمضان، وخرج منها جماعة فيهم كُنُد اصْطبل عمٍّ صاحب سيس الذي ذكرناه أنه انهزم في نوبة سيس، فالتقوا مع الجاليش[3] المنصور، فاستظهر الجاليش عليهم، وأسَر الكُنْدَ جنديٌّ من أجناد الأمير الأجل شمس الدين آقسنقر[4] الفارقاني، يُسمّى المظفري، وأحضره إلى السلطان، فأعطاه عشرة طواشيّة، وأمره بحمل رُنك[5] كند اصطبل، فحمل رُنكة على سنجقه إلى أن مات، وسأل هذا الكند أن

---

(١) أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام، وكورة من كور حمص.

(٢) القصير: بلفظ تصغير قصر: اسم لعدة مواضع: والمقصود هنا: ضيعة أول منزل لمن يريد حمص من دمشق.

(٣) الجاليش: راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر ولعل المقصود هنا مقدمة الجيش أو طلائعه.

(٤) هو آق سنقر بن عبد الله النجمي الفارقاني، الأمير شمس الدين.

(٥) رنك=رنوك: لفظ فارسي معناه اللون، وقد استخدم في المصطلح بمعنى الشعار الذي يدل على الوظيفة.

يدخل أنطاكية ويتحدّث مع أهلها ويحذرهم وينذرهم، وأحضر ولده زهينة على ذلك، فلم يُغْن شيئًا.

وكانت المعركة في رمضان؟!

وفي يوم السبت رابع رمضان المعظم قدره زحفت العساكر، وأطافت بالمدينة والقلعة، وقاتل أهلها قتالًا شديدًا ذريعًا، وجاهدهم المسلمون جهادًا عظيمًا، وتسوَّروا الأسوار من جهة الجبل، ونزلوا المدينة بالبيض والأسَل[1]، وشرعوا في النهب والقتل والأَسْر حتى أثخنوا فيهم غاية الإثخان، واجتمع نحو القلعة منهم نحو ثمانية آلاف منهم، وسألوا الأمان، فأجيبوا إليه. وأخذوا في الحبال، وقُتِل وأُسِرَ جمع يتجاوز الإحصاء من النساء والرجال، وكان بها مائة ألف أو يزيدون، ووجدوا بها من الأسرى والحلبيّين خلقًا كثيرًا.

وصف بليغ للمعركة؟!

وكتبت كُتب البشائر، ومن جملتها كتاب إلى صاحبها[2] نسخته:

قد علم القومصُ[3] الجليل المبجل، المعزز الهمام، الأسد الضرغام بيمند، فخر الأمة المسيحية، رئيس الطائفة الصليبية، كبير الأمة العيسوية المنتقلة

---

(١) الأسل: الرمح، أي السيوف والرماح.

(٢) هو بوهمند السادس Bohemond VI أمير أنطاكية وطرابلس.

(٣) القومص في اللاتينية Comes، وفي العربية الدارجة «الكونت».

مخاطبته بأخذ أنطاكية منه من البرنسية إلى القُومَصيَّة، ألهمه الله رشده، وقرن بالخير قصْدَه، وجعل النصيحة محفوظة عنده، ما كان من قصدنا طرابلس وغَزْونا له في عقر الدار، وما شاهده بعد رحيلنا من اخراب العمائر وهدم الأعمار، وكيف كُنِست تلك الكنائس من على بساط الأرض، ودارت الدوائر على كل دَار، وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر، وكيف قُتلت الرجال، واستُخدمت الأولاد، وتُملكت الحرائر، وكيف قُطعت الأشجار، ولم يُترك إلا ما يصلح للأعواد والمجانيق والستائر، وكيف نُهبت لك ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والحواشي، وكيف استغنى الفقير، وتأهَّل العازبُ، واستخدم الخديم، وركب الماشي، هذا وأنت تنظر نظر المغشّي عليه من الموت، وإذا سمعت صوتًا قلت فزعًا: عَلَيَّ هذا الصوت، وكيف رحلنا عنك رحيل مَنْ يعُود، وأَخَّرناك وما كان تأخيرك إلا لأجل معدود، وكيف فارقنا بلادك، وما بقيت ماشية إلا وهي لدينا ماشية، ولا جاريةٌ إلا وهي في ملكنا جَارِيَة، ولا سارية إلا وهي بين أيدي المعاول سارِيَة، ولا زرع إلا وهو محصود، ولا موجود لك إلا وهو منك مفقود، ولا منعت تلك المغايرُ التي هي في رؤوس الجبال الشاهقة، ولا تلك الأودية التي هي في التخوم مُخترقة، وللعقول خارقة، وكيف سُقْنا عنك ولم يسبُقْنَا إلى مدينتك أنطاكية خبَرَ، وكيف وصلنا إليها وأنت لا تُصدّق أننا نَبْعُد عنك، وإن بعُدْنا فسنعود على الأثر، وها نحن نعلمك بما تَمَّ، ونفهمك بالبلاء الذي عمّ: كان رحيلنا عنك عن طرابلس يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شعبان، ونزولنا أنطاكية في مستهل شهر رمضان، وفي حالة النزول خرجت عساكرك للمبارزة فكسِرُوا، وتناصروا فما نُصِروا، وأُسِر من بينهم كُنداصْطبل، فسأل في مراجعة أصحابك، فدخل إلى المدينة، فخرج هو وجاعة من رهبانك، وأعيان أعوانك، فتحدَّثوا معنا، فرأيناهم على رأيك من إتلاف النفوس بالغرض الفاسد، وإنَّ رأيهم في الخير مختلف، وقولهم في الشرّ

واحد، فلما رأيناهم قد فات فيهم الفَوْت، وأنَّهم قد قدَّر الله عليهم المَوْت، رددناهم وقلنا: نحن الساعة لكم نحاصر، وهذا هو الأول في الإنذار والآخِر، فرجعوا متشبهين بفعلك، ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك، ففي بعض ساعة مرَّ شَأن المَرْء شان، وداخل الرَهب الرَهبان، ولان للبلاء القسطلان[1]، وجاءَهم الموتُ من كل مكان، وفتحناها بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحاماة عنها، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا، فما بقي أحد منا إلا وعنده شيء منهم ومنها، فلو رأيْت خيَّالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول، وديارَك والنِّهابة فيها تصول، والكسَّابة[2] فيها تجول، وأموالك وهي تُوزَنَ بالقنطار...

اربع نساء جميلات بدينار؟!

وداماتك[3] وكل أربع منهنّ تباع، فتُشترى من مالك بدينار، ولو رأيت كنائسَك: وصلبانها قد كُسِرَت، وصحفها من الأناجيل المزوَّرة قد نُشِرت، وقبور البطارقة قد بُعْثِرت، ولو رأيت عدوّك المسلم داس مكان القداس والمذبح، وقد ذُبحَ فيه الراهبُ والقسيسُ والشماس، والبطارقة قد دُهِموا بطارِقَةْ، وأبناء المملكة، وقد دخلوا في المملكة، ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تخترق، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تَحْتَرِق، وقصورك وأحوالها قد حالَتْ، وكنيسةُ بُولص وكنيسة القِسْيَان وقد تركت كل منها

(١) القسطلان ـ لفظ لاتيني يعني « حارس القصر ».

(٢) الكسابة: الذين كان همهم كسب الغنائم وجمعها.

(٣) « وإماءك » ـ ولعل المقصود بها النساء.

وزالَــت، لكُنت تقول: (يا ليتني كنتُ تــرابــا) ويــا ليتني لم أُوت بهذا الخبر كتابًا، ولكانت نفسُك تَذهبُ من حسرتك، ولكنت تطفئ تلك النيران من ماء عبرتك، ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت من مغانيك، ومراكبك وقد أُخِذت في السُوَيدية بمراكبك، فصارت شوانيك من شوانيك، لتيقَّنْتَ أن الإله الذي أنطاك[1] أنطاكية منك استرجعها، والربُّ الذي أعطاك قَلعتها منك قلعَها، ومن الأرض اقتلعها، ولتعلم أنا قد أخذنا بحمد الله منك ما كنت قد أخذته من حصون الإسلام، وهو دير كُوش، وشقيف كفردوش، وجميع ما كان لك في بلاد أنطاكية، واستنزلنا أصحابك من الصِّياصي، وأخذناهم بالنواصي، وفرقناهم في الداني والقاصي، ٥٤٢ ولم يبقى شيءٌ يُطلق عليه اسم العصيان إلا النهر، فلو استطاع لما تسمَّى بالعاصي، وقد أجْرى دموعه نَدَمًا، وكان يذرفُها عَبْرة صافية، فها هو أجراها بما سفكناه فيه دَمًا، وكتابُنا هذا يتضمن بالبُشرى لك بما وهبك الله من السلامة وطول العمر بكونك لم يكن لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة، وكونك ما كنت فيها فتكون إما قتيلًا وإما أسيرًا، وإما جريحًا وإما كسيرًا، وسلامةُ النفس هي التي تفرح الحيَّ إذا شاهد الأموات، ولعل الله ما أخرَّك إلا لأن تَسْتَدرِك من الطاعة والخدْمة ما فات، ولما لم يَسْلَم أحدٌ يُخْبرك بما جرى خبّرناك، ولما لم يقدر أحدٌ يُباشرك بالبُشرى وسلامة نفسك وهلاك ما سواها باشرناك بهذه المفاوضة وبشَّرْناك، ليتحقق الأمرُ على ما جرى، وبعد هذه المكاتبة لا ينبغي لك أن تكذّب لنا خبرًا، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل غيرنا مخبرًا.

وأما كندا اصْطبل فإن السلطان أطلقه، وأطلق أهله وأقــاربه، وفسح له في التوجه إلى سيس.

وهذه أنطاكية هي التي ذكرها الله في القرآن الكريم بقوله: ﴿واضْــرِبْ لهم

---

(١) أنطاك: ووردت «أعطاك»

مثلًا أصحابَ القريةِ إذْ جاءَها المرسَلُون﴾[1] وبانيها أنطياخس وإليه تنسب، وكان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب قد فتحها كما ذكرنا من البرنْس أرْناط وقتله[2]، ثم ملكها الابرنس المعروف بالأسير، ومن بعده ولده سَدُو، وبعده ولده بَيْمُنْد، ومنه أُخذت الآن واستقرت في الممالك الإسلامية إلى الدولة الناصريّة.

ثم أن السلطان أمر بجمع المكاسب، فجمع من الأموال والمصوغ ما لا يحصى كثرة، وقسمت الغنائم على الأمراء والعساكر، وتقاسموا السبايا والمواشي والنسوان والأطفال، فلم يبق غلام إلا له غلام، وبيع الصغير باثني عشر درهمًا فيما حولها بين العسكر والكسَّابة، وأمر السلطان باحراق قلعة أنطاكية فأحرقت، وأما ما خصَّه من الغنائم فإنه أفرده وأرصده لعمارة الجامع الذي أمر بإنشائه بالحسينيّة، فصرف عليه.

فتح بَغْراس؟!

لما فتحت الحصون المذكورة، انهزمت الداويّة من بغراس، فتسلّمها السلطان على يدي الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقاني أستاذ الدار في ثالث عشر رمضان، ولم يوجد بها سوى امرأة عجوز، ووجدت عامرة بحواصلها، وهذا الحصن نَازَل عليها الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين يوسف

---

(١) سورة يس، آية ١٣.

(٢) البرنس أرناط هو ريجنالد دي شاتيون، وكان قد حكم أنطاكية في الفترة من ١١٥٣-١١٦٠ م، وهو صاحب حصن الكرك الذي قتله صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد موقعة حطين سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٧ م.

أما صاحب أنطاكية في ذلك الوقت فهو بوهيمند الثالث الذي عقد صلحًا مع صلاح الدين لمدة ثمانية أشهر.

ابن أيوب وحاصره بالعسكر المصريّ الحلبيّ سبعة أشهر فلم يأخذه، وأخذه السلطان الملك الظاهر بيبرس بغير تعبٍ ولا نَصبٍ، وتسلم السلطان أيضًا حصونًا كثيرة وقلاعًا أخرى، ثم عاد السلطان مؤيّدًا منصورًا!!!

دخول السلطان دمشق؟!

ولما فرغ أمر السلطان من هذه الغزوة عاد منصورًا، فدخل دمشق في السابع والعشرين من رمضان في أبَّهة عظيمة وهيئة هائلة، وقد زينت له البلد، ودقَّت البشائر فرحًا به، ولما استقرَّ ركابه في دمشق عزم على انتزاع أراضي كثيرة من القرى والبساتين التي بأيدي مُلاكها، يزعم أنه قد كانت التتار قد استحوذوا عليها، ثم استنقذها منهم، وقد أفتاه بعض الفقهاء من الحنفيَّة بذلك بناء على أن الكفار إذا أخذوا شيئًا من أموال الناس المسلمين ملكوها، فإذا استرجعت لم تُرد إلى أصحابها الذين أخذت منهم، وهذه المسألة مشهورة وفيها خلاف، والمقصود أن السلطان الملك الظاهر عقد مجلسًا اجتمع فيه القضاة والفقهاء من سائِر المذاهب وتكلموا في ذلك، وصَمَّم السلطان على ذلك اعتمادًا على ما بيده من الفتاوى، وخاف الناس من غائِلة ذلك، فتوسط الصاحب فخر الدين ابن الوزير بهاء الدين بن الحنَّا، وكان قد درس بالشافعيّ بعد تاج الدين ابن بنت الأعز فقال: يا خوند أهل البلد يُصالحون بك عن ذلك كله بألف ألف درهم مقسطة كل سنة مائتا ألف درهم فضة، فأبى إلا أن تكون معجلة، ثم بعد أيام وقد خرج متوجهًا إلى الديار المصريّة أجاب إلى تقسيطها، وجاءت البشارة فقرئت على الناس، ففرح الناس بذلك، ورسم أن يعجلوا من ذلك أربعمائة ألف، وأن تعاد إليهم الغلات التي كانوا قد احتاطوا عليها في زمن القسم والثمار، وكان هذا مما شغب خواطر الناس على السلطان.

وقوع الصُلح بين السُلطان وبين صاحب سيس؟!

وفي شوال من هذه السّنة وقع الصلح بين السلطان وهو في دمشق وبين هيثوم صاحب سيس، على أنه إذا أحضر هيثوم سنقر الأشقر من التتار، وكانوا قد أخذوه من قلعة حلب لما ملكها هلاون، ويُسَلِّمَ مع ذلك بَهَسْنَي ودَرْبِسَاك ومَرزُبان ورَعْبان وشيح الحديد يُطلَّق له ابنه ليفون، فدخل صاحب السيس على ملك التتار أبْغا وطلب منه سنقر الأشقر فأعطاه إياه، ووصل سنقر الأشقر إلى خدمة السلطان، وتسلم السلطان المواضع المذكورة خلا بَهَسْنَي، وأطلق السلطان ابن صاحب سيس ليفون بن هَيْثوم وتوجّه إلى والده.

وقال بيبرس في تاريخه: ولما تقرّر الصلح بين الظاهر وبين صاحب سيس على ما ذكرنا أرسل السلطان بَجكا الرومي لإحضار ليفون بن صاحب سيس من الديار المصريّة؛ فتوجّه من أنطاكية وأحضره، وعاد إلى دمشق في ثلاثة عشر يومًا، فأرسله السلطان إلى والده في ثالث عشر شوال منها، وكان صاحب سيس قد سيّر إلى السلطان أخاه فاسَاك في هذا الأمر، وسيَّر ريمون صهر ولده رهينةً إلى أن يسلّم إليه القلاع المذكورة ويُحضر بسنقر الأشقر إلى الخدمة الشريفة.

مجيء رُسُل صاحب عكَّا إلى السلطان؟!

وهو في دمشق أيضًا، واسمه اوك بن هري[1] ابن أخت صاحب قبرس،

(١) هو هيو بن هنري بن بوهيمند الرابع صاحب أنطاكيه.

وكان أهل عكا قد أحضروه وملكوه عليهم، فلما جاء السلطان من أنطاكية إلى دمشق جاءت رسله إلى أبواب السلطان يسألونه الصلح، فتقرَّر الحال بينه وبين السلطان على عكّا وبلادها وثلاثين ضيْعَةً، وتقرّر أن تكون حَيْفَا للفرنج ولها ثلاث ضياع، وبقيَّةُ بلادها مناصفة، وللقرين عشر قرى والباقي للسلطان، وبلاد الكرمل[1] مناصفة، وعِثليت تكون لها خمس قرى والباقي مناصفة، وبلادُ صيدا الوطأة للفرنج والجبليات للسلطان، واتفق الصلح على مملكة قبرس وأن تكون الهدنة لعشر سنين، وسير السلطان إليه هدية عشرين نفرًا من أُسَارى أنطاكية.

عود السلطان من الشَّام إلى الديار المصريَّة؟!

ولما فرغ أمر السلطان خرج من دمشق عائدًا إلى الديار المصريَّة، فدخلها يوم الحادي عشر من ذي الحجة من هذه السنة، وكان يوم دخوله يومًا مشهودًا، وجاءت إليه هدية صاحب اليمن مشتملة على تحف شتى وكتاب إلى السلطان، وسأله الإنتماء والحضور إلى جنابه وأنه يخطب له ببلاد اليمن، فأرسل له السلطان خلعًا وسنجقًا وتقليدًا.

---

(١) الكرمل: حصنٌ بالجبل المشرف على حيفا بساحل الشام.

بقية الحوادث؟!

ومنها: أن السلطان فتح جَبَلة[1] وتسلمها من صاحبها افرير ماهي صافاج.

ومنها: أن معين الدين البرواناه مدبر مملكة الروم اتفق مع التتار المقيمين معه ببلاد الروم على قتل السلطان ركن الدين قليج أرسلان السلجوقي، فخنق التتار ركن الدين بوتر، وأقام البُرواناه مُقامه ولده غياث الدين كيخسرو بن ركن الدين المذكور، وله من العمر أربع سنين.

وقال ابن كثير: وله من العمر عشر سنين، وتمكن البَرْوَاناه جدا، وأطاعه جيش الروم.

★ ★ ★

اقول... هذا العام... السنة السادسة والستين بعد الستمائة...

بلغ السلطان الظاهر بيبرس ذروة المجد من حيث الفتوحات العسكرية...

فها هو يفتح يافا في جمادي الآخرة... وها هي الأعلام السلطانية ترفرف عليها!!!

ثم ها هو يفتح شَقِيف أرْنُون في رجب من هذه السنة!!!

وها هي الأعلام السلطانية ترفرف عليها هي الأخرى!!!

إلا أن أعظم فتوحاته في تلك السنة... كانت فتح مدينة «أنطاكية»... في شهر رمضان من هذه السنة...

وهي مدينة عظيمة... شديدة التحصين...

إلا أنها استسلمت بعد قتال مرير لجيوش السلطان!!!

---

(١) جبلة: بالتحريك: اسم لعدة مواضع: والمقصود هنا: قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب ـ قرب اللاذقية ـ

وقُتِلَ وأُسِرَ جمع يتجاوز الإحصاء من النساء والرجال...
وكان بها مائة ألف أو يزيدون!!!
وها هو يواصل انتصاراته الرائعة...
وها هو يتسلم حصن بَغْراس من فرسان الداوية... وقد رُعِبوا من انتصارات بيبرس فسَلَّموا هذا الحصن المنيع اليه بعد اخلائه بدون مقاومة!!!
وتسلم السلطان أيضًا حصونًا كثيرة وقلاعًا أخرى...
ثم عاد السلطان مؤيدًا منصورًا...
فدخل دمشق في السابع والعشرين من رمضان في أبهة عظيمة وهيئة هائلة... وقد زينت له البلد... ودقَّت البشائر فرحًا به!!!
إنه بيبرس البطل الفاتح!!!

الملك الظاهر المنتصر . . .
يبعث رسائل النصر . . .
الى الآفاق . . . ؟!

رسالة الملك الظاهر بيبرس إلى القاضي ابن خلكان يبشره بفتح حصن الشقيف سنة ٦٦٦ هـ من إنشاء كمال الدين بن العجمي؟!

صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي القضائي، لا زالت البشائر تحل به ربعًا، وتصنع لديه في الابلاغ حسنًا وتحسن صنعًا، وتسر بالإفهام والإلمام والإعلام له قلبًا وبصرًا وسمعًا، نعلمه بفتح أمستْ وجوه البشائر ببشره متهللة وأسماع المنابر لوعيه متبتلة، وفروض الجهاد به مؤداة، ولكنها مشفوعة بالسيوف المسنونة والغزوات المتنفلة. وهو فتح الشقيف الذي جاء بتناوب الإتحاف إلى القلوب، ويتناسب أنباؤه كالرمح أنبوب على أنبوب، ويتعاقب مسراته إلى الإسلام كما تتعاقب الأنواء لنقع الثرى المكروب. وأقبل بعد فتح يافا كما تقبل البكر التي لا بد لها بعد سهولة الهواء من الامتناع عند الافتراع، وتهادى تهادي الغيث الذي لا بد له عند نزوله من الرعد المزعج والبرق اللماع. وكان نزولنا عليها في تاسع عشر شهر رجب المبارك سنة ست وستين وستمائة، بعد أن سلكنا إليها في أوعار تتعثر بها ذيول الرياح، وهبطنا في أودية لا يأنس فيها إلا بمجاوبة الصدى لقعاقع السلاح. وصعدنا في جبال لا يرى الأشباح منها إلا كالذر والذرى إلا كالأشباح. وهذه القلعة من وجه

هذه الشواهق بمكان الغرة، ومن كتابها بمنزلة الطرة، كأنها سمع تناجيه النجوم بأسرارها، أو راحة بما بسطته من أصابع شرفاتها وتلك البواشير فيها بمنزلة سوارها، يكاد الطرف ينقلب عنها خاسئًا وهو حسير، وكل ذي جناح يغدو دون منالها يطير. وقد أحكم بناؤها فلا أيدي المعاول لأطراف أسوارها مجاذبة، وحصن فناؤها فلا غير الغمائم لها مجاورة ولا غير الرعود لها مجاوبة. وقد تحصن بها من الكفر كل مستقتل، وتوطنها منهم كل جاهل يرجع في التحصن بها إلى منعتها وكيف لا وهو لها مستعقل، وقد انتخبهم الفرنج من بينهم انتخاب المناضل بسريع سهامه والمفاضل ببديع كلامه، وحلوا منه ذروة بعيدة المنال، وتوقلوا صهوة لا تتخطى إليها الآمال. وكنا كما قد علم المجلس السامي أعزه الله، قد سيرنا إليها العساكر الشامية تمسك منها الخناق، وتأخذ منها بمجامع الأطواق، فحفت بها كما حفت الخواتم بالخناصر، أو كما حفت بالعيون الأهداب، ودارت حولها سورًا ما له غير الخوذ من شرفات وغير نواهد الخيل من أبراج وغير حنايا السيوف من أبواب، وأحدقت بثغرها كما تحدق الشفاه بالثغور، وأطافت بها قبل إطافتنا كما يطوف البند قبل المنطقة بالخصور، وأقامت السمهرية ترمقهم بزرق عيونها والمشرفية تتناعس لأستنامتهم بتغميض جفونها. وبقيت ألسنة الصناجق في أفواه غلفها صامتة لسماع الزحافات مصغية، وكواسر الآساد في آجامها من الرماح السمهرية مقعية، وصارت السهام في كنائنها تقلق، وأخشاب المجانيق لتفرق اجـزائها تفـرق، إلى أن بعثنا الله من فتحها إلى المقام المحمود، وانقضت مدة إرجائها في يد الكفر، وما كان تأخيره إلا لأجل معدود، ونزلنا ربعها بالعساكر التي سيوفهـا مفاتيح الحصون ورماحها أرشية المنون. فما نزلنا من ظهر جوادنا إلا على ظهر جبلها الذي حرته عن يمينها جنيبًا، ولا ألقينا عصى التسيار حتى حملنا أعواد المجانيق على عاتقنا لنقدمها إلى الله تقربًا وإليهم تقريبًا. وللوقت نفخ أمرنا في صور الإيعاز بالمضايقة، ونشر العالم في صعيد وأخذ للمسابقة إلى صعودها

والمساوقة. وفي الوقت الحاضر اجتمعت أعضاء المجانيق المنفصلة، وتخطت في الهواء كفالها المنتعلة، واعتزلت كل فرقة من أوليائنا بمنجنيق يقيمه، وأعجب شيء أنها الظاهرية وأصحبت المعتزلة، وعن قريب أهوت إلى الأعداء محلقة صقور الصخور وتتابعت حجارتها إليهم عندما حصلت من المجانيق في الصدور، فبعثرت من أجسادهم المرسومة في القلعة ما في القبور، وكانت هذه القلعة المذكورة قد قسمها العدو قسمين، وخاصم الإسلام منها بخصمين، وجعلها قلعة دون قلعة، وصيرها ملكًا مقسـومًـا حتى لا تكـون فيـه شفعـة، وجعل أحديها مهبط قباله ومحط نزاله ومأوى رجاله؛ والأخرى مستودع نفسه وماله. فلما أحسوا بأسنا ورأوه شديدًا، وشاهدوا حزمنا عنيدًا وعزمنا مبيدًا، واقتحموا الأسوار يتسورهـا الرجـال، والمجـانيـق تحف بهم عـن اليمين وعـن الشمال، وضعفوا عن أن يحموا من تلك القلل جهتين، أو أن يقتسموا بها فئتين، أو يجمعوا مع كفرهم، إلا ما قد سلف، بين الأختين، أو أن يغدو نجس شركهم إلا وهو فيما دون القلتين حرقوا ما بالقلعة من مضمون، وأضرموا بها نيرانًا أعجب شيء كونها لم تطف بما أجروه من الجفون، وغالبتهم اليد الإسلامية قبل تركها، ودخلتها عليهم قبل الخروج عن ملكها. وذلك يوم الأربعاء السادس وعشرين شهر رجب المذكور، وكانت المجانيق ترمي عليها فصارت ترمى منها، وتصدر حجارتها إليها فصارت تصدر عنها. وتملكناها معقلًا شيده لنا العدو وبناه، وحصنًا منيعًا دافع عنه حتى تعب فلما تعب أخلاه وخلاه، وأصبح بحمد الله شك فتوحها لنا يقينًا، وما كان من خنادقها وأسوارها يقي الكفار وغدا يقي عساكرنا ويقينا. وصارتا جارتين تتحاسدان على قربنا، وما زال يغري بين الجيرة الحسد، ورأسًا وجسدًا فرق بينهما النصر ولابقاء للرأس بعد زوال الجسد. ولما أمكن الله من القلعة الواحدة، لم نر أن نبشر بالأولى حتى نبشر بالأخرى، ولا أن يقصر الإعلام على الإعلان بالبطشة الصغرى حتى نجمع إليه الإعلام بالبطشة الكبرى، ولما

جاز القصر والجمع في الفروض المؤداة في هذه السفرة المباركة قصرنا وجمعنا في أداء هذه البشرى. وكتابنا هذا وقد منّ الله بها علينا. وقال الإسلام: هذه بضاعتنا ردت إلينا، وذلك في سابعة يوم الأحد سلخ شهر رجب المبارك. وبحمد الله قد أصبحت تلك الضالة التي فقدها الإسلام منشودة، وتلك العارية التي استولت عليها يد الكفر مردودة، فشكرًا لسيف رد الضالة وأردى الضلالة، ومضى لا يكل حتى استفتي في الكلالة، وأحاله فرض الجهاد على الكفر بحق ما استخلص بحول الله وقوته تلك الحوالة. فليأخذ المجلس السامي حظه من هذه البشرى بما جعله الله للمتقين من عقبى الدار، وبما قدره من انقياد الكافرين صاغرين في قبضة الإسار، وبما سهله من عتق من كان فيها من الحرم والأطفال والصغار، وليملأ بحسن هذا الخبر المسامع، وليعمر بذكره المجامع والجوامع، فطالما اشتاقت إليه أعواد المنابر، وانتظرت إيداعه في سرائر السير ألسنة الأقلام وأفواه المحابر، والله تعالى يوفق المجلس فيما يحاول ويجاور إن شاء الله تعالى.

* * *

رسالة الملك الظاهر بيبرس إلى القاضي ابن خلكان بفتح يافا سنة ٦٦٦ هـ من انشاء محي الدين عبد الله بن عبد الظاهر؟!

هذه المكاتبة إلى المجلس السامي - أسمعه الله من البشائر أجلها، ومن التهاني أشملها، ومن تحيات النصر أفضلها ومن سوَر الإتحاف بالظفر منزلها - تعلن ببشرى بفتح حسن استفتاحه وتساوي في الجلالة غرره وأوضاحه، وأتى

بسملة لهذه الغزاة المباركة التي بها تتبرك المهارق، ومفتاحًا لمغلق الحصون التي إن فتحها الله فلا مغلق، وإن سهلها فلا عائق. وذاك لأن يافا كانت قد كثر عدوان من فيها وحصل من إضرارهم ما لا يقدر أحد على تدارك تحيفاتها ولا تلافيها، وصارت لعكا - يسر الله فتحها - طليعة مكر ومادة كفر، منها يمتارون من كل ممنوع وربما يأمنون من خوف ويشبعون من جوع، ويتطلعون إلى دار الإسلام منها من وراء زجاجة، ويجعلونها لهم بابًا يتوصلون منه عند الاجاجة إلى ما في نفوسهم من حاجة. فلما توجهنا هذه الوجهة المباركة وتعوضنا منها عن إنجاد الملوك بالملائكة، صرفنا إليها العنان يسيرًا، وعرجنا عليها تعريج مستروح ثم يستأنف سيرًا. وطرقناها بكرة يوم الأربعاء العشرين من جمادي الآخرة، فما مضى إلا بقدر ما جردت السيوف من الأغماد، أخذت المعاول في العويل على أهل الإلحاد، ونطقت ألسن الأعلام بالنصر المبين، وتلقي النصر رايتنا باليمين، وطفنا بها طواف المناطق بالحضور والشفاه بالثغور. وإذا بأهلها يطلبون الأمان على النفوس خاصة وأنهم يبذلون لنا كل ما لهم من مال وغلال وسلاح وغير ذلك فأجبناهم إلى ذلك. وما فتحوا الأبواب إلا والرجال قد فتحت النقوب ولاجيبوا الأطواق إلا والسيوف قد فتقت الجيوب. ولا خرجوا من قلعتها إلا والأبطال عليها قد علت، ولا طلعوا منها إلا والأولياء إليها قد دخلت، وما حصلوا خارجها إلا والمقاتلة بها قد حصلت. وتسلمناها وقلعتها فتحًا قريبًا، وتسلمناها مرتعًا مربعًا ومربعًا خصيبًا، وسطرناها في الساعة التي قام لسان العلم قبل لسان القلم على منبرها خطيبًا. فيأخذ حظه من بشرى جاءت طليعة لما بعدها من البشائر، وأقبلت مفهمة بأن لا بد بعدها من فتوحات تتبع الأوائل منها الأواخر. والله تعالى يوفقه في الموارد والمصادر، إن شاء الله تعالى.

* * *

رسالة الملك الظاهر بيبرس إلى القاضي ابن خلكان مبشرًا بفتح أنطاكية سنة ٦٦٦ هـ من إنشاء محي الدين بن عبد الظاهر؟!

أدام الله سعادة المجلس السامي القضائي، ولا برح يؤثر البشائر حشايا المنابر، ويجري من السرور الهاجم عيون المحابر، ويسجد لها قلم الناظم والناثر، ويتلقاها ببشر إذا تأمل قادمه قال كم ترك الأول للآخر. هذه المكاتبة تتحدث بنعمة الله التي تهلل لها وجه الإيمان؛ وهلل بها من أهله كل لسان، وجاء بحمد الله حلوة المجتنى حافة بالنصر من هنا ومن هنا، وذاك بفتح أنطاكية التي لم تتطرق إليها الحوادث والخطوب، ولاخرق حديث فتحها الأسماع ولا هجس في القلوب، وادخرها لله لنا ليخصنا بفتحها الوجيز، ويجعلها بابًا لما يليها من بلاد الكفر نلج منه بمشيئة الله وما ذلك على الله بعزيز. وهو أنّا لما فرغنا من فتوحاتنا التي سبق بها الإسلام، وإشاراتنا التي خصت وحصت طرابلس الشام، ثنينا العنان إلى هذه الجهة، فشاهدنا منها ما يروق النواظر، ورأينا مدينة يجتمع داخل سورها الأنس والوحش الطائر للاستيطان والبادي والحاضر، تحف بها أسوار لا يقطعها الطائف في يوم سيرًا، ولا يدرك الناظر من أولها لها أخيرًا، وبها رجال غدوا إليها من كل حدب ينسلون ومن كل هضبة ينزلون، وفي ظلال كل مطهم يتقيلون. وكان نزولنا عليها في يوم الأربعاء غرة شهر رمضان المعظم، فلم يكن إلا بقدر ما نزلنا إلا ورسلهم قد حضروا ليمسحوا أطراف الرضا ويتقاضوا من العفو أحسن ما يقتضي. فما ألوى عليهم حلمنا ولا عـرج، ولا نفس عنهـم كـربـة ولا فـرج. فزحفنا إليها في يوم السبت بكرة وهو رابع الشهر، فلم يلبثوا إلا ساعة من نهار وقد دخلت عليهم من أقطارها، وتسور العسكر المنصور من أسوارها، وامتدت ألسنة الصوارم وأسنة الرماح، وشهرت البيض الصفاح، واريقت

الدماء واستحيت النساء، وغنمت الأموال وجدلت الأبطال. ووجد العالم من التحف والنعم ما لا كان يمر في خلد ولا يخطر في بال. وكتابنا هذا واليد الإسلامية لها متسلمة وفيها متحكمة. فالمجلس يأخذ حظه من هذه البشرى ويرى فيها هذه الآية الكبرى. وما نريهم من آية إلا وهي أكبر من الأخرى. ويتلقاها ببشر فقد بعثنا بها الله في أحسن رونق من النصرة، وأقبلت بحمد الله كما بدأت أول مرة. فليشعها المجلس في كل باد وحاضر، ولينشر خبرها على أكباد المنابر. والله يكرمه بجعل سعادته من أتم الذخائر، إن شاء الله تعالى. كتب رابع شهر رمضان المعظم سنة ست وستين وستمائة.

★ ★ ★

نص الهدنة التي عقدها السلطان الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٧ هـ مع ملكة بيروت؟!

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة فلانة ابنة فلان، مالكة بيروت وجميع جبالها وبلادها التحتية مدة عشر سنين متوالية أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع وستين وستمائة الموافق لتاسع أيار سنة ألف وخمسمائة وثمانين يونانية، على بيروت وأعمالها المضافة إليها، الجاري عادتهم في التصرف فيها في أيام الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وأيام ولده الملك المعظم عيسى وأيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز، والقاعدة المستقرة في زمنهم إلى آخر الأيام الظاهرية، بمقتضى الهدنة الظاهرية، وذلك مدينة بيروت وأماكنها المضافة إليها: من حد جبيل إلى خد صيدا، وهي المواضع الآتي ذكرها: جونية بحدودها، والعذب بحدودها والعصفورية بحدودها، والزاووق بحدودها

وسن الفيل بحدودها ، والرح والشويف بحدودها ، وأنطلياس بحدودها ، والجديدة بحدودها ، وحسوس بحدودها ، والبشرية بحدودها ، والدكوانة وبرج قراجار بحدودها ، وقرينة بحدودها ، والنصرانية بحدودها ، وجلدا بحدودها والناعمة بحدودها ، ورأس الفيقة والوطاء المعروف بمدينة بيروت ، وجميع ما في هذه الأماكن من الرعايا والتجار ، ومن سائر أصناف الناس أجمعين ، والصادرين منها والواردين إليها من جميع أجناس الناس والمترددين إلى بلاد السلطان فلان وهي : الحميرة وأعمالها وقلاعها وبلادها وكل ما هو مختص بها ، والمملكة الأنطاكية وقلاعها وبلادها ، وجبلة واللاذقية وقلاعها وبلادها ، وحمص المحروسة وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها ، ومملكة حصن عكا وما هو منسوب إليه ، والمملكة الحموية وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها ، والمملكة الرحبية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها ، والمملكة البعلبكية وما هو مختص بها : من قلاعها وبلادها ، والمملكة الدمشقية وما هو مختص بها : من قلاعها وبلادها ورعاياها وممالكها ، والمملكة الشقيفية وما يختص بها : من قلاعها وبلادها ورعاياها ، والمملكة القدسية وما يختص بها والمملكة الحلبية وما يختص بها ، والمملكة الكركية والشوبكية وما يختص بها من القلاع والبلاد والرعايا ، والمملكة النابلسية والمملكة الصرخدية ، ومملكة الديار المصرية جميعها : بثغورها وحصونها وممالكها وبلادها وسواحلها وبرها وبحرها ورعاياها وما يختص بها ، والساكنين في جميع هذه الممالك المذكورة ما لم يذكر من ممالك السلطان وبلاده ، وما سيفتحه الله تعالى على يده ويد نوابه وغلمانه يكون داخلًا في هذه الهدنة المباركة ومنتظمًا في جملة شروطها ، ويكون جميع المترددين من هذه البلاد وإليها آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم ، من المملكة فلانة وغلمانها ، وجميع من هو في حكمها وطاعتها : برًا وبحرًا ، ليلًا ونهارًا ، ومن مراكبها وشوانيها . وكذلك رعية الملكة فلانة ، وغلمانها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السلطان ومن جميع

نوابه وغلمانه ومن هو تحت حكمه وطاعته: برًا وبحرًا، ليلًا ونهارًا: في جبلة واللاذقية وجميع بلاد السلطان ومن مراكبه وشوانيه.

وعلى أن لا يجدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجر به عادة، بل يجرون على العوائد المستمرة والقواعد المستقرة من الجهتين، وإن عُدِم لأحد من الجانبين مال أو أخِذت أخيذة وصحت في الجهة الأخرى ردت إن كانت موجودة، أو قيمتها إن كانت مفقودة، وإن خفي أمرها كانت المدة للكشف أربعين يومًا، فإن وجدت ردت، وإن لم توجد حلف وإلى تلك الولاية المدعى عليه، وحلّف ثلاثة نفر ممن يختارهم المدعي، وبرئت جبهته من تلك الدعوى، فإن أبى المدعي عليه عن اليمين حلف الوالي المدعي وأخذ ما يدعيه. وإن قتل أحد من الطرفين، خطأ كان أو عمدًا، كان على القاتل في جهته العوض عنه نظيره: فارس بفارس وبركيل ببركيل وراجل براجل وفلاح بفلاح. وإن هرب أحد من الجانبين إلى الجانب الآخر بمال رد من الجبهتين هو والمال لا يعتذر بعذر، وعلى أنه إن تاجر فرنجي صدر من بيروت إلى بلاد السلطان يكون داخلًا في هذه الهدنة، وإن عاد إلى غيرها لا يكون داخلًا في هذه الهدنة.

وعلى أن الملكة فلانة لا تمكن أحدًا من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها، وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء. وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين.

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان، وتقرر العمل بهذه الهدنة والإلتزام بعهودها والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين: لا ينقضها مرور زمان ولا يغير شروطها حين ولا أوان، ولا تنتقض بموت أحد من الجانبين. وعند انقضاء الهدنة تكون التجار آمنين من الجهتين أربعين يومًا، ولا يمنع أحد منهم

من العود إلى مستقره. وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الخط الشريف حجة فيها. والله الموفق. في تاريخ كذا وكذا.

* * *

رسالة الملك الظاهر بيبرس إلى بوهمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس وذلك بعد فتحه أنطاكية سنة ٦٦٦ هـ.

قد علم القومص الجليل المبجل، المعزز الهمام، الأسد الضرغام، بيمند فخر الأمة المسيحية، رئيس الطائفة الصليبية، كبير الأمة العيسوية، المنتقلة مخاطبته بأخذ أنطاكية منه من البرنسية إلى القوموصية، ألهمه الله رشده، وقرن بالخير قصده، وجعل النصيحة محفوظة عليه ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عقر الدار، وما شاهده بعد رحيلنا من إخراب العمائر وهدم الأعمار، وكيف كنست تلك الكنائس من بساط الأرض، ودارت الدوائر على كل دار، وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر، وكيف قتلت الرجال واستخدمت الأولاد وتملكت الحرائر، وكيف قطعت الأشجار ولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق إن شاء الله والستائر. وكيف نُهِبَت لك ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والمواشي، وكيف استغنى الفقير وتأهل العازب واستخدم الخديم وركب الماشي. هذا وأنت تنظر نظر المغشي عليه من الموت، وإذا سمعت صوتًا قلت فزعًا: عليّ بهذا الصوت!!!

وفتحناها بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحاماة عنها، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا، فما بقي منا إلا وعنده شيء منهم ومنها!!!

الى آخر الرسالة الساخرة... وقد مَرَّت بالكامل في الفصل السابق!!!

★ ★ ★

اقول... إن بيبرس كان جهاز الإعلام عنده جهازًا رائعًا!!!

ها هو يبعث الى ابن خلكان يبشره بانتصارات المسلمين... ليبث البشرى في أنحاء المملكة...

ثم ها هو يبعث الى ملك أنطاكية وطرابلس... يسخر منه ويبشره بضياع أنطاكية منه الى الأبد... وعليه ان يحمد الله أنه كان غائبًا عنها حين سقطت... وإلا لهلك مع الهالكين!!!

وفي حدود عصر بيبرس... يعتبر هذا فنًّا من الإعلام عظيمًا متقدمًا غاية التقدم...

وهل الإعلام إلّا رفع معنويات الشعب باذاعة الانتصارات عليه...

وإلّا تحطيم روح الأعداء المعنوية ببث هزائمهم اليهم؟!!

وهذا ما فعله بيبرس... فازداد حبّ الشعب له... والشعوب دائمًا تتجمع حول البطل الفاتح!!!

ملك التَّتار...

يقول للسلطان بيبرس...

أنت مملوك...

فكيف يصلح لك أن تخالف...

ملوك الأرض...؟!

تتلألأ عظمة بيبرس... أنه كان يعلم قَدْر نفسه...

فلا يأبه بسفاهة السفهاء... وإنما يضربهم في صميم كيانهم...

ويصفعهم الصفعة القاتلة... التي تجعل أحدهم يتلوّى فلا يستطيع بعدها قيامًا!!!

ذكروا:

أن السلطان الظاهر لما دخل دمشق... وصل إليه رسول أبغا... ملك التتار...

ومعه مكاتبات ومشافهات...

فمن جلة المشافهات:

«أنت مملوك... أُبِعْتَ بسيواس...

«فكيف يصلح لك أن تخالف ملوك الأرض؟!

- وفي رواية السلوك: «فكيف تشاقق الملوك ملوك الأرض»؟! -

«واعلم أنك لو صعدت إلى السماء... أو هبطت إلى الأرض... ما تخلصت منه...

فاعمل لنفسك على مصالحة السلطان أبغا»

فلم يلتفت الظاهر إلى هذا الكلام...

بل أجاب عنه بأتمّ جواب وقال:

«اعلموه أني وراءه بالمطالبة...

«ولا أزال حتى أنتزع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة... وسائر أقطار الأرض...!!!

اقول... هذا جانب خطير غاية الخطورة من شخصية بيبرس...

إنه يشعر أنه قويّ... وأنه صاحب حقّ...

وأنَّ هذا الأبغا... ملك التتار... السفيه المغرور... خير ما يعامل به ليس ردّ السفاهة بالسفاهة...

وإنما بغزوهم وإذلالهم... وتقتيلهم... وإلقاء جيفهم القذرة في حفرة النسيان...

وانتزاع البلاد الإسلامية التي نهبها أبوه هولاكو من قبل... وضمّها الى ديار الاسلام كما كانت!!!

إن بيبرس صاحب مذهب سياسي... وتخطيط عالمي عميق...

إنه يُخطِّط لاسترجاع ما ضاع من بلاد الاسلام ونهبه التتار... واسترجاع ما ضاع ونهبه الصليبيون!!!

يعني أنه يخطِّط لمحاربة التتار في الشرق... والصليبيين في الغرب!!!

إنه صاحب سياسة عالمية...

فليس عنده وقت يضيعه في الرد على مهاترات ذلك القبيح أبغا ملك التتار... ابن هولاكو!!!

وإنما الجواب هو السيف!!!

السلطان بيبرس...
يجوس خلال...
الملكة متنكرًا...؟!

نحن في السنة السابعة والستين بعد الستمائة...

تجديد البيعة لولده الملك السعيد؟!

استهلت هذه السنة والخليفة هو: الحاكم بأمر الله العباسيّ...
وسلطان البلاد المصرية والشامية والحلبية: الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداريّ الصالحيّ...
وقد جدَّد في صفر البيْعة لولده... الملك السعيد بركة خان محمد...
وأحضر الأمراء كلهم... والقضاة والأعيان...
وأركبه ومشى بين يديه...
وكتب له ابن لقمان تقليداً هائلًا بالملك من بعد أبيه...
وأن يحكم أيضًا في حياته...
وبنى مصطبةً بميدان العيد... بباب النصر... لرمي النشاب[1]...
وتوجه الى الجامع الظاهريّ الذي أنشأه بالحُسينيَّة... ورتَّب أوقافه... ونظر في أحواله...

(١) النشاب: سهام خشبية صغيرة...

سفراء دول العالم بباب السلطان؟!

وكان ببابه جماعة من الرُسُل من جهة الملوك...
فجهزهم... وسَفَّر صحبتهم رُسُله وهداياه...
وهم رُسُل منكوتمر...
ورسل (الملك شارل) أخي (لويس التاسع ملك فرنسا)...
ورسل العرب...
ورسل الأشكري[1] صاحب القسطنطينية...
اقول... ان ملوك العالم وأباطرته يخطبون وُدّ السلطان!!!

أبغا... ملك التتار... يعرض الصلح على السلطان؟!

ومنها: أنه ركب في جمادي الأولى بعساكره... والأمراء الأكابر بالديار المصرية...

وتوجه الى الشام... ونزل أرسوف لكثرة مراعيها...

ولما دخل دمشق اتفق مجيء رسل أبغا... ملك التتار... معهم مكاتبات ومشافهات...

ومعهم التكفور[2] صاحب سيس... فإنه كان قد سعى في الصلح بين السلطان وبين هلاون...

فسيَّر أبغا هؤلاء الرسل...

---

(١) هو الامبراطور ميخائيل الثامن باليو لوجس.

(٢) هو هيثوم بن قسطنطين بن باساك...

تهديد ووعيد؟!

وكان من جملة ما بعثه أبغا... رسالة تهديد وعرض بالصلح:

أنت مملوك بعت بسيواس فكيف يصلح لك أن تخالف ملوك الأرض؟!...

واعلم أنك لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت مني...

فاعمل لنفسك على مصالحة السلطان أبغا!!!

السلطان يهدد ملك التتار؟!

وكان مما قال السلطان في رده:

«قد أعطانا الله ملك أربعين مَلِكًا...

«وأما ما ذكره من مطلع الشمس الى مغربها أطاعوه... فأي شيء جرى على كتبغانوين؟!... وكيف كان دماره؟!...

وقال:

«اعلموه أني وراءه بالمطالبة... ولا أزال حتى أنتزع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض»!!!

اقول... إن أبغا ملك التتار يخاف بيبرس... ويلجأ الى استعراض القوة... ثم يعود ويعرض الصلح على السلطان!!!

ولكن هيهات هيهات... فإن بيبرس له بالمرصاد... حتى ينتزع من يده جميع البلاد التي انتهبها هولاكو!!!

هجمة تأديبية؟!

ومنها: أن السلطان توجَّه إلى صُور...

وذلك أنه لما خرج من دمشق بعساكره متوجهًا إلى الديار المصرية...

جاءته امرأة في أثناء الطريق عند خَرْبَة اللصوص...

فذكرت أن ابنها دخل إلى صور...

وأن صاحبها الفرنجي[1] غدر به وقتله... وأخذ ماله!!!

فركب السلطان وشنَّ الغارة على مدينة صور...

وأخذ منها شيئًا كثيرًا... وقتل خَلْقًا...

فأرسل إليه مالكها: ما سبب هذا؟!...

فذكر له غدره ومكره بالتجار!!!

اقول... إن بيبرس هنا يلقن أمير صور درسًا... ويؤدبه تأديبًا...

فليست المسألة أن الرجل غدر برجل مسلم... ولكن المسألة أن الاعتداء على مسلم واحد هو اعتداء على جميع المسلمين!!!

توجّه السلطان إلى مصر خفية؟!

قال بيبرس في تاريخه: ولما فرغ السلطان من تجهيز الرسل وإعادتهم، ودَّع الأمراء الذين كانوا صحبته وأعطاهم دستورًا ليتوجهوا إلى مصر، وخرج من دمشق وليس معه منهم غير: الأتابك، والمحمَّدي، والأيدمري، وابن أطلس خان، وأقوش الرومي، وتوجه إلى القلاع فبدأ بالصُبَيْبَة، ومنها إلى الشقيف،

(١) هو Philip de Mont Fort.

وصفد، فبلغته وفاة الأمير عز الدين الحلي بمصر، فوصل إلى خَرْبة اللصوص والعسكر قد خيّم بها، فخطر له التوجُّه إلى الديار المصرية، فكتب إلى النُوَّاب بالشام بمكاتبة الملك السعيد بما يتجدَّد من المهات والاعتماد على ما يصدر عنه من الأجوبة والمكاتبات، ثم أظهر أنه قد تشوش جسْمُه، وصار البريدُ إذا جاءَ يُقرأ عليه وتخرج علائم على دُرُوج، فيكتب عنها الأجوبة، واستقر هذا الترتيب أيامًا، وأُشِيعَ ضَعْفُه، وأحضِر الحكماء إلى الدهليز، وشاهدَه الأمراء مُنجمِعًا متألِّمًا، وجُهِّز الأيدمريّ وجرْد بك على البريد إلى جهة حلب في ظاهر الأمر، وأوصاهما بما عليه في باطن السرّ، وخرج ليلة السبت سادس عشر شعبان من الدهليز متنكرًا، حاملًا بقجة قماش في زيّ أحد البابيّة[1]، وركب وصحبته الأميران المذكوران، وواحد من البريديَّة، وواحد من السلحداريَّة، وأربعة جنائب، وساق إلى جهة مصر، وجنيبه على يده، ومرَّ بمراكز البريد متنكِّرًا لا يعرفه أحد من الوُلاة، فوصل إلى القلعة ليلة الثلاثاء تاسع عشر الشهر[2]، فأوقفهم الحُرَّاس حتى شاوَرُوا الواليَ، ونزلوا في باب الإصطبل، وكان قد رتب مع زمام الآدُرْ، أن يبيت خلْفَ باب السِّرّ، فدقَّ الباب وذكر لزمام الدُّور علائم كان يَعرِفُها، ففتح له، وأحضر رفقته إلى باب السرِّ، وأقام يوم الثلاثاء والأربعاء وليلة الخميس لا يعلم أحد، وهو يشاهد الأمراء في الموكب من شُبّاك على سوق الخيل، فلما كانت بكرة الخميس قدم الفرس ليركب الملك السعيد على عادته، وقدم للسلطان فرس فركب على غفلة، والوقت مغلس[3]، فأنكر الأمراء الذين في الموكب الحال،

(١) البابية: جمع بابا: لقب عام لجميع رجال الطست خاناه، ممن يتعاطى الغسل والصقل وغير ذلك، وأطلق عليهم هذا اللقب لأنهم يقومون بترفيه مخدومهم من تنظيف ملابسه وتحسين هيئته فهم أشبه بالأب الشفيق.

(٢) اي قلعة الجبل بالقاهرة.

(٣) ظلمة آخر الليل.

فلما تحققوا السلطان قبلوا الأرض بين يديه، وعاد من الموكب إلى القلعة، فأقام بها إلى يوم السبت، ولعب الأكرة بالميدان وعاد إلى القلعة، ولما كانت ليلة الاثنين الخامس والعشرين من شعبان سافر عائدًا إلى البريد، ولما وصل إلى الدهليز أخذ على يده جراب البريد وفي كتفه فوطة، وتوجَّه راجلًا ودخل من جهة الحرَّاس، فمانعه حارس، فأمسك طوقه، فانجذب منه، وعبر من باب سر الدهليز، وركب عصر يوم الجمعة السابع والعشرين من شعبان، وحضر الأمراءُ الخِدمة يهنئون بالعافية، وضربت البشائر لذلك، واهتم بالدهليز للحجاز الشريف، وهذا الذي صدر منه جراءة عظيمة وإقدامٌ هائل.

السلطان يحج متنكرًا؟!

ومنها: توجه السلطان إلى الحجاز الشريف في هذه السنة، ولما عزم على ذلك وهو في المخيم أنفق في العسكر، وعين منهم جماعة يتوجهون صحبته، وجهز بقية العسكر صحبة الأمير شمس الدين آقسنقر استادارا إلى دمشق، فأقاموا بها.

وتوجَّه السلطان إلى الكرك بصورة صيد، ولم يجسر احد يتفوَّه بأنه متوجه إلى الحجاز حتى أن شخصًا من الحجاب يسمى جمال الدين بن الداية قال: أشتهي أتوجّه صحبة السلطان إلى الحجاز، فأمر بقطع لسانه، ورحل من الغوّار يوم الخامس والعشرين من شوال، فوصل الكرك مستهلّ ذي القعدة، وتوجَّه في سادسه إلى الشوبك، ورحل منها في حادي عشرة، فوصل المدينة النبويّة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام في الخامس والعشرين من ذي القعدة، وأحرم، وقدم مكة شرّفها الله تعالى في خامس ذي الحجة، وبقي

كأحد الناس لا يحجبه أحد، وغسل الكعبة بيده[1]، وحمل الماء في القرب على كتفه، وغسل البيت، وجلس على باب الكعبة الشريفة، فأخذ بأيدي الناس، وسبَّل البيت الشريف للناس، وكتب إلى صاحب اليمن كتابًا يقول فيه: سطرتها من مكة، وقد أخذت طريقها في سبع عشرة خطوة، يعني بالخطوة المنزلة، وقضى حجه، وحلق ونحر، ورتب شمس الدين مروان نائبًا بمكة، وأحسن إلى أميرها، وإلى صاحب ينبع، وخُلَيْص وزعماء الحجاز، وعاد، فكان خروجه من مكة ثالث عشر ذي الحجة، ووصوله إلى المدينة في العشرين منه، ووصل إلى الكرك سلخ ذي الحجة، ولم يعلم به أحد إلى أن وصل إلى قبر جعفر الطيار[2]، رضي الله عنه، ودخل الكرك لابسًا عباءة، راكبًا هجينًا، فبات بها ليلة، وأصبح متوجِّهًا إلى الشام جريدة.

ويجوس خلال الشام متنكرًا ؟!

وقال بيبرس: في مستهل المحرم من سنة ثمان وستين وستمائة عاد السلطان من الكرك، وتوجه إلى دمشق جريدة، وحضر إلى الميدان بغتة، وتوجه من نهاره إلى حلب فدخلها والأمراء في الموكب، فما عرفه أحد، وبقي بينهم ساعةً حتى عرفوه، ونزل بدار نائب السلطنة، وشاهد القلعة، وعاد إلى دمشق، فوصلها في ثالث عشر المحرم من سنة ثمان وستين، وتوجه إلى القدس الشريف والخليل فزارهما، وكان العسكر قد سبقه صحبة الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقاني إلى تلّ العجول، فوصل إلى المنزلة المذكورة، فصلّى الجمعة في الكرك، والجمعة الثانية في حلب، والجمعة الثالثة في دمشق، ورحل من تلّ

(١) «فغسل الكعبة بيده بماء الورد» في الجوهر الثمين.

(٢) «قبر جعفر الطيار بمؤتة».

العجول فدخل قلعة القاهرة في ثالث صفر من سنة ثمان وستين، وفي ثامن عشر توجه إلى الإسكندرية، وفي طريقه دخل البرية متصيّداً، وضرب حلقًا على الكحيليات فصار في كل حلقة منها ما يقارب خمسمائة غزال وأقلّ وأكثر، ومن النعام وبقر الوحش كثير، فكان كل من أحضر غزالًا أُعطِيَ بغلطاقًا[1]، ومن ضرب نعامًا أو بقرًا أعطي فرسًا، ففرق من الخيل والخلع شيئًا كثيرًا، ووصل إلى مكان يعرف بقصر فارس، وعاد إلى الإسكندرية، فأقام أيامًا، وفرق تعابي القماش على الأمراء، ووصلهم بالهبات، وعمهم بالصلات.

السلطان يتنقل في كل مكان؟!

وقال ابن كثير: لما وصل السلطان إلى مكة تصدق على المجاورين بها، ثم وقف بعرفة، وطاف للإفاضة، وفتحت له الكعبة فغسلها بماء الورد وطيبها بيده، ثم وقف بباب الكعبة يتناول أيدي الناس ليدخلوا الكعبة وهو بينهم كأحدهم، ثم رجع فرمى الجمرات، ثم تعجل النفر فعاد على المدينة النبويّة فزار القبر الشريف مرة ثانية.

ثم ساق إلى الكرك فدخلها في التاسع والعشرين من ذي الحجة وأرسل المُبَشِّر إلى دمشق بقدومه سالمًا، فخرج الأمير جمال الدين أقوش النجيبي ليتلقى البشير في ثاني المحرم؛ فإذا بالسلطان الملك الظاهر بنفسه يسير في الميدان، فتعجب الناس من سرعة مسيره وصَبْرِه وجلِده، ثم ساق حتى دخل حلب ليتفقد أحوالها، ثم عاد إلى حماة، ثم رجع إلى دمشق، ثم عاد إلى مصر.

---

(١) البغلطاق: قباء بلا أكمام، أو بأكمام قصيرة جدًا.

فدخلها يوم الثلاثاء ثالث صفر في سنة ثمان وستين وستمائة.

وقال في ذلك القاضي محي الدين بن عبد الظاهر أبياتًا منها:

حتى أتاها ظاهرٌ ملكٌ إذا ... شاء اختفى فأموره تتلبس
بَيْنا تراه في الحجاز إذا به ... في الشام للحج الشريف يُقدِّسُ
وتراهُ في حلب يُدبِّرُ أمرَها ... وتراه في مصر يَذُب ويَحْرُسُ
ويلوحُ في حج عليه عباءةٌ ... ويلوح في عزٍّ وعليه أطلَسُ
لا يزال للدنيا يُسوس أمورها ... ويُشَيِّدُ الأخرى بها ويُؤَسِّسُ

★ ★ ★

ماذا نستنبط من أفاعيل بيبرس في عام ٦٦٧ هجرية؟!

نستنبط أن بيبرس كان يبحث عن الأعمال التي تقربه الى الله...

فهو يلجأ الى التنكر حتى لا يعرفه أحد...

ثم هو يذهب الى مصر متنكرًا!!!

ثم يحج متنكرًا!!!

ثم يتفقد الشام متنكرًا!!!

فما معنى هذا؟!!

معناه ببساطة شديدة... أنه قد سئم زخارف المُلك وأبهة السلطان...

وأنه يريد أن يعيش فترة من حياته ينعم فيها بنعيم التجرد من الزينة... ومواكب المنافقين!!!

فكان منه هذا التصرف العجيب... حيث عاش شهورًا... متنقلًا في انحاء مملكته... متنكرًا!!!

تواضعًا لله الذي آتاه مُلْكًا كبيرًا... وقد كان مملوكًا حقيرًا!!!

« وفتحت له الكعبة... فغسلها بماء الورد... وطيبها بيده!!!

« ثم وقف بباب الكعبة... يتناول أيدي الناس... ليدخلوا الكعبة...

« وهو بينهم كأحدهم »!!!

ثم ماذا ؟!

ثم مظهر العزَّة المتلألئة من بيبرس وهو يردّ على وقاحة ملك التتار... أبغا!!!

يقول له ملك التتار: أنت مملوك... فكيف يصلح لك أن تخالف ملوك الأرض؟!

إنَّ هذا الملك يُذكِّر بيبرس بأصله... ليحطِّم من كبريائه وعزَّته!!!

ولكن بيبرس... الأسد الضاري... لا يزعجه عواء الثعالب وإن ارتفع عواؤها...

فيقول في تعزُّز وثقة:

« لا أزال حتى أنتزع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض »!!!

اي اعلم أيها الأبغا... أني سوف أطاردك أينما كنت... وأُصفّي مملكتك عن آخرها... لتعود صعلوكًا... حيث لا ينبغي لك أن تكون مَلِكًا!!!

أحداث . . .

السنة الثامنة والستين . . .

بعد الستمائة . . . ؟!

استهلت هذه السنة، والخليفة هو: الحاكم بأمر الله العباسيّ، وهو متوطن بالقاهرة.

وسلطان البلاد المصرية والشاميّة: الملك الظاهر بيبرس الصالحي، وكان قد وصل إلى دمشق من الحجاز الشريف في ثاني محرم هذه السنة على الهُجْن، ثم راح إلى حلب فدخلها في سادس الشهر، ثم عاد إلى دمشق، ثم سار إلى مصر فدخلها في ثالث صفر من هذه السنة.

خروج السُّلطان الملك الظاهر إلى جهة الشّام؟!

ولما دخل السلطان الديار المصريّة في ثالث صفر من هذه السنة، بعد عوده من الشام، جاءته الأخبار بحركة التتار، وأنهم تواعدوا مع الفرنج الساحليّة، وأغاروا على الساجُور قريبًا من حلب، واستاقوا مواشي العربان، فجهز للخروج أيضًا ولكنه أراح العسكر مُدَيدةً، ثم خرج جريدة في ليلة الاثنين الحادي والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة، ووصل إلى غزة ثم منها إلى دمشق، فانهزم التتار، وكان مقدمهم صَمْغار.

وقال ابن كثير: وفي تاسع عشر شهر ربيع الآخر منها وصل السلطان

الملك الظاهر بيبرس إلى دمشق في طائفة من جيشه، وقد لقوا في الطريق مشقَّة كبيرة من البَرد والوحل، وبلغه أن ابن أخت زيتون خرج من عكّا يتقصّد جيش المسلمين، فركبَ إليه مسرعا، فوجده قريبًا من عكّا، فأسره وأسر جماعة من أصحابه، وقتل آخرين.

وقال بيبرس: وفيها أغار السلطان على مرج يعقوب وما حول عكا، وأسر من محتشمي الفرنج جماعةً، وقتل نائب فرنسيس بعكا، ولم يعدم من عسكر الإسلام إلا الأمير فخر الدين الطُّوَيْنَا الفائزي، وعاد السلطان ورءوس القتلى قدامه تحملها أُساراهم على الرماح إلى صفد، وتوجه إلى دمشق، ثم إلى حماة، ثم إلى كفرطاب، وتوجَّه إلى حصن الأكراد في مائتي فارس، فخرج إليه جماعة من الفرنج ملبسين، فحمل عليهم السلطان، فكسرهم، وقتل منهم جماعة.

استيلاؤه على حصُون الإسماعيليَّة؟!

وكان السلطان - رحمه الله - قد أبطل رسوم الإسماعيلية التي كانت تُجْبى إليهم، واستأدى الحقوق من مراكبهم، وكسر شوكتهم ومضايقتهم، وحضر إليه صارم الدين مبارك بن الرضي صاحبُ العُلَيْقة، وقلده السلطان بلاد الدعوة، وعزل نجم الدين الشعراني الملقب بالصاحب وولده منها لأنه لم يحضر إلى الخدمة، ونعت صارم الدين بالصاحب، وأرسل معه عسكرًا إلى مِصْياف، فتسلَّمها في العشر الأوسط من رجب من هذه السنة، وهي كرسيُّ مملكتهم، وهي مقرُّ الفِدَاوِيَّة، فعند ذلك حضر الصاحب نجم الدين إلى الأبواب السلطانية، وهو شيخ كبير جدًّا، فرحمه السلطان ورَّق له، وولاَّه النيابة شريكًا لابن الرضي، فإنه صهره، وقرر عليه حمل مائة وعشرين ألف درهم

في كل سنة، وعاد السلطان من جهة حصن الأكراد، فدخل دمشق في الثامن والعشرين من رجب.

عَوْد السلطان إلى الديار المصريَّة؟!

ولما دخل السلطان دمشق في التاريخ المذكور بلغه أن الفرنج أخذت من ميناء الإسكندرية مَركبين، فخرج سريعًا من دمشق إلى الديار المصريَّة، وعبر في طريقه على عسقلان، وعفَّى آثارها، ورمى حجارتها في مينائها، ثم وصل إلى مصر ودخل قلعتها، ثم استفاضت الأخبار بقصد الفرنج بلاد الشام، وجهَّز السلطان العساكر المنصورة لقتالهم، وهو مع ذلك مهتمٌّ بمدينة الإسكندريَّة، وقد حصَّنها، وعمل جسورة إليها إن دهمها العدوّ.

بيبرس يستعد للقتال؟!

وقال بيبرس في تاريخه: بلغ السلطان أن الفرنسيس، «هو»[1] لُوَيْس بن لُوَيْس، والانكتار، وملك اسْكَوْسنا، وملك نُورك وهي بلاد السناقر، والبرشَنُوني واسمه رِيْدراكون[2]، وغيرهم من ملوك الفرنج، اجتمعوا على صقليَّة، وشرعوا في تجهيز المراكب، ولم يُعْلَم مقصدهم، فاهتمَّ السلطان بالثغور والشواني، وحفظ السواحل والمواني، وعمَّر الجسور إلى دمياط، وأنشأ القناطر،

---

(١) والمقصود لويس التاسع ملك فرنسا وحملته على تونس.

(٢) المقصود جرجس الأول ملك أراجون Roi d'Aragon.

وكان قصد الفرنج بلد تُونُس، فساروا إليها ونزلوا على المعلّقة، فاجتمع الموحدون والعُربان وغيرهم من المسلمين... فقاتلهم الفرنج وضايقوهم... فأراد الله هلاك الملك الفرنسيس... فلما مات رحلوا طالبين بلادهم!!!

* * *

اقول... نلتقط من أحداث هذه السنة... ظاهرة سرعة مواجهة الأحداث... عند السلطان بيبرس!!!

لما دخل السلطان الديار المصرية... جاءته الأخبار بحركة التتار... وأنهم تواعدوا مع الفرنج الساحلية... وأغاروا على الساجور قريبًا من حلب!!!

إن الجبهة الشرقية... التتار...

تواعدوا مع الجبهة الغربية... الفرنج الساحلية... بساحل الشام...

انهم يريدون ان يبغتوا بيبرس فجأة وهو عنهم بعيد في مصر... وأغاروا على الساجور قريبًا من حلب... هناك في اقصى الشمال!!!

فماذا كان من الأسد الضاري؟!

فجهز للخروج!!!

فورا أمر بتحرك الجيش وهو على رأسه...

إنه لم يسترح بعد من وعثاء السفر... ولكن بيبرس اذا غضب زأر... وإذا زأر تحرّك وحرّك معه الجميع!!!

هذه الصفة... صفة سرعة مواجهة الأحداث... تعتبر من ألزم لوازم القائد...

لأنَّ الأحداث العالمية سريعة التغير... فإذا لم يكن رجل الدولة مستعدًا في أي وقت لمواجهتها والتصدي لها... أطاحت به وابتلعته في دوّاماتها!!!

وقد كان بيبرس رجل دولة من الطراز الأرفع...

يعيش حياته... إمَّا مُغيرا بغتة على عدوه...

وإمَّا مسارعًا الى أعدائه ليفسد عليهم تدبيرهم قبل أن يفيقوا من هول المفاجأة!!!

وكانت هذه الصفة من بيبرس تثير غيظ أعدائه اثارة عنيفة...

وإليك هذه الرسالة التي تكشف مدى غيظ الملوك من مفاجآت بيبرس:

رسالة آباقا خان للظاهر بيبرس؟!

غزا بيبرس بلاد الروم... وانتصر انتصارًا عظيمًا على المغول...

وقتل فرسانهم وقوادهم...

فغضب من ذلك كل الغضب آباقا خان... الذي أصبح ملكًا على المغول بعد وفاة هولاكو وبركة...

وأرسل إلى بيبرس يقول:

« إنكم تنقضون فجأة كاللصوص!!!

« وتطاردون فرساننا وطلائعنا وتقتلون بعضهم...

« فإذا ما بلغتنا الأخبار... وتحركنا لصدكم تفرون كاللصوص!!!

« فإذا كنتم تريدون لقاءنا وقتالنا... فادخلوا الميدان كالرجال... وثبتوا الأقدام:

تعـال لكـن تـرى سنـاني وتنظـر إلى التـواء عنـاني

فإن كنت جبلًا فستنهار من أساسك

وإن كنت حجرًا فلن تستقر في مكانك

فأين شاهدت المقاتلين... يا من لم يسمع عواء الثعالب؟!

« وإن لم تأت فإن جيوشنا مستعدة لقتالك في طليعة الشتاء...

« وإذا امتدت نار غضبنا إلى بلاد الشام فإنها بلا ريب سوف تأتي على كل ما لكم من أخضر ويابس!!!

« لأن الله الأزلي قد وهب جنكيزخان وذريته بلاد العالم!!!

« وأدخل السراة المتمردين في ربقة طاعتنا!!!

« وكل من يخالف أهل الاقبال تكون مخالفته دليلًا على الإدبار »!!!

هذه هي رسالة ملك التتار... وقد جعل يتلوى من الغيظ من مباغتة بيبرس لجيوشه... يقتل ويأسر ولا يستطيعون له مَنْعا!!!

وقد بلغ من غباء هذا الملك أنه يريد من بيبرس أن يُعْلِمه مقدمًا بخطَّته!!!

ولكن بيبرس هو بيبرس...

ينقض كالأسد الضاري دون سابق انذار!!!

ثم ماذا؟!

ثم تتلألأ هذه الصفة... صفة سرعة مواجهة الأحداث... وسرعة مفاجأة العدو بغتة قبل أن يفيق... اذا تأملت أفاعيل البطل... حين وصل الى غزة ومنها الى دمشق... فانهزم التتار رُعْبًا!!!

بلغ السلطان وهو في طريقه الى دمشق أن قائد الفرنج خرج من عكا يتقصد جيش المسلمين...

فماذا كان من بيبرس بمجرد سماعه أن هذا الكونت قد تحرَّك؟!

« فركب إليه سريعًا!!!

« فوجده قريبًا من عكا!!!

« فأسره... وأسر جماعة من أصحابه!!!

« وقتل آخرين »!!!

هذا مثال عن هذه الصفة من بيبرس...

فورًا ركبَ إليه سريعًا... وفورًا وجده... وفورًا أسره وأسر أصحابه... وفورًا قتل آخرين!!!

وهكذا ينبغي أن يكون رجل الدولة!!!

ولن يصلح أبدًا أن يكون رجل الدولة... رجلا بليدًا... بطيء الانفعال... تدهمه الأحداث وهو يتثاءب في غباء!!!

ثم ماذا عن بيبرس... وسرعة الحركة؟!!

«أغار السلطان على مرج يعقوب وما حول عكا... وأسر من محتشمي الفرنج جماعةً... وقتل نائب فرنسيس بعكا!!!

«وعاد السلطان... ورءوس القتلى قدامه!!!

«تحملها أساراهم على الرماح إلى صفد!!!

«وتوجه الى دمشق!!!

«ثم إلى حماة!!!

«ثم الى كفرطاب!!!

«وتوجَّه الى حصن الأكراد في مائتي فارس... فخرج إليه جماعة من الفرنج ملبسين...

«فحمل عليهم السلطان... فكسرهم... وقتل منهم جماعة»!!!

هكذا بيبرس... لا تستطيع أن تلاحقه في سرعة تحركه... ليسبق الأحداث... ويُرعب أعداءه... ويُفَزِّعهم ويزلزلهم زلزالًا شديدًا!!!

السلطان الفاتح . . .

يواصل فتوحاته . . .

في السنة التاسعة . . .

والستين بعد الستمائة . . . ؟!

استهلت هذه السنة، والخليفة هو: الحاكم بأمر الله العباسيّ.

وسلطان الديار المصرية والشاميّة: الملك الظاهر بيبرس الصالحي النجمي، ففي مستهل صفر منها ركب وتوجَّه إلى الشام، ومعه طائفة من العسكر، وجاز على عسقلان، وهدم ما بقي من سورها، مما كان أهمل، ووجد فيما هدم كوزين فيهما ألف دينار، ففرقهما على الأمراء.

وجاءت البشارة هناك بأن منكوتمر كسر جيش أبغا، ففرح بذلك، ثم عاد إلى القاهرة مؤيّدًا منصورًا.

سَفْرة الظّاهر ثاني مرّة؟!

وفيها: توجه السلطان الظاهر إلى الشام، واستصحب معه ولده الملك السعيد، والوزير بهاء الدين بن حنّا، وجمهور الجيش، ودخل دمشق يوم الخميس ثامن رجب في أُبّهَةٍ عظيمة، وابنه الملك السعيد قُدّامه، وكان يومًا مشهودًا، وفي طريقه شنَّ الإغارة على طرابلس، واتصلت غارته بصافيتا، وجرَّد فرقةً من العسكر صحبة الأمير سيف الدين قلاون الألفي، والأمير فخر الدين بيليك الخزندار الظاهريّ، وسيَّر صحبتها الملك السعيد ولده، فأغاروا على ناحية المرقب، فعند عود السلطان من الغارة على طرابلس عاد

الملك السعيد ومن معه من الغارة على جهة المرقب، وتوافوا ونزلوا على حصن الأكراد في تاسع شهر شعبان من هذه السنة.

فتح حصن الأكراد ؟!

ونزل السلطان عَلَيْه في تاسع الشهر المذكور، وجدّ في حصاره وقتاله، فلما كان العشرون منه أُخِذَت أربـاضـه، وزحفـت العسـاكـر، فطلبـوا القلعـة وتسلموها، وطلع الفرنج إلى القُلّة، ثم طلبوا الأمان، فأجابهم إليه، فخرجوا وجُهِّزوا إلى بلادهم في الرابع والعشرين منه، وتسلم السلطان الحصنَ، وكتب إلى مقدَّم الإسبتار صاحب الحصن كتابًا نسخته:

هذه المكاتبة إلى أفريرأوك[1]، جعله الله ممن لا يَعترض على القَدَر، ولا يُعَانِد من سُخِّر لجيشه النصر والظفر، ولا يعتقد أنه يُنجي من أمر الله الحذر، ولا يَحْمي منه محجور البناء، ولا مَبْني الحجر، تُعلمه بما سَهّل الله من فتح حصن الأكراد الذي حصنته وبنيته وخلّيْتَه، وكنت الموفق لو أخْلَيْته، واتكلت في حفظه على إخوتك فما نفعوك، وضيَّعتهم بالإقامة فيه فضيَّعُوه، وضيّعوك، وما كانت هذه العساكر تنزل على حصن ويَبقى، أو تخدم سعيدًا ويَشقى.

وقال ابن كثير: وكان الذي حاصره ابن السلطان الملك السعيد، فأطلق السلطان أهلَه ومَنَّ عليهم، وأجلاهم إلى طرابلس، وتسلَّم القلعة بعد عشرة أيام من الفتح فأخلاها أيضًا، وجعل كنيسة البلد جامعًا، وأقام فيه الجمعة، وولى فيها نائبًا وقاضيًا، وأمر بعمارة البلد.

---

(١) وهو Hugh Revel.

أمير فرسان الداوية يستسلم؟!

وبعث إليه صاحب أنطرسوس واسمه كندور، ومقدم[1] بيت الإسبتار وسألا الصلح، فأجابهم السلطان إلى الصلح على أنطرسوس والمرقب خاصةً خارجًا عن صافيتا وبلادها، واسترجع منهم بلدة وأعمالها، وما أخذوه في الأيام الناصريَّة، وعلى أن جميع ما لهم من الحقوق والمناصفات على بلاد الإسلام يتركونه، وعلى أن تكون بلاد المرقب ووجوه أمواله مناصفة بين السلطان وبين الإسبتار، وعلى أن لا تجدد عمارة المرقب، وحلف لهم على ذلك، وأخلوا قرفيص، وأحرقوا ما لم يمكن حمله.

محاولة فاشلة لفتح قبرص؟!

وقال ابن كثير: ولما فتح الملك السعيد بن الظاهر حصن الأكراد جعل كنيستها جامعًا وأقام فيه الجمعة، وولَّى السلطان فيه نائبًا وقاضيًا، وأمر بعمارة البلد، ثم أنه بلغ السلطان وهو مخيِّم على حصن الأكراد أن صاحب جزيرة قبرس قد ركب بجيشه إلى عكًّا لينصر أهلها خوفًا عليهم من الملك الظاهر، فأراد السلطان أن يغتنم هذه الفرصة، فبعث جيشًا كثيفًا في سبعة عشر شينيًا ليأخذوا جزيرة قبرس في غيبة صاحبها عنها، فسارت المراكب مسرعةً، فلما قاربت الجزيرة جاءتها ريح قاصف، وصادفت بعضها بعضًا، فتحطم منها أحد عشر مركبًا بإذن الله عز وجل، فغرق خلق وأُسرَ [الفرنج] من الصُّناع والرجال قريب من ألف وثمانمائة إنسان فـ﴿إنّا لله وإنا إليه راجعون﴾[2].

---

(١) والمعروف أن صاحب أنطرطوس هو مقدم الداوية.

(٢) سورة البقرة، آية ١٥٦.

فتح القُرين؟!

وقال بيبرس في تاريخه: هذه الطّامة التي حصلت على المسلمين بعد فتح القُرين، فقال: خرج السلطان من دمشق بعد فراغه من الجهات التي ذكرناها في العشر الآخر من شوال، وسار إلى القرين ونازله في ثاني ذي القعدة، وأخذت باشورته[1]، وسأل مَنْ فيه الأمان، فكتب لهم أمانًا، وتقرَّر خروجهم وتوجّههم حيث شاءوا، وأنهم لا يستصحبون مالا ولا سلاحًا، وتسلَّم السلطان الحصن وأمر بهدم قلعته، ثم سار عنه ونزل اللجون، وتقدمت مراسمه إلى النواب بالديار المصريّة وتجهيز الشواني وتسفيرها إلى قبرس، فجهزّها النواب. وسفَّرُوها صحبة مقدم البحر ورؤساء الخلافة، فلما وصلت إلى مَرْسَى النَمْسُون[2] تحت قبرس جنّها الليل، وتقدَّم الشيني الأوَّل داخلًا على أنه يقصد الميناء، فصادف الشعاب في الظلماء، فانكسر، وتبعه الشواني واحدًا فواحدًا، ولم تعلم بما أصابه، فانكسروا في دجى الليل جميعًا، وأَسَرهم أهل قبرس، وكان ابن حسُّون المقدّم قد أشار برأي، تطيَّر الناس منه، وهي أن تطلى الشواني بالقار، ويعمل عليها الصلبان لتشتبه على الفرنج بشوانيهم، فيتمكن من موانيهم، فاقتضى تغيير شعارها بما أراد الله من انكسارها.

السلطان يرد على شماتة أمير قبرص؟!

وورد كتاب صاحب قبرس إلى السلطان يخبر بأن شواني مصر وصلت إلى قبرس، وكسرها الريح وأخذتها، وهي أحد عشر شينيا، فأمر السلطان بأن

(١) الباشورة: سد من التراب يمنع وصول الخيالة أو غيرهم إلى موضع المحاربين.

(٢) هو ميناء ليماسول Limassol.

يُكتب جوابه، فكُتب إليه[1] هذه المكاتبة:

إلى حضرة الملك أُوكْ دلزنيال، جعله الله ممن يوفي الحق لأهله، ولا يفتخر بنصر إلا إذا أتي قبله أو بعده بخير منه أو مثله، نُعلمه أن الله إذا أسْعَدَ إنسانًا دفع عنه الكثير من قضائه باليَسير، وأحسن له التدبير فيما جرت به المقادير، وقد كنت عرفتنا أن الهواء كسر عدةً من شوانينا وصار بذلك يتبجح، وبه يفرح، ونحن الآن نبشره بفتح القرين، وأين البشارة بتملك القُرين من البشارة بما كفى الله ملكنا من العين، وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، الاستيلاء على الحصينة هو العجب، وقد قال وقلنا، وعلم الله إن قولنا هو الصحيح، واتكل واتكلنا، وليس من اتكل على الله وسيفه كمن اتكل على الريح، وما النصرُ بالهواء مليح، إنما النصرُ بالسيف هو المليح، ونحنُ نُنْشئ في يوم واحد عدّة قطائع، ولا يُنْشأ لكم من حصن قطعة، ونجهّز مائة قلع ولا يُجهّز لكم في مائة سنة قلعة، وما كلٌّ من أعْطَي مقذافًا قذّف، وما كُل من أُعطي سيفًا أحسن الضرب به أو عرف، وإنَ عُدمت من بحرية المراكب آحادٌ فعندنا من بحرية المراكب ألوف، وأين الذين يطعنون بالمقاديف في صدر البحر من الذين يطعنون بالزماح في صدر الصفوف، وأنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول، وفرق بين مَنْ يُجْريها كالبحار ومَنْ تقفُ به في الوحول، وفرقٌ بين مَنْ يتصيَّد على الصقور من الخيل العِراب، وبين مَنْ إذا افتخر قال: تصيدت بغراب، فلئن كنتم أخذتم لنا قرية مكسورة فكم أخذنا لكم قرية معمورة، وإن استوليتم على سكان فكم أخلينا بلادكم من سكان، وقد كسبت وكسبنا، فترى أيُّنا أغنم، ولو أن في الملك سكوتًا كان الواجب عليه أن سكت وما تكلم.

(١) هو «هيو دي لوزنيان Hugh de lusignan».

فتح عكّار؟!

نزل السلطان على عكار[1] في سابع عشر رمضان المعظم ومهد الطرقات لطلوع المجانيق، واشتدَّ أهلُه في المناضلة ورمْي الحجارة والمجانيق، واستشهد عليه ركن الدين منكورس الدواداريّ، وكان يصلي في خيمته، فجاءه حجرٌ فمات من وقته، وشدَّدت العساكر الحصار، وأخذوا النقوب تحت الأسوار، فلما رأوا أنهم عاجزون عن مقابلتهم طلبوا الأمان ورفعت عليه السناجق، وخرجت أهله في سلخ الشهر، فجُهّزوا إلى مَأمنهم: وعَيَّد السلطان بها عيد الفطر، ثم رحل إلى مخيّمه بالمرج، فقال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر في ذلك:

يا مليك الأرض بُشرا ك فقد نلت الإرادة
إن عكار يقينا هي عكّا وزيادة

وكان هذا الحصن شديد الضرر على المسلمين، وهي في وادٍ بين جبال.

فتح طرابلس؟!

ثم إن السلطان نفق في العساكر بنفقة كاملة، ثم بعد النفقة سار طالبًا مدينة طرابلس، وقد أمر العساكر فلبسوا الجواشن[2] والخُوَذ[3]، وساروا بأُهْبَة الحرب، وأحاطوا بطرابلس إحاطة الهالات بالأقمار، والأكمام بالأثمار، فلما عاين بُرنس طرابلس قدوم العساكر وهجومهم كالسيل الهامر أرسل يَسأل

(١) عكار: حصن على جبل عكار شمالي طرابلس.

(٢) جوشن=جواشن: الدروع.

(٣) الخوذة: تلبس على الرأس، وتصنع من الجلد أو الحديد، وتحلى بالذهب أو الفضة.

الصلح، فأجابه السلطان إليه.

وقال ابن كثير: أرسل إليه صاحبها يقول: ما مرادك أيها السلطان في هذه الأرض؟ فقال: جئت لأرعى زرعكم وأخرّب بلادكم، ثم أعود إلى حصاركم في العام الآتي إن شاء الله تعالى، فأرسل يَستعطفه ويطلب منه المصالحة ووضع الحرب بينهم عشر سنين، فأجابه إلى ذلك.

الحرب خُدعة؟!

وأرسل إليه الإسماعيلية يَستعطفونه على والدهم، وكان مسجونًا بالقاهرة، فقال: سلموا إلى العُلَيْقة وانزلوا فخذوا إقطاعات بالقاهرة وتسلّموا آباكم، فلما نزلوا أمر بحبسهم في القاهرة، وقد استناب بحصن العُلَيْقة، وخرجت من يد الإسماعيلية من ذلك الوقت.

عودة السلطان الى دمشق؟!

ثم رجع السلطان ودخل دمشق يوم الأربعاء خامس عشر شوال من هذه السنة، وعزل القاضي شمس الدين بن خلكان، وكان له في القضاء عشر سنين، وولى القضاء عز الدين بن الصائغ، وكان تقليده قد كُتبَ ٥٦٧ بظاهر طرابلس، بسفارة الوزير بهاء الدين بن الحنّا ورأيه، فسافَر ابن خلكان في ذي القعْدة إلى الديار المصريّة.

كيف فُتح القُرَيْن ؟ ![1]

خرج السلطان من دمشق في العشر الآخر من شوال وأتى الى الساحل، ثم سار إلى القُرَين ونازله، وأخذ باشورته في ثاني ذي القعدة، وقد ذكرنا بقية الكلام الآن، فحاصله أنه أخذ الحصن وأمر بهدم قلعته، ثم سار عنه ونزل اللجون[2] ، وتقدمت مراسيمه إلى النُواب بالديار المصريّة بتجهيز الشواني، وقد ذكرناه مفصَّلا عن قريب، ثم إن السلطان جاء إلى عكًّا وأشرف عليها وتأمَّلها، ثم سار إلى الديار المصريَّة. وكان مقدار ما غرمه في هذه السَرْحة والغزوات قريبًا من ثمانمائة ألف دينار، وكان وصوله إلى القاهرة يوم الخميس ثالث عشر ذي الحجة.

ولما دخل القاهرة أمر بعمارة الشواني وباشرها بنفسه، فعمَّر في أقرب مدة ضِعْفَيْ ما انكسر.

مؤامرة لاغتيال السلطان؟!

وفي اليوم الثاني من وصوله مسك السلطان جماعة من كبار الأمراء منهم: علم الدين سنجر الحلبي، وعز الدين إيغان سم الموت، وأقوش المحمدي وغيرهم، بلغه أنهم أرادوا أن يفتكوا به وهو على الشقيف.

---

(١) القرين: حصن قرب صفد، كان المركز الرئيسي للفرسان التيوتون.

(٢) اللجون: هناك أكثر من موضع ببلاد الشام بهذا الاسم، والمقصود هنا بلد بالأردن بينه وبين طبرية عشرون ميلًا، ويبعد عن الرملة أربعين ميلًا.

قتل من يعصر الخمر؟!

وفي اليوم السابع عشر من ذي الحجة أمر بإراقة الخمور من سائر بلاده، وتهدَّد مَن يعصرها بالقتل، وأسقط الضمان في ذلك، وكان بالقاهرة وحدها ألف دينار، وسارت البُرد بذلك إلى الآفاق يأمر بذلك.

ولكم في القصاص حياة؟!

منها: أن في ربيع الأول بلغ السلطان الملك الظاهر أنَّ أهل عكا ضربوا رقاب مَنْ في أيديهم من أَسْرَى المسلمين صَبْرًا بظاهر عكا، فأمر بمَن كان في يده من أسارى عكا، فغرّقوا جميعهم، وكانوا قريبًا من مائة نفر.

بقية الحوادث؟!

ومنها: أن في يوم الأحد الثاني عشر من شوال جاء سَيْلٌ عظيمٌ إلى دمشق، فأتلف شيئًا كثيرًا، وغرق بسببه أناس كثير أيضًا لا سيما الحجاج من الروم، أخذهم وجمالهم فهلكوا، وغلقت أبواب البلد، ودخل الماء من مرامي السُّور ومن باب الفراديس، فغرق خان بن مقدَّم، وأتلف شيئًا كثيرًا، وكان ذلك في زمن المشمش.

وفي تاريخ بيبرس: أتى على كلِّ شيءٍ فجعله كالرميم، وطلع في سور دمشق قدر رمح، وأغرق حيوانات كثيرة، وأفسد عدة آدُرٍ بدمشق، وأغرق من العالم ما لا يحصى، ونضب، فلم يعلم من أين اجتمع وإلى أين ذهب،

ويقال إنه هلك به تقدير عشرة آلاف نفس، وأخذ الطواحين بحجارتها.

ومنها: أن صاحب صور سأل الصلح فأُجيبَ، وتقرر الصلح، وحصل الإتفاق على أن يكون له عشرة بلاد خاصًّا، ويكون للسلطان خمس بلاد يختارها خاصًّا، وبقيّة البلاد مناصفة.

قائد عام القوات المسلحة التترية يعلن اسلامه؟!

ومنها: أنه ورد كتاب نَيْسُو نوغاي قريب الملك بركة، وهو أكبر مقدمي جيشه، نسخته:

صدر هذا الكتاب: من نَيْسُو نوغاي إلى الملك الظاهر، أحمد الله تعالى على أن جعلني من جملة المسلمين، وصَيَّرني ممن يتبعُ الدين المستبين، وبعد: فإن كتابنا هذا يحتمل على معْنَيَيْن: أحدهما: التحيَّةُ والسلام منا إليك. والثاني: أنا سمعنا من أَرَفُوغَا أنه لصدق عهده مع أبينا بركة خان استخبر عن أولاده وأقربائه ومَنْ أسْلم منهم، فلما أخبر هذا الخبر أخلَصْنا المحبَّة للملك الظاهر، الوفيّ بالعهود، وقلنا: ما استِخْبارُه عنا إلَّا لحميَّته في الإسلام وصدق نيّته في تجديد العهود، وكتبنا هذا الكتاب على يد أَرَيتُمو وتُوق بُغَا، مُعْلمًا أنا دخلنا في الإسلام، وآمنا بالله، وبما جاءَ من عند الله، وبرسول الله محمد (ﷺ)، فيثق بما قلناه، ويستن بسنة أبينا بركة خان، ويتبع الحق، ويجتنب ٥٦٩ البطلان، ولا يقطع إرسال المكاتبة، فنحنُ معك كالأنامل لليد، نوافق من يُوافقك، ونخالف من يخالفك.

السلطان يعلن سروره بإسلام قائد عام التتار؟!

فكتب جوابه: صدرت هذه المكاتبة إلى سامي مجلس العزيز الأصيل، المجاهد في سبيل ربّه، المستضيء بنور قلبه، ذخيرة المسلمين، وعون المؤمنين، نيسونوغا، عمَّر الله قلبه بالإيمان، وجعله من أمر دنياه وأخراه في أمان، وعامله بما عامل به التابعين بإحسان، نُعلِمه بورود كتابٍ منه، سَرّ السمع والقلب، وحكم للتوفيق بالغلب، ووجدناه مقصورًا على أفهام ما هو عليه من صحة الإعتقاد والإقتفاء لأثر الملك بركة خان في اجتهاد في الدين وجهاد، وهذا كان عندنا منه أمرٌ لا نترك مثلَه ولا نُلغي، وقد تلونا قوله تعالى: ﴿ذلك ما كُنَّا نَبْغِ﴾[1]، وحمدنا الله على أن كثَّر به حزب المؤمنين، وجعله في ذلك الجانب مُتَبَتِّلا لقتال الكافرين، وقد عُلِمَ أن الرسول جاهَد عشيرتَه الأقربين، وأنكر على مَنْ رضِيَ أن يكون مع القاعدين، والقصد التِذكار بذلك، وإبلاغ التحيَّة لمن في الجانب المحروس، ممَّن نور الله بصيرته حتى اهتدى للحق، واقتدى بالملك بركة خان، رضي الله عنه، في جهاده، وداوم على الجهاد، الذي كتب ٱللَّهُ لنا أجْرَه، في الغرب، ولهم أجره في الشرق، حتى تنكسر شوكة الكفار، ويعلم الكافر لمن عقبى الدار، ويخذل أنصار المشركين، ﴿وَمَا للظَّالمينَ مِنْ أنصارٍ﴾[2] وتتمته تتضمن الأشلاءَ على التتار والإغراء بهم.

★ ★ ★

اقول... يمكن أن تسمى هذه السنة... التاسعة والستين بعد الستمائة... سنة الانتصارات الحاسمة للسلطان بيبرس...

---

(١) سورة الكهف، آية ٦٤.

(٢) سورة البقرة، آية ٢٧٠.

ففيها تم فتح حصن الأكراد . . .

وفيها استسلم أمير فرسان الداوية . . . وقبل جميع الشروط التي فرضها عليه السلطان . . . وما كان هؤلاء الداوية . . . وهم من أعتى الفرسان الصليبية المقاتلة . . . أن يستسلموا لبيبرس ببساطة . . . وإنما الرعب من السلطان زلزلهم وقذفهم اليه راكعين!!!

وفيها حاول السلطان أن يستولي على قبرص وجهز لذلك حملة بحرية . . . إلا أن الريح تقاذفت السفن فصادمت بعضها بعضاً . . . فتحطم أكثرها . . . وفشلت الحملة . . .

صحيح أن الحملة لم تنجح لظروف قاهرة . . . إلا أن مجرد تجريد قوة بحرية للاستيلاء على قبرص دليل على مدى ما بلغه بيبرس من قوة تسمح له بتحدي الصليبيين في معقل من معاقلهم العتيدة!!!

وفيها فتح حصن القُرَيْن . . . المركز الرئيسي للفرسان النيوتون . . .

وفيها تم فتح عكّار . . . وعيَّد السلطان بها عيد الفطر . . .

وفيها هاجم طرابلس . . . فأرسل صاحبها يستعطفه ويطلب منه المصالحة . . . ويطلب وضع الحرب بينهم عشر سنين . . . فأجابه الى ذلك!!!

وفيها سلَّم الإسماعيلية اليه حصن العُلَيْقة . . . وما كان هؤلاء الفدائيون ليستسلموا إلا ليقينهم أن بيبرس يستطيع أن يزيل حصونهم اذا شاء!!!

كان بيبرس في هذا العام ٦٦٩ هـ في أوج انتصاراته . . . يفتح من القلاع والحصون ما شاء!!!

إلا أنَّ الجديد في هذه السنة أنه توجّه الى الشام . . . واستصحب معه ولده الملك السعيد . . . ولي العهد . . . وجمهور الجيش!!!

فما معنى هذا؟! . . .

معناه أن السلطان يدرب ابنه على الكيفية التي ينبغي أن يعيشها حين تؤول اليه مقاليد السلطة من بعده...

وأشرك ابنه معه في فتح حصن الأكراد...

وعاش ولي العهد... اسلوب أبيه وهو يفتح الحصون والقلاع بالشام...

كأنَّ السلطان يريد بذلك أن يقول لابنه الملك السعيد: يا بُنَيَّ... هكذا عِش... يهابك أعداؤك... ويخافك الطامعون في مُلْكِك!!!

لقد كان بيبرس عاشقًا لحياة المقاتلين... يسعى اليها ويلقي بنفسه الى مخاطرها... ويجد في ذلك اللذة كل اللذة...

وكان يُحبّ لابنه أن يكون كذلك!!

ثم ماذا؟!!

ثم هذا الأمر الخطير من بيبرس...

«وفي اليوم السابع عشر من ذي الحجة... أمر بإراقة الخمور من سائر بلاده!!!

«وتهدَّد من يعصرها بالقتل!!!

«وأسقط الضمان في ذلك!!!

«وكان بالقاهرة وحدها ألف دينار!!!

«وسارت البُرد بذلك الى الآفاق يأمر بذلك»!!!

إن السلطان يخوض حربًا شرسة ضد الخمر والمسكرات والمخدرات...

لماذا؟!... امتثالًا لأمر الله أولًا... وحرصًا على سلامة الأمة والجيش ثانيًا...

وها هو يخوض هذه الحرب بنفس العنف والحسم المعروفين عنه في أموره كلها...

أولًا ... اراقة جميع الخمور ... في جميع انحاء البلاد من أقصى النوبة الى ما وراء حلب شمألا ... الى الفرات شرقًا ... في جميع هذه البلاد تراق الخموز فورا مهما كان ثمنها!!!

ثانيًا ... يُقتل كُلّ من يعصر خمرًا!!!

ثالثًا ... يتحتم قتل من يعصر الخمر ولا تقبل الفدية!!!

وسارت البُرد بذلك الى الآفاق يأمر بذلك... أي سارت الأوامر السلطانية بإراقة الخمر وقتل عاصريها ... بالبريد ... الى جميع آفاق المملكة!!!

مرة أخرى ... هذا هو بيبرس!!!

في الخارج ... معارك متواصلة ... ضد ممالك الفرنج بالساحل الشامي ... واستيلاء عليها حصنًا بعد حصن ... وقلعة بعد قلعة ...

وفي الداخل يقظة تامة ... وعيون مفتوحة على كل شيء ... فإذا رأى شيئًا حرامًا سارع الى ابطاله ... وكان حاسمًا كالسيف ... في تنفيذ ما يأمر بتحريمه ... إنه يقتل عاصر الخمر ... باعتبار أنه هو المجرم الأول في شرب الخمر ... فلولا عصير الخمر ما كان هناك من يبيع الخمر ... ولا من يشرب الخمر!!!

عيون مفتوحة ... ويقظة تامة ... بلغه أنَّ بعضًا من كبار الأمراء كان يريد أن يفتك به وهو على الشقيف ... فورًا اعتقلهم ... وفورًا قضى على الفتنة!!!

إنَّ أحوال بيبرس في هذا العام ... تؤكد للناظرين ... أنَّ السلطان الملك الظاهر بيبرس ... كان مَلكًا بكل معاني المُلْك من الدهاء والسياسة والجرأة والقوة والمخادعة واستعراض القوة ...

وأنَّ بيبرس لم يكن درويشًا ... رغم قوة عقيدته ... ورسوخ اسلامه ...

وإنما كان بَطَلًا بكل معاني البطولة!!!
وكان مَلِكًا بكل لوازم المُلْك!!!
وكان سلطانًا بكل مقتضيات السلطة!!!
﴿والله يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾[1] ...!!!

(١) سورة البقرة، آية ٢٤٧.

في وقت واحد . . .

بيبرس يقاتل . . .

التَّتار والفرنج . . .

في السنـــــة السبعين بعـــــد

الستمائة . . .؟!

استهلت هذه السنة، والخليفة هو: الحاكم بأمر الله العباسيّ.

وسلطان البلاد المصريَّة والشاميَّة: الملك الظاهر بيبرس البندقداريّ الصالحي.

وصاحب بلاد الروم: ركن الدين قليج أرسلان السلجوقي، ولكنه تحت حكم التتار.

وصاحب البلاد العراقية وخراسان وأذربيجان وغيرها من البلاد: أبغا ابن هلاون.

وصاحب البلاد الشماليَّة: منكوتمر.

الاحتفال بانزال الاسطول الجديد الى البحر؟!

وفي يوم الأحد الرابع عشر من محرم هذه السنة ركب السلطان الملك الظاهر إلى البحر لإلقاء الشواني التي عملت عوضاً عما غرق بجزيرة قبرس، فركب في شينيّ منها، ومعه الأمير بدر الدين الخازندار، فمال بهم المركب، فسقط الخازندار في البحر، فغاصَ في الماء، فألقى رجل نفسه وراءه، فأخذ بشعره وأنقذه من الغرق، فخلع السلطان على ذلك الرجل وأحسن إليه جزيلًا.

سَفْرَة السُّلْطان الملك الظاهر إلى ناحية الشام؟!

وفي أواخر المحرم منها، ركب السلطان في نفر يسير من الخاصكيَّة والأمراء من الديار المصرية، فجاء إلى الكرك، واستصحب نائبها عز الدين أيدمر الظاهري أستاذ الدار معه، ورتب علاء الدين أيدكين الفخري أستاذ الدار نائب السلطنة بها، ثم توجه إلى دمشق فدخلها في الثاني عشر من صفر، ومعه عز الدين أيدمر المذكور، فولاه نيابة دمشق، وعزل جمال الدين أقوش النجيبي في رابع عشر صفر.

وفي مستهل ربيع الأول خرج من دمشق فتوجه إلى شيزر وحمص وحصن الأكراد وحصن عكّار وكشفهم، ثم عاد إلى دمشق بعد عشرة أيام.

بيبرس يقاتل التتار والفرنج في وقت واحد؟!

وجاء إليه الأخبار بأن التتار أغاروا على عينتاب، ثم توجهوا إلى عُمق حارِم، ومقدّمهم يُسمَّى صَمَغار، فوقعوا على طائفة من التركمان بين حارم وأنطاكية، فاستأصلوهم، فكتب السلطان إلى الديار المصريَّة يستدعي الأمير بدر الدين بَيْسَري الشمسي وثلاثة آلاف فارس من العسكر، فوصل البَريدي إلى الأمير بدر الدين الثالثة من ليلة الأربعاء الحادي والعشرين من ربيع الأول، فتجهز وخرج بكرة الأربعاء هو والعسكر المطلوب، فسافروا ووصلوا إلى دمشق في رابع ربيع الآخر، وأما التتار فإنهم أغاروا على حارم والمروج وقتلوا جماعة، فتأخر نائب حلب والعسكر إلى حماة، وجفل أهل دمشق، فلما وصل البَيْسَري والعسكر إلى دمشق سار السلطان بالعساكر إلى حلب، وجرَّد إلى كل جهة عسكرًا صحبة أمير من أمرائه، فجرد الحاج طيبرس الوزيريّ

وعيسى بن مُهَنّي إلى مرعَش، فقتلَا من وجداه بها من التتار، وانكفُوا بحركة السلطان، وكان الفرنج قد تحركوا بالسَّاحل وأغاروا على قاقون وقتلوا الأمير حسام الدين أستاذ الدار وبعض من كان معه، فلما لحقتهم العساكر تفرقوا وعادوا، ولما سَكَّن السلطان هذه الثَوَائِرَ عاد إلى الديار المصرية.

عَوْد السُلطان إلى مصر ؟!

ولما فرغ شغله من الشام عاد إلى الديار المصرية، فوصل إلى قلعة الجبل الثالث والعشرين من جمادي الأولى، وأقام فيها إلى شعبان ينظر في مصالح المسلمين، ثم خرج.

خروج السلطان من الديار المصريّة إلى الديار الشاميَّة ثاني مرة؟!

وفي شهر شعبان خرج السلطان وتَوجّه إلى أراضي عكا، فأغار عليها فسَأله صاحبها المهادنة، فأجابه إلى ذلك، فهادنه عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، ثم عاد إلى دمشق فقرئ كتاب الصلح بدار السعادة، فاستمر الحال على ذلك.

★ ★ ★

اقول... أخطر مؤشر في السنة السبعين بعد الستمائة...

هو مقاتلة السلطان بيبرس في جبهتين في وقت واحد...

في الجبهة الغربية قاتل التتار وبدَّدهم...

وفي الجبهة الشرقية أحسَّ الفرنج بقدومه فانكمشوا وانهزموا وولّوا الأدبار!!!

قالوا:

«وجاء إليه الأخبار بأن التتار أغاروا على عينتاب... ثم توجهوا الى عمق حارم... ومقدّمهم يُسمَّى صَمغار... فوقعوا على طائفة من التركمان بين حارم وأنطاكية... فاستأصلوهم...» !!!

أخبار سيئة... ولكن بالنسبة الى بيبرس الذي يبحث عن المعارك تعتبر أخبارًا سارة!!!

كيف واجه الأسد الضاري الأمر؟!

على الفور:

«فكتب السلطان الى الديار المصرية يستدعي الأمير بدر الدين الشمسي...

«وثلاثة آلاف فارس من العسكر» !!!

انظر... بيبرس يتحرك لينقضّ!!!

ووصل الأمير الشمسي والقوة التي على رأسها...

فلما وصل الشمسي والعساكر الى دمشق... سار السلطان بالعساكر الى حلب...

إنَّ الأسد الضاري يتوجه لإبادة التتار...

ولكن ما هي خطته العبقرية؟!

«وجرَّد الى كل جهة عسكرًا صحبة أمير من امرائه...

«فجرَّد الحاج طيبرس الوزيري... وعيسى بن مُهَنَّى الى مرعَش...

«فقتلا من وجداه بها من التتار..

« وانكفُّوا بحركة السلطان... »

انظر... خطّة سريعة... وقضاء تام على التتار... في أسرع وقت!!!

ولكن هناك اعداء في الغرب غير التتار... فماذا هو فاعل بهم؟!...

« وكان الفرنج قد تحركوا بالساحل... وأغاروا على قاقون... وقتلوا الأمير حسام الدين أستاذ الدار وبعض من كان معه...

« فلما لحقتهم العساكر... تفرقوا وعادوا... »!!!

لم يجرؤ الفرنج أن يواجهوا قوات بيبرس بقتال...

كانوا يظنون أن بيبرس سينشغل بالتتار... فهي فرصة لهم... فلما دَمَّر التتار... رُعِبوا وتفرقوا وعادوا من حيث أتوا!!!

ما معنى هذا؟!

معناه أن بيبرس كان عليه أن يواجه غدر التتار وغدر الفرنج في وقت واحد!!!

وأنهم أي التتار والفرنج... يخططـون لمهـاجتـه... ومحاولـة الانقضـاض عليه... من الشرق والغرب في نفس الوقت...

ولكن هيهات... إن بيبرس ينظر بعيْنَي أسَد... الى الأفق البعيد!!!

البطل بيبرس...

يهزم التَّتار...

هزيمة ساحقة...؟!

متى كان ذلك؟!!

متى سحق البطل جيوش التتار؟!!

كان ذلك في السنة الحادية والسبعين بعد الستمائة...

ولكن كيف كانت المعركة؟!

ومَن هو القائد العظيم من قادة السلطان... الذي نال فخر هذه المعركة... فنال اعجاب السلطان؟!!

استهلت هذه السنة، والخليفة هو: الحاكم بأمر الله، والسلطان الملك الظاهر كان في دمشق، وخرج منها على البريد ليلة السادس من المحرم من هذه السنة، ووصل إلى قلعة الجبل يوم الثالث عشر من المحرم، وأمر بتجهيز العساكر إلى الشام، وأقام بالقلعة خمسة عشر يومًا وخرج.

سَفَر السُّلطان إلى الشّام؟!

خرج من الديار المصرية يوم التاسع والعشرين من محرّم هذه السنة، فوصل إلى دمشق في الثالث من صفر، وطلع قلعتها ليلًا.

وفي هذا الشهر: وصل رُسُل أبغا بن هلاون في أمر الصلح، وغيّروا كلامهم، وقالوا: أولا إن السلطان يسيّر سنقر الأشقر يمشي في الصلح، ثم

قالوا: إن السلطان يمشي في الصلح أو من يكون بعده في المنزلة، فاغتاظ السلطان من هذا الخطاب، وقال أيضاً: إذا كان يقصد الصلح يمشي هو بنفسه، أو واحد من إخوته، وأعاد الرسل إلى مرسلهم في ربيع الأول منها.

عبور السُّلطان الفُرات؟!

وكان السبب في ذلك حضور دُرَيْبَة ومن معه من التتار إلى البيرة، فنزلوا عليها ونازلوها ونصبوا عليها المجانيق وآلات الحصار، وجرد دُرَيْبَة طائفة منهم صحبة مقدم يسمى جيفرا إلى الفرات لحفظ المخائض، فنزلوا على مخاضة تعرف بمخاضة القاضي، وأقاموا لهم سياجاً من السيب، وحاجزاً من الخشب، ونزلوا وراء ذلك السياج، فسار السلطان بالعساكر الإسلامية المصرية والشامية حتى انتهى إلى تلك المخاضة، وأشرف على التتار من أعلى الجبل، وهم عليها نازلون، وبها محيطون فاستشار الأمراء الأكابر ومن جرت عادته بالإشارة في المشاور، فتقدم إليه الأمير سيف الدين قلاون وقال: هؤلاء أهون علينا من أن نستشير في أمرهم أو نتوقف دونهم وأنا أعبر إليهم وأهجم عليهم وإنما أحتاج دليلًا يعرفني المخاضة، فتقدم الدليل قدامه وتوجه بمن معه من مماليكه وأصحابه، فاقتحم الفراتَ وعبر على سفائن كواهل الصافيات، فثار التتار إليه وحملوا عليه، فثبت لهم، وصدمهم صدمةً فرقتهم قوتها، ومَزَّقتهم شدتها، وقتل مقدمهم جَيْفَرا، قتله زين الدين كتبغا مملوك الأمير سيف الدين قلاون وقتل منهم جماعة، فعند ذلك عبر السلطان، وعبرت العساكر، فلما تكاملت الجيوش شرقي الفرات ولَّى دُرَيْبة هزيمة، ورحل عن البيرة ذميمًا، وترك آلاته التي أعدَّها للحصار، فنزل أهل البيرة فأخذوها واقتسموها، وسار السلطان إليها، فخلع على المغيثي النائب بها وعلى مقدّميها،

وفرّق في أهلها أموالًا كثيرةً، ثم عاد إلى دمشق في ثالث جمادي الآخرة ومعه الأَسْرَى.

وأما دُرَيْبة فإنه لما حضر عند أبغا بن هلاون منهزمًا، وقد فقد رفيقه، وقتل أكثر من معه، عنَّفَه أَبْغَا وعَدَّدَ له ذُنُوبُه وقال له: كيف انهزمت؟ وما جُرحت؟ وقُتل رفيقك وما قُتلت؟ وأمر بالحوطة عليه وإبعادِه، وإعطاء تقدمته لأبطاي، فقال أبْطاي: أنا أسُدّ الخلل وأقوم بما قصَّر فيه من العمل.

توجّه السُلطان إلى الديار المصريّة؟!

ولما فرغ بال السلطان من جهة هؤلاء التتار عاد إلى دمشق، ثم سار إلى الديار المصريّة، فطلع قلعته في الخامس والعشرين من جمادي الآخرة من هذه السنة، وأفرج عن الأمير عز الدين الدمياطي من الاعتقال، وجلس لشرب القمز[1] بحضرة أمرائه وأعيانه، فتذاكروا وقعة الفرات، وأَثْنَوْا على الأمير سيف الدين قلاون في إقدامه يومئذ، فأنعم السلطان عليه بثلاثة آلاف دينار عينًا، وفرس بسرج ذهب، وتشريف كامل، وجوشن، وخوذة، وسيف محلى بالذهب، فكان مقدار ذلك ألفي دينار عينًا، فتكلمت منه من الحِباء في ذلك اليوم خمسة آلاف دينار، ولما شربوا القمز ناول الهناب[2] إلى الأمير عز الدين الدمياطي، وكان قد شابت لحيتُه، فقال يا خونذ: شبنا وشاب نبيذنا، وغنت الأُنسَاءُ والشَعراءُ بهذه الأبيات:

زعمت بنو قاقان أن خيولنا تخشى العبور إليهم في الماءْ
فأتوا إلى شطّ الفرات وطلّبوا متهّيئين لغارة شَعْواءِ

(١) القمز: لفظ تتري الأصل، يطلق على نبيذ يعمل من لبن الخيل.

(٢) الهناب: قدح الشراب.

وتـرجلـت مــن بينهــمُ أقْشِيــةٌ — مُغْــلٌ وكُــرْجٌ فيهُــم وخَطــاءُ
قَصَـدوا بهذا مَنْعَنـا عـن بـرِّهِـمْ — غَلِطُـوا وخُيِّـبَ مقصَـدُ الأعـداء
فـأتـاهُــم جَيْشُ النبيّ يَـؤمُّهــم — ملـكُ الزمـان الظـاهِــرُ الآلاء
بعصـائِـبٍ سُـودٍ عليهـا رَنكـةُ — أسْـدٌ يصيـدُ فـوارسَ الهيجـاء
عـام الفـرات إليهـم بصـواهَـلٍ — ومنـاصِـلٍ وعـواسِـلٍ سَمْــراء
فـانفـلَّ جيشُهُـم وولّـى هـاربًـا — قـد حَـاطهـم وَيْـلٌ وفـرطُ بلاء
وغَـدَتْ سيُـوفُ المسلمين خصيبـة — عند اللقـاء مِـنْ هـامهـم بـدِمـاء
لله يـــوم بـــالفُـــراتِ رَأيْتُـــه — قـد مـرَّ في ظفـرٍ ونَصْـرِ لِــوَاء
ثم الصلاةُ على النبيّ مُحَمَّـــــدٍ — ما مـالـتِ الأغصَـانُ بـالـورقـاء

وفي يوم الثلاثاء ثالث رجب منها: خلع على جميع الأمراء، ومقدمي الحلقة، وأرباب الدولة، وأعطي كل إنسان ما يليق به من الخيل والذهب والحوائِص والثياب، فكان مبلغ ما صرف في ذلك نحوًا من ثلاثمائة ألف دينار.

★ ★ ★

اقول... وهكذا فرَّت جيوش التتار أمام زحف جيوش بيبرس!!!

وهذا شيء طبيعي بالنسبة الى انتصارات بيبرس... ولكن هناك سؤالًا لا بد أن يُطرح...

لماذا انتصر بيبرس في هذه المعركة ضد التتار... وفرُّوا أمامه كما تفرّ الحُمُر المستنفرة فَرَّتْ من قَسْوَرة؟!

الجواب: لأن بيبرس كان دائمًا على رأس جيوشه... وكان يحارب بنفسه... ويحرص على الموت... ويسبق الى العدو...

وهذه الصفات اذا اجتمعت في قائد أشعلت الجنود... فاستبقوا الموت...

فاستبقت اليهم أسباب النصر!!!

قالوا:

«فسار السلطان بالعساكر الإسلامية... المصرية والشامية... حتى انتهى الى تلك المخاضة... وأشرف على التتار من أعلى الجبل...»

إنه في قلب الميدان على رأس جيوشه!!!

«فعند ذلك عبر السلطان... وعبرت العساكر...

«فلما تكاملت الجيوش شرقي الفرات... ولّى دُرَيْبة... هزيمة... ورحل عن البيرة ذميمًا...»!!!

إن مجرد ظهور السلطان على رأس جيوشه... جعل دُرَيْبة قائد جيوش التتار... يولّي الأدبار!!!

لماذا؟!... لأن بيبرس يريد أن يموت... وهذا القائد التتري لا يريد أن يموت...

والنتيجة حتمية... النصر لمن يريد الموت... والهزيمة لمن يفرّ من الموت!!!

إن عبقرية بيبرس عبقرية اسلامية...

منبعها... احرص على الموت توهب لك الحياة!!!

في السنة الثانية والسبعين بعد الستمائة . . .

الملك الظاهر بيبرس . . .

يأمر الجميع بالخروج . . .

الى القتال . . . ؟!

استهلت هذه السنة، والخليفة هو: الحاكم بأمر الله.

والسلطان الملك الظاهر في الديار المصرية، ولكنه خرج إلى ناحية الشام.

أمر بخروج الجميع للقتال؟!

وفي ليلة السادس والعشرين من محرم هذه السنة، خرج السلطان من القاهرة، وتوجه إلى الشام، وصحبته جماعة من أمرائه بسبب تواتر الأخبار بحركة أبغا ملك التتار، ثم تواترت عليه الأخبار في أثناء الطريق بقوَّة حركته، فكتب باستدعاء العساكر من الديار المصريَّة صحبة الأمير بدر الدين الخزندار، **ورسم بأن جميع مَنْ في مملكته ممن له فرس يركب للغزاة، وأن يخرج أهلُ كل قرية بالشام من بينهم خيَّالَةٌ على قدر أهل القرية، ويقومون بكلفتهم**، ووصل دمشق في شهر صفر، ثم عاد إلى يافا عند وصول العساكر من الديار المصريَّة، فأنزلهم بها، ورتَّب أحوالهم، وعاد إلى دمشق.

مخابرات بيبرس وراء الملوك؟!

وفيها: اتصل بالسلطان أن ملك الكرج حضر مختفيًا لزيارة القدس الشريف، فأرصد له من يعرف حليته، فأمسك من بين الزُوّار هو وثلاثة نفر من أعيان أصحابه، وسُيّروا إلى السلطان وهو بدمشق، فسجنه بالقلعة المنصورة ورحل السلطان إلى القاهرة.

الأمراء يرهبون صولته؟!

وكان الأمير عمرو بن مخلول أحد أمراء العرب قد حبسه السلطان في عجلون لجرم عمله، فهرب منها وتوجه إلى التتار، ثم طلب الأمان، فقال السلطان: ما نؤَمنه إلى أن يحضر إلى عجلون ويقعد في المكان الذي كان مسجونًا، فحضر وتطوق بالطوق الحديد كما كان، فعفا السلطان عنه.

رَحيل السلطان من دمشق إلى القاهرة؟!

ثم إن السلطان خرج من دمشق في أواخر جمادي الأخرى، ووصل إلى القاهرة، فدخلها في سابع شهر رجب وكان يوم دخوله يومًا مشهودًا.

ثم بعد ما دخل طهّر ولده نجم الدين خضر في شهر شعبان، فلعب العسكر القبق، فكان كما قيل:

ذاك يومٌ لها عَن اللهو فيه ... ويغني عنن مُطْربات الأغاني
بصليل لمُرْهَفٍ وصَهيلٍ ... لجوَادٍ، ورنّةٍ لأذان

كلُّ أفعالـه إلى الجدّ تُعْزَى يوم سلْم، أولًا، فيوم رهان
لا تـراه في السِلم والحرب إلا بين رمـح وصـارم وسنـان

وعمل القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر أبياتًا منها:

يا ملك الدُنْيا ومَنْ بعَزْمِه الدّينُ نُصِرْ
هُنِّيت بالعيد وما على الهنـاء اقتُصِرْ
لكنَّها بَشارة لها الوُجُود مُفْتَقِرْ
بفرحةٍ قد جمعت ما بين موسى والخِضِرْ

سَفر الملك السّعيد بن الظاهر إلى الشام؟!

وفي الثاني عشر من شهر رمضان من هذه السنة وجَّه السلطان ولده الملك السعيد إلى الشام صحبة الأمير شمس الدين آقسنقر استادار، فوصل دمشق بَغتَةً ولم يدْرِ نائب السلطان بها إلا وهو بينهم في سوق الخيل، ثم سار منها إلى صفد والشقيف وعاد إلى مصر فوصل في الحادي والعشرين من شوال.

★ ★ ★

اقول... في هذه السنة... السنة الثانية والسبعين بعد الستمائة... نعثر على المفتاح الأعظم لشخصية بيبرس...

وها هو المفتاح:

« فكتب باستدعاء العساكر من الديار المصرية... صحبة الأمير بدر الدين الخزندار...

« ورسم بأن جميع مَن في مملكته ممن له فرس يركب للغزاة...

«وأن يخرج أهلُ كل قرية بالشام من بينهم خيَّالة على قدر أهل القرية... ويقومون بكلفتهم...» !!!

لماذا هذا كله؟!!

«... بسبب تواتر الأخبار بحركة أبغا ملك التتار...

«ثم تواترت عليه الأخبار في أثناء الطريق بقوة حركته... فكتب باستدعاء العساكر...» !!!

هذا هو بيبرس... يقظة تامة نحو العدو والأحداث.

أوَّلا... خرج هو وصحبته جماعة من أمرائه الى الشام بسبب تواتر الأخبار بحركة التتار...

ثم جاءته الأخبار وهو في الطريق بقوة حركة التتار...

فأصدر فورًا أمرًا باستدعاء الجيش المصري من الديار المصرية...

واصدر مرسومًا عامًا في جميع أنحاء المملكة شمالًا وجنوبًا...

«كل مَن له فرس يركب للغزاة» !!!

فإذا علمنا أنَّ كل انسان تقريبًا يملك فرسًا... كان معنى هذا دعوة جميع القادرين على القتال من الشعب للخروج الى المعركة... المعركة مع التتار!!!

هذا هو بيبرس!!!

شعلة مشتعلة دائمًا... تتقدم الصفوف الى الأعداء...

إنه ينفخ روح القتال... أشرف قتال... في الجميع...

الكُلُّ يقاتل... لا مكان للقاعدين في عهد بيبرس!!!

وها هو يحرك الأمة كلها... جيشًا وشعبًا... في الشام وفي مصر... وفي كل مكان...

اخرجوا جميعًا... قاتلوا عن أعراضكم وأوطانكم...

اخرجوا في سبيل الله... فلا شيء هو أشرف من القتال في سبيل الله!!!

بيبرس...

في معارك متواصلة...

في الداخل والخارج...؟!

في السَّنة الثالثة والسبعين بعد السِّتمائة.

استهلت هذه السنة، والخليفة هو: الحاكم بأمر الله العبّاسي.

وسلطان البلاد المصريَّة والشاميَّة: الملك الظاهر، رحمه الله.

وبقيّة أصحاب البلاد على حالهم.

القضاء على الخونة؟!

وفيها اطّلع السلطان على ثلاثة عشر أميرًا من المصريَّة، منهم قجقار الحمويّ، قد كاتبوا التتار، فأخذهم، فأقَّروا بذلك، وجاءت كتبهم مع البريد، فكان آخر العهد بهم.

خروج السُلطان إلى الْكَرَك؟!

خرج السلطان الظاهر من الديار المصريَّة في الثامن من صفر من هذه السنة، وتوجه على الْهُجْن إلى الكرك من طريق البدريَّة، فبلغه أن الرجال

الذين بها قد خامروا، فمسكهم وقطع أيديهم وأرجلهم، وأقام بالكرك ثلاثة عشر يومًا، ثم عاد إلى جهة مصر، ودخلها في الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول من هذه السنة.

ثم توجه إلى العبّاسة وولده الملك السعيد صحبته، ورمى البندق، وصرع ولده طيرًا من الطيور الواجبة[1].

السلطان يستنقذ البحارة الأسرى؟!

وفيها تحيّل السلطان على استخلاص رؤساء الشواني واستخراجهم من أسر الفرنج، وذلك أنه لما انكسرت الشواني بقبرس على ميناء نمسون كما ذكرنا، وأن صاحب قبرس أسر رؤساءها وأرسلهم إلى عكا فاعتقلوا بها في قلعتها، فبذل السلطان لهم مالًا في إطلاقهم، فتوقفوا وتغالوا فيهم، فتحيَّل واستمال الموكّلين بحفظهم، ولم يزل يتلطف في أمرهم حتى سُرِقوا من محبسهم وخرجوا في مركب معدٍّ لهم، وكانت لهم خيل معدّة في البرّ، فركبوها، ولم يُعلم بهم إلا وقد وصلوا إلى الأبواب السلطانيَّة، وهم ستة نفر، وكان السلطان كما قيل:

ولكـــم بلغـــتُ بحيلتي ما ليس يبلـغ بـالسيـوف

وفيها: ورد كتابُ ملك الحبشة واسمه محرْ أملاك يَطْلب مطران من بطرك الإسكندرية، فأجابه السلطان إلى ذلك، ورسم لبطرك اليعاقبة بأن يجهز إليه مطران، فجهَّزه وأرسله إلى السلطان صحبة رُسله.

وفيها: توجَّه عسكر حلب إلى بلاد سيس، وأغاروا عليها، وعلى مَرْعش، وقلعوا أبْوابَ رَبضها، وتبع هذه الغارة خروج السلطان إليها، وإناخته عليها.

(١) المقصود أحد الطيور المعينة للرماية.

خروج السُلطان إلى الشام؟!

برز السلطان من قلعة الجبل في الثالث من شعبان من هذه السنة، ووصل إلى دمشق في سلخ شعبان، ودخل دمشق في يوم ثلج ألبَس الأرض أثوابًا، ﴿وفُتِحَتِ السماءُ فكانت أبوابًا﴾[1] وخرج عسكر الشام مُلبِسين متوجهين لغزو سيس وأعمالها، وأقام السلطان بدمشق بعدهم أيامًا قلائل، ثم جهَّز الجاليش صحبة الأمير سيف الدين قلاون الألفي والأمير بدر الدين بيليك الخزندار، فساروا سيْرًا عنيفًا.

قال بيبرس في تاريخه: ووصلنا إلى المصيصة[2] على غرة من الأرمن، فهجمت العساكر عليها عند فتوح أبوابها، فملكوها وقتلوا مَنْ بها، وملكوا الجسر. وكان السلطان قد جهز المراكب وحملها صحبته على الجمال ليَعدُّوا فيها نهر جَهان[3] والنهر الأسود[4] فلم يحتج إليها، ووصل إليها السلطان على الأثر، وجرّد الأمير حسام الدين العينتابي ومهنى بن عيسى إلى البيرة، ودخل السلطان سِيسَ مطَلبًا في العساكر والمواكب كالبدر المنير بين الكواكب، وأمر بتخريبها، ووصل دربَند الروم، ووصل، ووصلت بعوثه إلى أياس، والبرْزين، وآذنة، وقتلوا وغنموا، فقال[5] في ذلك:

يا ويح سيس أضحت نهبة   كم عوّق الجاري بها الجارية
وكم بها قد ضاق من مَسْلك   واستوقف الماشي بها الماشيَة

ولما عاد إلى المصيصَة راجعًا من الدربند أمر بإحراق جانبيها، فأحرقت،

---

(١) سورة النبأ آية ١٩.
(٢) المصيصة: مدينة على نهر جيحان، وهي تقارب طرسوس، وبينها وبين أذنة تسعة أميال.
(٣) نهر جهان - نهر جيحان - تقع عليه المصيصة، ويصب في البحر المتوسط على مسافة قريبة منها.
(٤) النهر الأسود: أحد فروع الفرات الأعلى، ويعرف عند الترك باسم «قراصو» أي النهر الأسود، ويجري غرب المصيصة وطرسوس.
(٥) المقصود ابن عبد الظاهر.

وتحكمت عساكره في كل ما حوَتْ.

ثم خرج السلطان إلى مرج أنطاكية، فأقام به وجمع الغنائم في صعيد واحد من الخيل والجواري والمماليك والمواشي وغيرها، فقسمها بنفسه على العساكر، فلم ينس صاحب علم ولا رَبّ قلم، وأراح العساكر شهرًا، ثم رحل إلى القصير فنازله، وهذا الحصنُ لبابا رُومِيّة، وكانت مضرة على الفُوعة وجهاتها، وكان أهله عند فتح أنطاكية سألوا الهدنة، فأجيبوا إليها فما وقفوا عندها، فرتَّب السلطان عسكرًا لحصاره، فسلّمه أهله، وحلوا إلى الجهات التي قصدوا، وأما العسكر والعربان الذين توجهوا نحو البيرة فإنهم وصلوا إلى رأس العين ونهبوا وغنموا ما وجدوا، وأما السلطان وعساكره فإنهم توجهوا إلى دمشق وأقاموا فيها إلى أن خرجت هذه السنة.

* * *

في هذه السنة... السنة الثالثة والسبعين بعد الستمائة...

تتلألأ من الملك الظاهر صفة سرعة مواجهة الأحداث واضحة تمام الوضوح...

علم السلطان أن ثلاثة عشر أميرًا كاتبوا التتار... واعترفوا بذلك... فقضي عليهم قضاء تامًا... حتى لا تتكرر مهزلة سقوط بغداد!!!

ثم ذهب فجأة الى قلعة الكَرَك... بلغه أن الرجال الذين بها قد خامروا... فقبض عليهم... وقطع أيديهم وأرجلهم!!!

ثم كلّف مخابراته برسم خطّة لاستنقاذ البحارة الأسرى عند الفرنج منذ أسرت سفنهم في قبرص... ونجحت الخطة السرية... ووصل البحارة الى الأبواب السلطانية... والفرنج في غفلة تامة!!!

هذا في الداخل... فماذا في الخارج؟!

لا يطيق بيبرس أن يمضي عام عليه... ولم يخرج فيه للقتال!!!

وها هو يخرج الى سيس...

وها هو تستولي جيوشه على المصيصة... وها هي جيوشه تتوغل حتى آذنة...

ثم ها هو يرحل الى حصن القصير... وها هي قواته تحاصر الحصن... وها هو الحصن يستسلم...

ثم عاد السلطان بعد أن توغل فيما وراء حلب... الى دمشق... وأقاموا فيها الى أن انتهت السنة!!!

اقول... دائمًا بيبرس... إمّا في معاركة داخلية... يمنع فيها حرامًا... ويضرب على أيدي المجرمين...

وإمّا في معارك خارجية... يغير على التتار... أو الفرنج... ليذيقهم أسوأ ما عملوا!!!

التَّتار يهجمون . . .

في ثلاثين ألفًا . . .

فلمَّا سمعوا بقدوم بيبرس . . .

استبقوا الفرار . . . ؟!

في السَّنة الرابعة والسَّبعين بعد السِّتمائة.

استهلت هذه السنة، والخليفة هو: الحاكم بأمر الله.

والسلطان الملك الظاهر بيبرس في دمشق، وأرسل الأمير بدر الدين الخزندار إلى مصر في الرابع والعشرين من المحرم لإحضار ولده الملك السعيد، فتوجَّه وأحضره، ودخل دمشق في سادس صفر من هذه السنة، وكان يومًا مشهودًا.

نزول التتار على البيرة؟!

وفي يوم الخميس ثامن جمادي الآخرة نزل التتار على البيرة في ثلاثين ألفًا من المقاتلة منهم خمسة عشر ألفًا من المغول وخمسة عشر ألفًا من الروم، فعلى المغول أمير يسمَّى أبْطاي، وعلى الروم الأمير معين الدين سليمان البَرْوَاناه، ومعهم جيش الموصل، وجيش ماردين، والأكراد، وذلك بأمر أبغا بن هلاون ملك التتار، فنصبوا على البيرة ثلاثةً وعشرين منجنيقًا، فخرج أهل البيرة في الليل، فكبسوا العسكر وأحرقوا المنجنيقات، ونهبوا شيئًا كثيرًا، ورجعوا إلى حصنهم سالمين، فأقام الجيش عليها إلى تاسع عشر الشهر المذكور، ثم رجعوا عنها بغيظهم، ولما بلغ السلطان الظاهر ذلك أنفق في العساكر نفقةً كاملةً.

فرار التتار؟!

وقال ابن كثير: أنفق في الجيش ستمائة ألف دينار، وركب سريعًا، وفي صحبته ولده الملك السعيد، فلما وصل إلى القُطَيفة بلغه أن التتار سمعوا بحركته فوهنوا ورجعوا عن البيرة، فسار السلطان إلى حمص، ثم إلى حلب.

عَوْد السُلطان الظّاهر من عينتاب إلى الديار المصرية؟!؟!

ولما جرى الأمور المذكورة، وكان السلطان على مدينة عينتاب رحل منها طالبًا الديار المصرية في مستهل رجب من هذه السنة، ووصل إلى الديار المصرية في ثامن عشر رجب من هذه السنة، وكان يوم دخوله يومًا مشهودًا.

السلطان يغزو السودان؟!

ولما استقرَّ ركابه في قلعته بالقاهرة وفد عليه شكَنْدَه ابن عم داود ملك النُوبة متظلمًا من ابن عمه داود وأخذه الملك منه، فجرد السلطان الظاهر معه جيشًا صحبة الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقاني والأمير عز الدين أيبك الأفرم في مستهل شعبان، فوصلوا إلى دُنْقُلَة[1] ولقيهم جمعٌ من السودان، واقتتلوا، فانهزم السودان، وقتل منهم جماعة كثيرة، وأسر منهم ما لا يقع عليه الحصر حتى أبيع كل رأس بثلاثة دراهم، ثم تبعوا داود فترك أخته وامّه

(١) دنقلة: مدينة كبيرة في بلاد النوبة، وهي منزلة ملك النوبة على شاطئ النيل.

وبنت أخته وهرب، فأخذ حريمُه ورجعوا إلى الديار المصرية بعد أن ملّكوا شكنّدة ورتبوا أمره، وقرّروا عليه في كل سنة على كل رأس دينار، ووصلوا إلى القاهرة وصحبتهم السبيُ فأبيعَ بمائة ألف درهم وعشرة آلاف درهم.

وقال بيبرس في تاريخه: ولما جُرِّد العسكر من مصر خرجوا في ثامن شوال ووصلوا إلى الدَوْ، فأغاروا على قلعتها ونزلوا جزيرة ميكائيل، وهي رأس جنادل النوبة، فقتلوا وأسروا وغنموا، وكان بها قمر الدولة آبي صاحب الجبل، فآمنوه وقرروه على ولايته، ثم التقوا الملك داود وعساكره، فكَسرُوه وأُسِرَ أخوه وأمّه وأخته، وقتلوا من السودان ألوفًا، وهرب داود إلى الأبواب، وهي فوق بلاده، فالتقاه صاحبها واسمُه أَدَرَوْ وقاتله وقتل ولده، وأكثر من كان معه، وأمسكه وأرسل به إلى السلطان أسيرًا، فاعتقل بقلعة الجبل إلى أن مات في السجن فيما بعد، ورتَّب الأمراء شكنده مكان داود خاله، وقرَّرُوا عليه في كل سنة قطيعة يُؤَدِّيها، وهي: ثلاثة أفيلة، وثلاث زرافات، وخمسة فهود، ومائة أصهب جياد، وأربعمائة رأس بقر، وأن تكون البلاد مشاطرة: النصف للسلطان، والنصف لعمارتها وحفظها، وأن تكون بلاد العلي وبلاد الجبل للسلطان خاصًّا لقربها من أسوان، ويحمل ما يتحصل منها من التمر والقطن مع ما تقرّر من القطيعة والجزية وهي دينار واحد من كل واحد من العقلاء البالغين إلى الأبواب الشريفة، واستحلفوه على ذلك الأيمان التي يحلفها النصارى، وعادت العساكر المنصورة.

وأما شَنكُو أخو داود فإنه أسلم وحُسن إسلامه، ورُتِّب في جملة البحريّة، وقُرِّرت له ولولده جامكيّة، وسمّى ولده محمدًا، وكان متدينًا، كثير التلاوة في القرآن الكريم إلى أن توفي، رحمه الله.

عَقْد السُلطان الملك السّعيد بن الظاهر على ابنة الأمير سيف الدّين قلاوُن الألفي؟!

وفي يوم الخميس الثاني عشر من ذي الحجة من هذه السنة عُقد عقد الملك السعيد على الست غازية خاتون ابنة سيف الدين قلاون، وكتب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر الصداق، وهو خمسة آلاف دينار: المعجَّل منها ألفا دينار، وكان ذلك في الإيوان بحضرة السلطان، فأعطى السلطان محي الدين المذكور مائة دينار وخلع عليه.

ونسخة الصداق: الحمدُ لله موفق الآمال لأسْعَد حركَة، مصدّق الفال لمن جعل عنده أعظم بركة، ومحقق الإقبال لمن أصبح نسيبُه سلطانه، وصهرُه ملكه، الذي جعل للأولياء من لدنه سلطانًا نصيرًا، وميَّز أقدارهم باصطفاء تأهيله حتى حازوا نعيمًا وملكًا كبيرًا، وأفرد فخارهم بتقريبه حتى أقاد شمس آمالهم ضياء، وزاد قمرهم نورًا، وشرَّف به وصلتهم حتى أصبح فضل الله عليهم بها عظيمًا، وإنعامه كبيرًا، مهيِّئ أسباب التوفيق العاجلة والآجلة، وجاعل ربوع كل أملاك من الأملاك بالشموس والبدور والأهِلّة، جامع أطراف الفخار لذوي الإيثار حتى حصلت لهم النعمة الشاملة، وحلّت عندهم البركة الكاملة، نحمده على أن أحسن عند الأولياء بالنعمة الاستيداع، وأجمل لتأمُّلهم الاستطلاع، وكمل لاختيارهم الأجناس من العزِّ والأنواع، وآتى آمالهم ما لم تكن في حساب أحسابهم من الابتداء بالتحويل والابتداع، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً حسنة الأوضاع، مليَّة بتشريف الألسنة وتكريم الأسماع، ونصلي على سيدنا محمد الذي أعلى الله به الأقدار، وشرف به الموالي والأصهار، وجعل كرمه دارًا لهم في كل دار، وفخره على من استطلعه من المهاجرين والأنصار مشرق الأنوار، صلى الله عليه وعليهم، صلاة زاهية الأثمار، يانعة الثمار، وبعد: فلو كان اتصال كل شيء بحسب

المتصل به في تفضيله، لما استصلح البدر شيئًا من المنازل لنزوله، ولا الغيث شيئًا من الرياض لهُطُوله، ولا الذكر الحكيم لسانًا من الألسنة لترتيله، ولا الجوهر الثمين شيئًا من التيجان لحلوله، لكن الشَرف بيت يحلُّ به القمر، ونَبتٌ يزوره المطر، ولسانٌ يتعوَّذ بالآيات والسُورَ، ونُضَار يتجمَّل باللآلي والدُّرر، والمترتِّب على هذه القاعدة إفاضة نور يستمدُّه الوجود، وتقريرُ أمرٍ يقارن سَعْدَ الأخبية فيه سعد السُعود، وإظهار خطبة بقول الثُريَّا لانتظام عقدها كَيْف، وإبرازُ وُصْلَة تتجمَّلُ بترصيع جَوهرها مَتْن السيف، الذي يغبطه على إبداع هذه الجوهريَّة كل سيْف، ونسج صهارة تتم بها إن شاء الله كل أمر سَديد، ويتفَّقُ بها كلُ توفيق يخلُقُ الأيام وهو جديد، ويختار لها أبْركُ طالع وكيف لا تكون البركة في ذلك الطالع وهو السعيد، ذلك بأن المراحم الشريفة السلطانية أرادت أن تُخصَّ المجلس السَّامي الأميري الكبيري السيفي بالإحسان المُبتكر، وتفرُدَه بالمواهب التي يرهَف بها الحدُّ المُنتَضى ويعظُم الجدُ المنتظر، وأن يرفع من قدره بالصهارة مثل ما رفعه (ﷺ) من أبي بكر وعمر، فخطب إليه أسْعدُ البريَّة، وأمنعُ من يحميها السيوفُ المشرفيَّة، وأعز من يسبل عليها ستور الصون الخفيَّة، وتُضْرب دونها خدُورُ الجلال الرضيَّة، ويُتجمَّل بنعوتها العقودُ، وكيف لا وهي الدرَّةُ الألفيَّة، فقال والده وهو الأميرُ المذكور: هكذا ترفع الأقدار والأوْزان، وهكذا يكون قران السَعْد وسَعْدُ القِران، وما أسعَد أرضًا أصبحت هذه المكارمُ له خيلة، وأشرف سَيْفًا غَدت مِنطقُه بروج سمائها له حَميلَة، وما أعظمها معجزةً أتت الأولياءُ من لدنها سلطانًا، وزادتهم مع إيمانهم إيمانًا، وما أفخرها صهارة يقول التوفيق لابن أُمِّها ليت، وأشرفها عبودية كرمت سلمانها بأن جعلته من أهل البيت، وإذ قد حصلت الإستخارة في رفع قدر المملوك، وتخصيصه بهذه المزيَّة التي تقاصرت عنها آمالُ أكابر الملوك، فالأمرُ لمليك البسيطة في رفع درجات عبيده كيف يشاءُ، والتصدُّق بما يُتَفَوَّهُ به هذه الأشياء، وهذا مفتتح الكتاب:

الصَداق خمسة آلاف دينار؟!

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتابٌ مباركٌ تحاسدت رماحُ الخطّ وأقلامُ الخطّ على تحريره، وتنافست مطالع النوار ومشارق الأنوار على نظم سُطوره، فأضاءَ نوره بالجلالة وأشرق، وهطل نورُه بالإحسان وأغدق، وتناسبت فيه أجناسُ تجنيس لفظ الفضل، فقال: الاعتراف هذا ما يُصَدَق، وقال: العُرْفُ هذا ما أصدق مولانا السلطان الملك السعيد ناصر الدين بركة خان بن مولانا السلطان الملك الظاهر رُكن الدنيا والدين أبي الفتح بيبرس الصالحي قسيم أمير المؤمنين الستر الرفيع الخاتوني غازية خاتون ابنة المجلس السامي السيفي قلاون الألفي الصالحي، أصدقها ما ملأَ خزائن الأحْسَابْ فخارا، وشجرة الأنساب ثمارًا، ومشكاة الجلالة أنوارًا، وأضاف إلى ذلك ما لولا أدب الشرع لكان أقاليم ومدائن وأمصارا، فبذل لها من العين المصرى مما هو باسم والده قد تشرَّف، وبنعوته قد تعرَّف، وبين يدي هباته وصدقاته قد تصرَّف وهو مبلغ خمسة آلاف دينار المعجل منها ألفا دينار.

يأمر بشَنْق ستمائة؟!

ولما انقضى العقد ركب السلطان الملك الظاهر من ساعته وتوجَّه إلى الكرك في الثاني عشر من ذي الحجة على الهُجْن في جماعة لطيفة، على الطريق البدريَّة، تحت جبل يعرف بنقب الرفاعي، ولما وصلها نظر في أحوالها، وجمع القيمرية الذين بها، فإذا هم ستمائة نفر، فأمر بشنقهم، فشفع عنده فيهم، فأطلقهم وأجلاهم إلى الديار المصريَّة، وكان قد بلغه عنهم أنهم يُريدون قتل مَنْ فيه ويقيمون مَلِكًا عليهم، وسلم الحصن إلى الطواشي شمس الدين صواب

السُهيْلي، فانقضت السنة والسلطان بالكرك، ثم توجه منها إلى دمشق، فوصلها في رابع عشر المحرم من سنة خمس وسبعين وستمائة.

★ ★ ★

اقول... اعظم احداث السنة الرابعة والسبعين بعد الستمائة...

هو هذا المشهد الذي يثير التفكير!!!

«نزل التتار على البيرة في ثلاثين ألفًا من المقاتلة... بأمر أبغا بن هلاون ملك التتار...»

فماذا كان من بيبرس؟!

«وركب سريعًا... وفي صحبته ولده الملك السعيد...

«فلما وصل الى القُطَيفة...

«بلغه أن التتار سمعوا بحركته...

«فوهنوا... ورجعوا عن البيرة!!!

«فسار السلطان إلى حمص... ثم إلى حلب»!!!

هكذا... نصرٌ بلا تضحية!!!

وذلك جزاء مَن يحرص على الموت!!!

لقد رُعِب التتار من مجرد قدوم بيبرس... وقالوا: الفرار الفرار... إن بيبرس في الطريق إلينا!!!

آخر انتصارات البطل...

سَحْق التَّتار ...

في أرض الروم...

بآسيا الصغرى...؟!

في السَّنة الخامسة والسّبعين بعد السِّتمائة.

استهلَّت هذه السنة، والخليفة هو: الحاكم بأمر الله العباسي.

والسلطان الملك الظاهر بيبرس رحمه الله في الكرك، وتوجَّه منها إلى دمشق، فدخلها في الثالث عشر من المحرم منها، ولما وصلها بلغه وصول الأمراء الروميّين المهاجرين إلى أبوابه، فسار من دمشق إلى حلب. ولما حضروا إلى خدمة السلطان أحسَن إليهم، وتلقاهم بالقبول، وجهَّزهم وحريمهم إلى الديار المصريَّة، وأجرى عليهم الأرزاق.

ثم وصل بعدهم سيف الدين جَنْدر بك صاحب الأَبْلُسْتَين[1]، والأمير مبارز الدين أمير شكار[2]، وبلغ السلطان أن التتار وصلوا إلى كُوكْ صُو مع[3] تُوقُو وتُدَاوُن، فعاد السلطان إلى الديار المصريَّة لمهات كانت بين يَدَيْه منها دخول الملك السعيد ولده بَيْتَه.

---

(١) الأبلستين: مدينة ببلاد الروم قريبة من إفسوس.

(٢) الأمير شكار: شكار لفظ فارسي بمعنى الصيد، والمقصود الأمير الذي يتحدث على الجوارح السلطانية من الطيور وغيرها وعلى سائر أمور الصيد.

(٣) كوك صو ـ النهر الأزرق.

عَوْد السُلطان من حلب إلى الدّيار المصريّة؟!

عاد السلطان من حلب بعد مجيء الأمراء المذكورين وهم في خدمته، فوصل إلى مصر ودخلها في ثاني عشر شهر ربيع الآخر من هذه السنة، وكان يوم دخوله يومًا مشهودًا، وجهَّز حاله وحالَ عساكره وأمرهم بالتأهب والتجهز لما سمع من وصول التتار إلى القرب من أعماله الحلبيّة:

دخول الملك السَّعيد بن السلطان الظاهر بابنة سيف الدين قلاون؟!

وفي خامس جمادي الأولى من هذه السنة عمل عُرس الملك السعيد على ابنة قلاون الألفي، واحتفل السلطان به احتفالًا عظيمًا، وركب الجيش خمسة أيام في الميدان يلعبون ويتطاردون، ويحمل بعضهم على بعض، وقد لبسوا أكمل العُدَد، ورتب لهم السلطان لعب القبق[1]، فلعب السلطان بالميدان الأسود[2] تحت القلعة، ولبس جوشنا وخوذة، وتقلد تُرْسًا، وألبس فرسه العدَّة الكاملة من البركستوان والوجه والرقبة، وساق تحت القبق، ورماه باليد

(١) القبق: لفظ تركي معناه نبات القرعة العسلية، وقد أطلق في العربية على الهدف الذي كان مستعملًا في ملعب الرماية المعروف باسم القبق أيضًا، وقد وصف المقريزي لعب القبق فقال: «والقبق عبارة عن خشبة عالية جدًا تنصب في براح من الأرض ويعمل بأعلاها دائرة من خشب، وتقف الرماة بقسيها وترمي بالسهام جوف الدائرة لكي تمر من داخلها إلى غرض هناك، تمرينًا لهم على إحكام الرمي».

(٢) الميدان الأسود: هو الميدان الخاص برمي القبق، خارج القاهرة فيما بين النقرة التي ينزل من قلعة الجبل إليها وبين قبة النصر، ويسمى أيضًا ميدان الصيد، والميدان الأخضر، وميدان السباق، وهو ميدان السلطان الملك الظاهر بيبرس.

اليُسْرى فأصابه، وأخطأَ غيرُه باليُمنى بغير لُبْس، وأُنعم على كلٍّ من أصاب من الأمراء بفرسٍ بسرجه ولجامه وزينته من المراوات الفضة، ومن أصاب من المماليك والأجناد خُلع عليه، وبقي هذا المهم ثلاثة أيام متوالية والناس في أفراح وسرور، وشاهد الناس منه ومن ولده الأسد وشبله ما يحار الناظرون ويدهش المتفرجون، ثم في اليوم الرابع خلع على الأمراء وجميع أكابر الدولة وأرباب المناصب من القضاة والوزراء والكُتاب والمقدمين والمتعممين، فكان بلغ ما خلع ألفًا وثلاثمائة خلعة، وراحت مراسيمها إلى الشام بالخلع على أهلها، ومُدَّ في ذلك اليوم سماط عظيم لا يوصف، حضره الشارِد والواردُ، والخاصُّ والعامُّ، وجلس رسل التتار ورُسل الفرنج والأمراء وجميع أكابر الدولة، وعليهم كلهم الخلع الهائلة، وكان وقتًا مشهودًا، وحمل صاحب حماة هدايا عظيمة، وركب إلى مصر للتَهْنِئة، ودخل الملك السعيدُ بَيْتَه، وقدمت له التقادم فقبل منها الفنيل، وانقضى الوقت على الوجه الجميل.

مَسير السُلطان إلى الشام لغزو التتار؟!

ولما قوي خبر هجوم التتار على البلاد الشاميَّة واشتدّ عزمهم على ذلك خرج السلطان الملك الظاهر بيبرس من الديار المصريَّة يوم الخميس العشرين من رمضان من هذه السنة، ومعه العساكر والجنود، وسار معهم، فدخل دمشق في سابع عشر شوال منها، فأقام بها ثلاثة أيام، ثم سار ومعه العساكر حتى دخل حلب مستهل ذي القعدة وأقام بها يومًا، ورسم لنائب حلب أن يقيم بعسكر حلب على الفرات يحفظ المعابر، وسار السلطان، ولما وصل إلى كُوكْصُو وهو النهر الأزرق تحرك تُوقُو وتُدَاوُنْ ومن معها من عسكر التتار الذين انتقاهم أبغا واختارهم، فجهَّز السلطان الجاليشَ ومقدّمة العساكر صحبة

الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، فوقع على ألف فارس من التتار مقدمهم كراي، فانهزموا بين أيديهم وتيقنوا أن الدائرة عليهم.

وقال ابن كثير: وقع سنقر الأشقر في أثناء الطريق بثلاثة آلاف من المغل فهزمهم يوم الخميس تاسع ذي القعدة من هذه السنة.

ملاقاة السُلْطان مع التتار وانتصاره عليهم؟!

ثم إن السلطان الملك الظاهر قطع الدرْبَنْد[1] في نصف يوم، وصعد مع العسكر الجبال، فأشرفوا على صحراء الأَبْلُسْتَيْن، فرأوا التتار قد رتبوا عسكرهم، وهم اثنا عشر طُلْبًا، وعزلوا عنهم عسكر الروم خوفًا من مخامرتهم، وكانوا في طلب واحد وجدهم، فلما تراءت الجمعان ورأى بعضهم بعضًا بالعيان حملت ميسرة التتار، فصدمت سناجق السلطان، ودخلت طائفة منهم، فشقُّوها، وساقت إلى الميمنة، فلما رأى السلطان ذلك أردف المسلمين بنفسه ومن معه، ثم لاحت منه التفاتة، فرأى الميسرة قد كادت أن تتحطم، فأمر جماعةً من الأمراء بإردافها، وقاتلت التتار مع المسلمين قتالًا شديدًا، وصبر المسلمون صبرًا عظيمًا، فأنزل الله نصره على المسلمين وبأسه على الملحدين، فأحاطت بهم العساكر من كل جانب، وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، وقتل من المسلمين أيضًا جماعة.

---

(١) الدربند: المنافذ والممرات الجبلية في جنوب شرق آسيا الصغرى، بينها وبين بلاد الشام، وهي غير الدربند أو باب الأبواب على بحر طبرستان.

الأمراء الشهداء؟!

وكان ممن قتل من سادات الأمراء الأمير الكبير ضياءَ الدين بن الخطير، وسيف الدين قزان العلائي، وسيف الدين قَبْجَق الجاشنكير، وعزّ الدين أيبك الشقيفي، وأُسِر جماعةٌ من أمراء المغُول ومن أمراء الروم جماعة أيضًا، فمن المغول أُسِرَ زيرَك وهو صهر أبغا، وصرْطق وهو من أقاربه، وجُودَيْه، وبَرْدكيْه، وتُمَاديه، ومن الروميّين علاء الدين بَكْلاَربْكي بن البَرْواناه حاكم الروم، وابن أخته وهو ولد خواجا يونُس، ونور الدين بن جَاجَا. وسراج الدين أخوه، وقطب الدين أخو الأتابك، وسيف الدين سنقرجاه السيواسي، ونُصْرَةُ الدين صاحب سِيوَاس، وكمال الدين عارض الجيش بالروم، وحسام الدين كياوك قرابة البرواناه، وسيف الدين بن علي بشِير التركماني، وحضر في الإحسان سيف الدين جاليش أمير دار وهو أمير العدل والمظالم، وميكائيل صاحب سِنُوب، وظهير الدين مُتَوج مشرف الممالك، ونظام الدين أوحد بن شرف الدين بن الخطير وإخوته، وقاضي قضاة الروم حسام الدين الحنفي، ومظفر الدين جحاف، وأولاد ضياء الدين بن الخطير، وسيف الدين كجكنا الجاشنكير. ونور الدين المنجنيقي، وأولاد رشيد الدين صاحب ملطية كمال الدين وإخوته، وأمير علي صاحب كركر، فما منهم إلا من أحسن السلطان إليه وأفاض إنعامه عليه.

وأما تُوقُو وتُدَاوُن فإنهما قتلا في المعركة، وأما البَرْواناه فإنه كان مع جماعته وعسكر الروم في طلب واحد وحْده منفردٌ عن أطلاب التتار، ولما رأى انهزام التتار بادر بالهروب هو وأصحابه وولّوا الأدبار، وأخذ البَرْواناه معه السلطان غياث الدين وفخر الدين الوزير ومَنْ كان بقيساريَّة وتوجَّه بهم إلى تُوقات، وكانت إقطاعًا له.

وقال بيبرس في تاريخه: وفي هذه الوقعة أخذ سيف الدين قلاون الألفي:

سيف الدين جَاوَرْشي، وسيف الدين قفجاق، واشترى سيف الدين سلاَّرَ، لولده علاء الدين علي الملقب عند سلطنته بالملك الصالح، فكان ذلك في طالع طلعة سعوده وغربت نحوسه، فإن المشار إليه ترقت به السعادة إلى ما سنذكره في موضعه إن شاء الله واسم أبيه طغرل، وكان البَرْواناه قد قرَّبه وأدناه وصيَّرَه أمير شكار.

دخول السُلطان قيساريَّة وجُلُوسه على كرسيِّ المملكة الروميّة؟!

ثم إن السلطان الملك الظاهر رحل من مكان المعركة يوم السبت حادي عشر الشهر ونزل قريب الكهف والرّقيم، وعبر على خان قرطاي، وهو خان مبنيّ بالحجر الأحمر، وله مغلاّت متسعة ودواوين متفرقة ومجتمعة، ونزل بالقرب من عسيب[1].

ولما وصل إلى وطاق كيخسرو خرج أهل قيسارية كافة لتلقّيه، وكان دهليز السلطان غياث الدين مضروبًا هناك، فنزله.

وأقام على قيسارية سبعة أيام ينتظر حضور البَرْواناه إليه ليقرر معه قاعدة ينتظم بها مصالح الإسلام بتلك البلاد، وتجري بها أمورهم على السَّداد، وأرسل إليه مملوكًا له، كان قد حصل في الأسر مع ولده، وكتب إليه كتابًا على يده يحثُه على الحضور، ويوضح له ما يترتَّبُ على حضوره من مصالح أمر الجمهور، فأبى إلا النفار لما جرت به من دُنُوِّ أجله الأقدار، فلما أيس السلطان من أمره رحل عن قيساريَّة عائدًا، ورتب فيها سيف الدين جاليش

(١) عسيب: بفتح أوله وكسر ثانيه، وواضح من النص أنها بآسيا الصغرى.

نائبًا، وكتب إلى أولاد قرمان يُحَرِّضهم على الحضور، وركب يوم الجمعة سابع عشر ذي القعدة وعلى رأسه الجترُ، وشاهد الناس منه صاحب القبة والسَّبْع، وخطب له في جوامع قيساريَّة وهي سَبْعَةٌ، وقيل في ذلك أبيات:

وما كان هذا التَختُ من حين نصْبه ... لغير المليك الظاهر البَدر ويَصْلُحُ
مليكٌ على اسم الله ما فتحت له ... صوارمُه البيضُ المواضي ويفتَحُ
أتَتْهُ وفُودُ الروم والكلُّ قائلٌ ... رأيْناك تَعْفو عن كثير وتَصْفَحُ
فأوْسَعَهُم حِلْمًا، وأولاهم نَدَى ... فأمسوْا على أمْن ومَنٍّ وأصْبَحُوا

وقال الأمير ناصر الدين محمد بن الحلي من أبيات في وقعة أبْلُسْتَين:

عزمنا على اسم الله والله ربُّنا ... نرومُ العدى قَسْرًا بكل مضمَّرِ
نَرومُ بني قاقان جمعًا لأنَّهُم ... بَغَوْا وطغوا عن قسوة وتَجَبُّرِ
لنا فيهم التاراتُ تارات من مضى ... جُدُودٌ لنا فاقوا بأطيب عنصُرِ
ونحنُ جلبنا الخيلَ في كل غارةٍ ... إلى مُعْلها والروم فاسأل تُخبرِ
مع الفارس الكرار في حومة الوغا ... أبي الفتح بيبرس الهمام الغَضَنْفَرِ
عليه سلام الله مني تحيَّةً ... إلى أنْ ألاقي اللهَ في يوم مَحْشَرِ

نزول السُّلطان بمرْج حَارِم؟!

لما رحل السلطان من قيساريَّة في التاريخ المذكور آنفًا نزل في صحراء قراجا قريب بَازَارْيُكُو[1]، ثم رحل منها إلى أن انتهى إلى مرج حارم وصحبته علاء الدين علي بن البَرْواناه، ومن أخذ من الروم أسيرًا، ومن جاء بالطاعة مستجيرًا.

---

(١) «وهذا البازار هو الذي كانت الخلائق تجتمع إليه من أقطار الأرض، ويباع فيه كل شيء يجلب من الأقاليم».

وأقام السلطان على مَرْج حارم شهرًا، وقد ربَّعَتْ خُيولُ العساكر في المروج وأخذت الأعيُن حقها من منظرها البَهيج، واستراحت العساكر هناك وهم آمِنُون سالمون وعلى أعدائهم منصورون مؤيَّدُون.

مجيء أبغا إلى موضع المعركة؟!

ولما بلغ خبر هذه الوقعة إلى أبْغا بن هلاون ملك التتار، وتحقق عنده ما حلَّ بعسكره من الكسرة، نهض وجاء حتى شاهد بنفسه مكان المعركة ومَنْ فيها من قَتلى المغول، فأعظم ذلك وحنق على البَرْواناه، إذْ لم يعلمْهُ بجليَّة الحال، وأضمر ذلك في نفسه، ثم جاء إليه البَرْواناه وتلقاه، وسار في خدمته، واتفق في ذلك الوقت أن أيبك الشيخ قفز من عسكر السلطان وتوجَّه إلى أبغا، لأن السلطان كان قد ضربه، فوجد في نفسه من ذلك، وحضر عنده، وأطلعه على أمر البَرْواناه، وأنه كان الباعث للملك الظاهر على الحضور إلى بلاد الروم بتكرار كتبه وتواتر رسله، فازداد غيظ أبغا عليه ولا سيَّما لما شاهد قتلى المغول الأكابر، وأن القتلى جميعًا من عسكر التتار وليس فيهم أحد من الروميّين، وتحقق عنده مخامرة البَرْوَاناه وتخاذل عسكر الروم، فعند ذلك أمر بنَهْب بلاد الروم من قيسارية إلى أرزنجان، وقتل المسلمين الذين بها، فتفرقت عساكره تنهب وتقتل، وقتلوا من المسلمين خلقًا لا يُحْصَون كثرة، وكان من جملة من قتل القاضي جلال الدين بن الحبيب، ولم يتعرضوا إلى نصارى البلاد، وامتدت غاراتهم مسافة سبعة أيام.

ووكل أبغا بالبرْواناه من حيث لم يظهر ذلك له، واستصحب معه السلطان غياث الدين، والصاحب بن خواجا علي، ورجع، فلما عبر على قلعة كغويته أمر أبغا البَرْواناه أن يسلّمها إلى نوابه، فنادى البرواناه نائبه الذي بها ليُسَلمَها

إلى أبغا، فأبى وامتنع بها، فرحل أبْغا وسار إلى أرزنجان فاشتراها له ملكًا واعتدَّ بثمنها عن الإتاوة المقرَّرة له على بلاد الروم، وسار إلى قلعة كَمَاخ فأمر البرواناه أن يخرجوا إلى خدمة أبغا، فأبوا وقالوا: نحن تحت طاعة القان إذا رحل عنا خرجنا، فإنا نخاف سطوته؛ فطلع إليها الصاحب شمس الدين الجُوَيني وأعرض حواصلها، وحمل ما بها من القماش والمال لأبغا، وساق إليه ما كان فيها من الخيل.

ثم سار إلى قلعة بابَرْت، فخرج إليه شيخ منها وقال: أريد من القان الأمان لأتكلم بين يديه كلمتين فقال: قل ولك الأمان. قال: يا ملك البسيطة عدوك حضر إلى بلادك وما تعرض للرعيّة ولا أسال لهم محجمة دم، وأنت قصدت العدُوَّ وجئت في طلبه، فلما فاتك أَنَخْت على رعيتك، فقتلتهم ونَهبْتَ بلادهم وخرَّبتها، فمن هو من الخانات الذين تقدَّموا من أسلافك سَنَّ هذه السَّنة واعتمد هذه الياساق، فاغتاظ أبغا لذلك وعطف على الأمراء الذين أشاروا عليه بنهب البلاد، فأهانهم، وأطلق كلَّ من كان قد أخذ أسيرًا، فكانت عدَّتهم أربعمائة ألف نفر، وسار إلى الأُرْدُو، وقتل البَرْواناه.

مقتل البَرْوَاناه؟!

واسمه سليمان بن عليّ بن محمد بن حسن، ولُقبه علاء الدين البَرْواناه، ومعناه الحاجب بالعجميّ.

وكان رجلًا شجاعًا، حازمًا، كريمًا، جوادًا، عارفًا بتدبير المملكة، ذا مكر ودهاء.

وذكر في بعض التواريخ: أن أصله من الديلم، وأن أباه كان يلقب بمهذَّب الدين، وكان رجلًا جملًا وسيمًا من طلبة العلم، وكان حضر إلى سَعْد الدين

المستوفي بالروم في أيام السلطان علاء الدين كيقباذ، فسأله أن يجري عليه شيئًا من بعض المدارس ليقتات به فيكون درهمًا كل يوم، فهال إليه المستوفي لما رأى من حسْن سَمْته وسِمْتِه فقال له: أريد أن أُصَيِّرك مني مكان الولد وأجودُ لك بما أجد، ثم قرَّبه وأدناه وأحبَّه، وزوَّجه ابنته، واتفق وفاة المستوفي بعد ذلك، فوُصِفَ مهذَّب الدين للسلطان علاء الدين كيقباذ بالفضيلة والمعرفة والكفاية والأهلية للمناصب، فرشحه لوزارته وألقى إليه مقاليد دولته، فرزق مهذّب الدين معين الدين سليمان الملقب بالبَرْواناه، ثم آل أمرُ البَرْواناه إلى أن هلاون لما أخذ بلاد الروم قال للسلطان ركن الدين: مَنِ الآن يصلح للتردد في الأشغال؟ قال: ما يصلح أحد لذلك سوى البرواناه، فترقت منزلته من ذلك اليوم حتى صار فيما بعد حاكمًا على ممالك الروم إلى أن جرى عليه ما نذكره الآن من أبغا ملك التتار.

وهو أن أبغا لما توجه من الروم إلى الأُرْدُو، وأخذ معه البَرْواناه كما ذكرناه، استشار الأمراء في أمره، فقوم أشاروا عليه بقتله، وقوم أشاروا بإبقائه وإعادته إلى البلاد ليحفظ نظامها ويحمل خراجها، فترجح عنده إبقاؤه فأطلقه من التوكيل على أنَّه يعود، فسمع نساء أمراء المغول الذين قتلوا في المعركة كزوجة تُوقُو وتُدَاوُن وغيرهما أن أبغا رسم بإطلاقها لَبْرواناه، فاجتمعن جيعًا عصر النهار، وأقمن مأتمًا وصِحْن ونُحْنَ، فسمع أبغا ضجيجهن فقال: ما هذا؟ فقيل له: إن الخواتين سَمِعْن بأن أبغا قد خلَّى سبيلَ البَرْوَاناه وأطلق سراحه ليعود إلى الروم سالمًا، فبكين وأعولن على أزواجهن، فأمر أبغا لأمير من الأمراء الذين يُشَتُّون ببلاد سيس اسمه كُوكجا بهادر أن يأخذ معه مائتي فارس ويسير بالبَرْواناه إلى موضع عيَّنَهُ له فيقتله، فاستدعى كوكجا بهادر البَرْواناه وقال له: إن أبغا يُريد يركب ورسم لك أن تركب أنت وأصحابك معه، فركب هو ومعه اثنان وثلاثون نفسًا من مماليكه وألزامه، فتوجه معه، فأخذ به نحو البر، فعلم أن ذلك الأمر لا خير

له فيه، فأحاط به وبأصحابه التتار كما يحيط بالزند السوار، وكتَّفوا أصحابه، فسأل أن يمهلوه رَيْثما يتوضأ ويصلي، فأمهلوه، فلما فرغ من صلاته قتلوه ومَن معه.

وكان أبغا نازلًا بمقام الأطاغ، ولما سمع مماليك البَرواناه بقتله وهم: علم الدين سنجر البَرْوَانيّ، وبدر الدين بكتوت أمير آخور، فاجتمعا ومن معهم من كبارهم في مخيَّمهم وأوْتَروا قِسيَّهم، ونكَّبوا نشابهم بين أيديهم وقالوا: ما نموت إلا مقاتلين، فاضطر الذين نُدبوا إلى قتلهم إلى أن شاوروا أبغا، فلما شاوروه على ذلك استحسن هذا الأمر منهم، وقال: هؤلاء مماليك نافعون، فخلُّوا عنهم، فأطلقوا سبيلَهم وأُعطوا دستورًا إلى بلادهم.

وكان مقتل البرواناه في آخر ذي الحجة من سنة خمس وسبعين وستمائة.

رحيل السُلطان الملك الظاهر إلى ناحية دمشق؟!

قد ذكرنا أن السلطان قد أقام في مرج حارم شهرا لإراحة عساكره وتَربيع خيولهم، ثم رحل عند انقضاء هذه السنة، أعني سنة خمس وسبعين وستمائة إلى دمشق، ودخلها في خامس المحرم من سنة ست وسبعين وستمائة.

★ ★ ★

اقول... ازوع ما في السنة الخامسة والسبعين بعد الستمائة... بالنسبة الى حياة الملك الظاهر بيبرس...

أنها سنة بلوغ القمة... واكتمال الهمَّة...

ومن حيث أن السلطان بلغ فيها أقصى فتوحاته... فبلغ قيسارية

بلاد الروم... بآسيا الصغرى...

فإن معنى هذا أن السلطان أوشك أن يموت... فإن الشيء اذا بلغ تمامه كان هذا نذيرًا بزواله!!!

وهذا ما حدث فعلًا... فما استهلت السنة القادمة... حتى نزل الموت بالسلطان!!!

إن بيبرس في هذا العام... تضحك له الحياة في الداخل والخارج...

أمّا في الداخل... فكان حفل زفاف ابنه الملك السعيد... الى ابنة سيف الدين قلاون...

« واحتفل السلطان به احتفالًا عظيمًا...

« وركب الجيش خمسة أيام في الميدان يلعبون ويتطاردون...

« ومُدَّ سماط عظيم لا يوصف... حضره الشارد والوارد... والخاص والعام...

« وانقضى الوقت على الوجه الجميل...».

الحياة اذًا تضحك لبيبرس...

أفراح هنا وأفراح هناك...

هذا في الداخل... فماذا في الخارج؟!

نصرٌ ساحقٌ على التتار...

أين؟!... فيما وراء حلب... حيث اجتازت جيوشه النهر الأزرق في آسيا الصغرى...

ثم انقضَّ على جموع التتار... فأوقع بهم هزيمة... أشد من هزيمة عين جالوت!!!

وفي صحراء الأَبْلُسْتَيْن التقى بيبرس بنفسه مع جيوش التتار...

واستصرخ بيبرس حقيقته... حقيقة الأسد الغاضب اذا هوجم...

وانقض بنفسه ومن معه يُحطِّم جموع التتار...

وكان النصر... وقُتِل من التتار خَلْقٌ كثيرٌ!!!

وقُتِل من المسلمين جماعة!!!

لم تكن المعركة سهلة... وإنما كانت التحامًا شديدًا بين قوات التتار وقوات المسلمين...

وانتصر بيبرس... وخرج أهل قيسارية كافة لتلقِّيه!!!

وخُطِب له في جوامع قيساريّة وهي سبعة!!!

لقد بلغ الملك الظاهر أقصى الأفراح بالداخل!!!

وها هو يبلغ أقصى الفرح بالنصر في الخارج!!!

وهذا إيذان بقُرْب الرحيل!!!

وفاة السلطان بيبرس...

في السابع والعشرين من المحرم...

سنة ست وسبعين وستمائة...؟!!

في السنة السّادسة والسّبعين بعد السّتمائة.

استهلت هذه السنة، والخليفة هو: الحاكم بأمر الله.

والسلطان الملك الظاهر قد دخل دمشق بعد رجوعه من بلاد الروم وكسره التتار على الأبْلُسْتَين، وإقامته بعد ذلك على مرج حَارم شهرًا كما ذكرنا، في اليوم الخامس من محرم هذه السنة، فنزل بالقصر الأبلق الذي بناه غربيّ دمشق بين الميادين الخُضْر، وتواترت الأخبار بأن أبْغا بن هلاون قد عزم على قصد بلاد الشام، فأمر عند ذلك بجمع الأمراء وضرب الدهليز منشورًا، ثم جاء الخبر بأنّ أبْغَا عاد إلى بلاده، فرسم بردّ الدهليز، وأقام في القصر الأبلق يجتمع عنده الأمراء، والدولة في أسرّ حال، معتقدًا أن الدنيا قد حصلت في يده، والأقدار تخدمه في بلوغ مقصده، وإذا بالعافية قد شمَّرت الذيل، والصِحَّةُ قد انجابت كما ينجاب ضوءُ النهار من سُدْفة الليل، وأمرُ الله قد أدركه فلم تغن الحيلة ولا الحيل.

وفاة السُلطان الملك الظاهر أبو الفتح الأسَد الضّاري
رُكن الدّين بيبرس البندقداري الصالحي النجمي؟!

تغمده الله برحمته، وأسكنه فسيح جنته، والكلام فيه على أنواع:

الأول في ترجمته: هو بيبرس بن عبد الله، قفجاقيّ الجنس، وقيل هو من بَرْج أُغْلي قبيلة من الترك، حضر هو ومملوك آخر مع تاجر إلى مدينة حماة، فاستحضرهما الملك المنصور محمد صاحب حماة يشتريهما فلم يُعجبه أحد منهما، وكان أيدكين البندُقْداريّ الصالحيّ مملوك الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الكامل صاحب مصر قد غضب عليه الصالح المذكور، وكان قد توجه أيدكين المذكور إلى جهة حماة، فأرسل الملك الصالح منْ يقبض عليه واعتقله بقلعة حماة، فتركه المنصور صاحب حماة في جامع قلعة حماة، واتفق ذلك عند حضور الملك الظاهر صحبة التاجر، فلما قلّبه المنصور صاحب حماة فلم يَشتره أرسل أيدكين البُنْدقدار وهو معتقل، فاشتراه ليخدمه، وبقي عنده، ثم أفرج الملك الصالح عن أيدكين البُنْدَقدار، فسار من حماة وصحبته الملك الظاهر، وبقي مع أستاذه المذكور مدةً، ثم أخذه الملك الصالح نجم الدين أيوب من أيدكين المذكور، فانتسب الملك الظاهر إلى الملك الصالح دون أستاذه، وكان يُخطبُ له، ويُنقَش على الدنانير والدراهم بَيْبرس الصالحي.

الثّاني في صفته: كان الملك الظاهر أسمر، أزرق العينين، جهوريّ الصوت، عليه مهابة وجلالة، وكان إلى الطول أقرب.

الثالثُ في سيرته: كان شهمًا، شجاعًا، سخيًّا، عالي الهمّة، بعيد الغور، مقدامًا، جسورًا، مُعْتنيًا بأمر السلطنة، متحليًّا بها، له قصد صالح في نصرة الإسلام وأهله، وإقامة شعائر الملك.

وفي تاريخ النويريّ: وكان ملكًا جليلًا، شجاعًا، مهيبًا، حسن السياسة، كثير التحيُّل، وكان عسوفًا جبّارًا، كثير المصادرات للرعية والدواوين

خصوصًا لأهل دمشق، وكان مُتنبِّهًا، شهمًا، لا يفتر ليلًا ولا نهارًا عن مناجزة الأعداء ونصرة الإسلام، وكان مقتصدًا في ملبسه ومطعمه، وكذلك جيشه.

وقد جمع له كاتبه محيي الدين بن عبد الظاهر سيرة مطوّلة[1]، وكذلك ابن شداد أيضًا[2]، وهو الذي أنشأ الدولة العباسيّة بعد بقاء الناس بلا خليفة نحوًا من ثلاث سنين، وهو الذي حدّد من كل مذهب قاضي قضاة مستقلًا من غير مشاركة.

الرابع في فتوحاته: فتح في أيامه فتوحات كثيرة وهي: قيسارية التي على الساحل، وأَرْسُوف، ويافا، والشقيف، وأنطاكية، وبُغْراس، وطبريَّة، والقُصَير، وحصن الأكراد، وحصن عُكَّار، وحصن عكا، والقُرَيْن، وصافيتا، وغير ذلك من الحصون المنيعة التي بأيدي الفرنج، ولم يُبْق مع الإسماعيلية شيئًا من الحصون، وناصَفَ الفرنج على: المرقب، وبلنياس، وبلاد انطرسوس، وسائر ما بقي بأيديهم من البلاد والحصون، وأخذ قيسارية الروم على ما ذكرنا، وخطب له فيها، واستعاد من صاحب سيس بلادًا كثيرة، واستردَّ أيضًا من المتغلّبين من المسلمين: بعلبك، وبُصرى، وصرخد، وعجلون، وحمص، والصلت، وتدمر، والرحبة، وتلّ باشر، والكرك، والشوبك، وأخذ بلادا كثيرةً من التتار منها: البيرة، وغيرها، وفتح بلاد النوبة بكمالها، واتسعت مملكته من الفُرات إلى أقصى بلاد النوبة.

وقال النويري: وأول فتوحاته قيساريَّة الشام بالسواحل، وآخر فتوحاته قيساريَّة الروم، وأما عدَّة فتوحاته فكانت تزيد على أربعين حصنًا، وكان بيده بمصر والشام ستة وأربعون قلعةً.

الخامسُ في عمائره: قال ابن كثير: وعمر شيئًا كثيرًا من الحصون،

---

(١) هي «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر».

(٢) هي «الملك الظاهر بيبرس».

والمعاقل، والجسور، والقناطر على الأنهار في بلاد الشام ومصر، وبنى بقلعة الجبل دار الذهب، وبنى قبة على إثني عشر عمودًا مُلّونة مُذهبةً، وصوَّر فيها صُوَر خاصكيته وأشكالهم، وحفر أنهارًا كبارًا وخلجانات ببلاد مصر منها: بحر السَرَدُوس، وبنى جوامع كثيرةً ومشاهد عديدةً، وجدَّد مسجدَ رسول الله (ﷺ) حين أُحرق، ووضع الدرابزينات حول الحجرة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وعمل فيه منبرًا وسقفه بالذهب، وجدّد المارستان بالمدينة، وجدّد قبر الخليل عليه السّلام، وزاد في رواتبه وما يصرف إلى المقيمين، وبنى على المكان المنسوب إلى قبر موسى عليه السّلام قبّةً قبليّ أريحا، وجدّد بالقدس أشياء حسنة من ذلك قبة السلسلة، ورمم شعث الصخرة وغيرها، وبنى خانا هائلًا بالقدس ونقل إليه باب قصر الخلفاء الفاطميين من مصر، وعمل فيه طاحونًا وفرنًا وبستانًا، وجعل للواردين أشياء تصرف إليهم نفقةً وإصلاح الأمتعة، وبنى على قبر أبي عبيدة رضي الله عنه بالقرب من عمتنا مشهدًا وأوقف عليه شيئًا للواردين، وجدّد جسر فامية، وجدّد عمارة جعفر الطيار رضي الله عنه بالكرك، وأوقف على الزائرين شيئًا كثيرًا، وجدَّد قلعة صفد وجامعها، وجدّد جامع الرملة وغيرها في كثير من البلاد التي كانت الفرنج قد عدت عليها، وبنى بحلب دارًا هائلة، وبدمشق: القصر الأبلق، والمدرسة الظاهرية قبالة العادلية، وبنى بالقاهرة أيضًا: المدرسة الظاهرية، وبنى جامعًا هائلًا بالحسينيّة، وله من الآثار والأماكن ما لم يُبْنَ في زمن الخلفاء وبني أيوب.

السّادس في وفاته: وتمرض السلطان أيامًا حتى كانت وفاته يوم الخميس بعد صلاة الظهر السابع والعشرين من المحرم بالقصر الأبلق، فكان ذلك يومًا عظيمًا على الأمراء.

وقال بيبرس في تاريخه: توفي في اليوم المذكور وقت الزوال، وحضر نائب السلطنة عز الدين أيدمر وكبار الأمراء والدولة، فصلوا عليه سرًا، وجعلوه في

تابوت، ورفعوه إلى القلعة في بيت من بيوت البحرية إلى أن نقل إلى تربته تجاه العادلية الكبيرة ليلة الجمعة خامس رجب من هذه السنة، وكتم موته فلم يعلم جمهور الناس به حتى كان العشر الأخير من ربيع الأول، وجاءت البيعة للملك السعيد من مصر، فحزن الناس عليه وترحموا، وكان يومًا شديدًا على الناس، وجدّدت البيعة، وجاء تقليد النيابة مجدّدًا لعز الدين أيدمر.

وقال بيبرس: فكتم الأمير بدر الدين بَيْلَبَك الخزندار نائبهُ موته عن العساكر، وأظهر أنه مستمرّ المرض، ورتب حضور الأطباء وعمل الأدوية والأشربة على العادة، وحمل جسده إلى قلعة دمشق، فبقي فيها مصبَّرًا إلى أن بنيت له التربة المذكورة، ثم إن الأمير بدر الدين الخزندار رحل بالعساكر المنصورة والخزائن مصونة موفورة، والأطلاب مرتبة منتظمة والمحفَّة محمولة في الموكب محترمة كأنَّ السلطان فيها مريض ولا يجسر أحد يتفوَّه بموته، إلا أن الظنون ترجمت، والأفكار في أمره تقسمت، وغلَّب الناس أمر وفاته على مرضه وحياته، ولم تزل الحال مرتبة في النزول والترحال إلى أن وصلوا إلى القاهرة المحروسة، وحصلت الخزائن، والبيوتات والخيول والاسطبلات في قلعة الجبل فأُشيعَ مماته، وأظهرت للناس وفاته، واستقرَّ ولده الملك السعيد مكانه.

وقال المؤيِّد في تاريخه: وفي سنة ستٍّ وسبعين يوم الخميس السابع والعشرين من المحرم توفي السلطان الملك الظاهر بيبرس الصالحي بدمشق، وقت الزوال، عقيب وصوله من جهة بلاد الروم إلى دمشق، وقد ذكرنا أنه دخل دمشق في اليوم الخامس من محرّم هذه السنة، ومات في السابع والعشرين منه، فتكون مدة إقامته بدمشق من بعد دخوله ثلاثة وعشرين يومًا.

السّابعُ في مدّة سلطنته: قال النويري: وكانت مدّة الملك الظاهر نحو سبع عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام لأنه ملك في سابع عشر ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة، وتوفي السابع والعشرين من محرم سنة ست وسبعين وستمائة، وكذا قال المؤيد في تاريخه.

الثامن في أولاده وما رُثي به: قال النُويريّ: وخلّف من الأولاد: الملك السعيد ناصر الدين بركة خان، ونجم الدين أمير خضر، وبدر الدين سلامش، وثلاث بنات.

وقال غيره: خلف من الأولاد عشرةً، ثلاثة ذكور وهم المذكورون وسبع بنات.

وما رُثي به ما قاله محيي الدين بن عبد الظاهر يَرْثي به الملك الظاهر:

أبـــدًا عليـــك تَحيّـــةٌ وسَلاَمُ ... يا قَبْـرَ مَـنْ فُجِعَـتْ بـه الإِسْلاَمُ
يا تُـرْبَـةً لـولاَ الحياءُ مـن الحيـا ... أمسى سجال الدَمْـع فيـك سجـامُ
يا دمْـعَ عيني مثـل دمـع سحـابـةٍ ... هيهـــات بين الدمعتين زِحَـــامُ
فسبقـت كـل سحـابـة هَطَّـالـةٍ ... يثني عليهـــا منـــذلٌ وَبســـامُ
تنهل منـك نـوالُ سـاكنـك الذي ... مـن كفِّـه فـوق السّماح يُسَـامُ
الظـاهـرُ السلطـان مـن بمصـابـه ... هُـدَّ الهدى وتضعضـــع الإِسْلاَم
وغـدَتْ دِمَشْـقُ بقبره وحُلـولِـه ... فيهـا تتيـهُ على الوجـود شـامُ

قبرٌ بـه تتضـاعـف الأقسـامُ مِـنْ ... بـركـاتِـه وتُـؤكَّـدُ الأقسَـامُ
قبرٌ بـه تتـوسَّـلُ الآمـالُ في ... حـاجـاتها وتُصرّف الأحكَـامُ
قبر الذي لـو أنصفتـه قلـوبُنـا ... مـا أصبحَـت لمسرّة تَسْتـامُ
قبر الـذي قلـــعَ القـلاع ... سُكّانُهـا ولـه الحصـون خيـامُ
قبر الذي قهـر التتـار فـأصبحـوا ... ولهم إذا نـاح الحَمَـامُ حِمَـامُ

وقال بيبرس: قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر يرثيه أبياتًا أوَّلُهَا:

ما مِثْـلُ هـذا الرُزْءِ قلـبٌ يحمِـلُ ... كلا ولا صبرٌ جميـلٌ يَجْمُـلُ
اللهُ أكبر إنها لمصيبــــةٌ ... منهـا الرواسي خيفـةً تَتَقَلْقَـلُ
مـا للـرمـاح تخولتهـا رِعـدة ... ألتركهـا أن ليس تَعْقَـل تَعقِـلُ
لهفي على الملـك الذي كـانـت بـه ... الدنيـا تطيـبُ وكـلُّ قَفـرٍ منـزِلُ

الظاهر السلطان مَنْ كانت له مِنَنٌ على كلِّ الورى وتطوُّلُ
لهفي على آرائه تلك التي مثل السهام إلى المصالح تُرْسَلُ
لهفي على تلك العزائِم كيف قد غفلت وكانت قبل ذا لا تغفَلُ
سهم أصاب وما رُئي من قبلة سهم له في كل قلبٍ مقتلُ
أنا إن بكيتُ فإن عذري واضحٌ ولئن صبرتُ فإنني أتمَثَّلُ
خَلَفَ السعيدَ لنا الشهيدُ فأدمُعٌ مُنهلّةٌ في أوجه تتهلَّلُ

شخصية . . .

السلطان الملك الظاهر . . .

بيبرس . . . ؟!

مَمْلوك؟!

خَلَق الله الخلْق أحرارًا...

فإذا حدثت ظروف قاهرة... اضطرت انسانًا ما أن يكون عبدًا... لإنسان مثله...

كان معنى هذا أن الفطرة الإلهية قد مُسِخت...

وأنَّ تركيب هذا الآدمي الذي ابتُلي بالرِّق قد انقلب...

لأنَّ فطرة الله التي فطر الناس عليها ان يكونوا أحرارًا...

فإذا مُسخت هذه الفطرة باستعباد آدميّ لآدمي...

كان هذا تحطيمًا لكيان المسترَق... وإزالة لآدميته...

وهذا ما ابتُلي به بيبرس حين كان صغيرًا... قالوا:

«هو من بَرْج أُغلي... قبيلة من الترك...

«حضر هو ومملوك آخر مع تاجر الى مدينة حماة...» !!!

طفل صغير... معروض للبيع!!!

هكذا بلغت الخسَّة بأولئك النخَّاسين الذي يحترفون بيع العبيد والجواري!!!

ماذا كانت مشاعر ذلك الصغير وهو يُعرض للبيع... هو وغلام آخر... ولا أحد يرغب في شرائه؟!!

إنَّ الرِّق جريمة كبرى من جرائم البشرية...!!!

مَن أعطى هؤلاء المجرمين... تجار الرقيق... الحقّ في بيع العبيد والجواري كيف شاءوا ؟!

ربما كان هذا البيبرس ابن أحد الأعيان... او ابن أحد أمراء الترك... واختطفوه مع المختَطفين التعساء!!!

لقد كان الطفل المسكين يتألم ويتلوى حُزنًا على حاله... وهو يُساق سوق البهائم ليباع في أسواق الرقيق...

ولم يكن أحد يعلم عن حقيقة معدنه الغالية شيئًا...

فكم من الغلمان يُعرضون هكذا يوميًّا... ولا أحد يلتفت اليهم...

لقد كانت خسة من البشرية كلها... أن سمحت ببيع الآدميين بأسعار تقل أحيانًا عن أسعار البهائم!!!

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾[1] ؟!

لم يكن الغلام بيبرس بدْعًا فيما جرى عليه من الرِّق...

وإنما سبقه الى ذلك البلاء المبين... نبي كريم... ابن نبيٍّ كريم... ابن نبيٍّ كريم... ابن نبيٍّ كريم...

يوسف... ابن يعقوب... ابن إسحاق... ابن إبراهيم... عليهم السلام...

حين باعوه بثمن حقير... دراهم معدودة قليلة... وكانوا فيه من الزاهدين!!!

حدث هذا لأعظم شخصية في عصرها... ليوسف الكريم العظيم... عليه السلام...

---

(١) سورة يوسف، آية ٢٠.

قال تعالى:

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ... دَرَاهِمَ مَعْدُودَةً... وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ» !!!﴾

يوسف؟!!

ذلك الذي آتاه الله شطر الحُسْن!!!

يوسُف؟!!

الجوهر الثمين... والنور المبين...

تبيعه شرذمة من الرجال... ليتخلصوا منه... وكانوا فيه من الزاهدين!!!

لماذا هذا؟!!

ألِهَوانٍ به عند الله؟!!

كلا... بل لتتم القصة... ويصبح يوسف... مَلِكًا عظيمًا...

ولكن لماذا يَمِرُّ وهو غلام على هذا التحقير لشأنه... فيباع عبْدًا مملوكًا؟!!

ليذوق آلام الاستعباد!!!

ويحترق بنيران الظُّلْم!!!

ويكتوي بنار الفِراق!!!

فإذا ما حكَم الملايين بعد ذلك... أحسَّ بآلام المضطهدين... وشَعَر بالنار التي يحترق فيها المظلومون...

فعمل فورًا على ازالة الاضطهاد... والغاء الاستعباد... ورفع الظلم عن العباد!!!

وأعظم الملوك مَلكًا كان وهو صغير حقيرًا... لا يُؤْبَه له... ولا يُلتفت اليه...

وليس أحقر في أعين الناس الأغبياء من عبد مملوك...

اذًا فلينزل من أعَدَّهم الله ليكونوا رحمة للناس... فلينزل من يؤهلهم ليكونوا ملوكًا... يعدلون...

فلينزلوا الى نار البلاء ليتطهروا...

وليذوقوا ما يذوق المظلوم... والمسترَق... والمستضعَف...

فإذا ما حُكِّموا في الناس... حكموا فيهم عَدْلا ورحمةً وغوثًا!!!

ومن حيث أن هذا الغلام... هذا العبد... هذا الرقيق... هذا البيبرس... سوف يكون ملكًا عظيمًا فيا بعد... يبلغ ملكه اقصى السودان جنوبًا... وأقصى حلب وما وراءها شمالًا...

ويعبر الفرات شرقًا... ويطهر سواحل الشام من الصليبيين غربًا...

من حيث أنَّ هذا الغلام... سوف يحمل رسالة استرداد مجد الإسلام في العالم...

وسوف نجعله مَلِكًا ظاهرًا منصورًا...

كي لا يطغى اذا مَلَكَ... يجب أن يذوق الظُلْمَ صغيرًا... كي لا يظلم وهو مَلِك... يجب أن يذوق الرِّق غلامًا... ليعمل على تحرير الناس...

فما اكثر المستعبدين في الشعوب... انهم ملايين كثيرة...

مَن يشعر بنار استعبادهم إلا مَن كان مِثلهم يومًا ما؟!!

أرأيت؟!!

انها نواميس إلهية... لا تبديل لها ولا تحويل!!!

نواميس تسري في الخَلْق ولا يشعرون!!!

يوم باعوا يوسف... ما كانوا يشعرون شيئًا عن المكنون في ذلك الغلام!!!

ويوم باعوا الغلام بيبرس... ما كان يشعر... أولئك الأغبياء أنَّ بين يديهم مَلِكًا عظيمًا... هو أعظم ملوك زمانه!!!

ومما يُضحك... أنَّ الذي عُرِض عليه بيبرس ليشتريه... لم يُعجبه هذا الغلام المسمى بيبرس!!!

قالـوا: «فـاستحضرهما الملـك المنصـور محمد... صـاحـب حماة... يشتريهما... فلمْ يُعجبه أحد منهما»!!!

انظر... إنه مشهد يثير الضحك!!!

أمير حماة... لم يعجبه أحد هذين الغلامين... بيبرس أو صاحبه الذي يباع معه!!!

إنه جهول لا يعلم من الغيب شيئًا!!!

ولو يعلم هذا المحجوب أنه أمام الملك الظاهر بيبرس... الذي سوف يكون تحت سلطانـه عشرات مـن أمثـال هـذا الأمير صـاحـب حماة... لو يعلم لسارع الى شرائه... بل لأعطى فيه جميع ما يملك ثمنًا له!!!

ولكنَّ الله غَيَّب هذا عن أولئك الأغبياء... ليبلغ الكتاب أجله... ويُكشف الغطاء في الوقت المعلوم!!!

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ...

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا...﴾[1]!!!

نعم... إن تغييب المقدور عن العيون فيه حكمة جليلة... فلو علم فرعون أنه يلتقط مَن سوف يكون هلاكه على يديه... لقتله فورًا!!!

والعكس صحيـح... لـو علم مَـن عُـرِض عليـه بيبرس صبيًّـا... وأعرض عن شرائه... لو علم أنه أمام الملك بيبرس... لعامله معاملة ابناء الملوك...

والمطلوب أن ينشأ هذا الطفل مظلومًا شقيًّا مستعبدًا... ليذوق نار الظُلم وشقـاء الاستعبـاد... ليعمـل اذا حَكَـمَ على رفـع الظُلم ورفـع الاستعباد!!!

---

(١) سورة القصص، آية ٨.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ﴾[1] ؟!

وكما ألقت المقادير... يوسف الى مَن اشتراه من مصر... ليتحقق له مُلْك مصر!!!

كذلك قذفت المقادير... بيبرس الى من اشتراه من مصر... ليتحقق له مُلْك مصر!!!

لماذا هذا التشابه العجيب؟!

اذا عُلِم السبب بطل العَجَب!!!

السبب أن نواميس الله... أو سُنَن الله... لا تتبدل ولا تتحول...

فكما مَرَّ يوسف عليه السلام على الأحداث التي انتهت به أن اشتراه العـزيـز في مصر... لتتهيأ له الظروف التي يتربع فيها على حُكم مصر...

كذلك بيبرس الذي أعده الله ليكون ملكًا على مصر... ويقوم بدور اعزاز الدين... ونشر العدل... وتحطيم الصليبيين... وابادة التتار... يتحتم ان يُهيأ له من يشتريه من مصر... ليدخل مصر... حيث تنتهي به الأحداث أن يكون ملكًا على مصر!!!

كيف كان هذا؟!!

قالوا: «وكان أيدكين البندُقْداري الصالحي... مملوك الملك الصالح نجم الدين ايـوب... صـاحـب مصر... قـد غضـب عليـه الصـالـح المذكور...

«وكان قد توجه أيدكين المذكور الى جهة حماة...

«فأرسل الملك الصالح مَن يقبض عليه...

«واعتقله بقلعة حماة...

«فتركه المنصور... صاحب حماة... في جامع قلعة حماة...

«واتفق ذلك عند حضور بيبرس صحبة التاجر...

---

(١) سورة يوسف، آية ٢١.

« فلمَّا قلَّبه المنصور صاحب حماة فلم يَشْتره . . .
« أرسل أيدكين البُنْدقدار وهو معتقل . . .
« فاشتراه ليخدمه . . .
« وبقي عنده . . . » !!!
تأمَّل الترتيب العجيب!!!
كيف اشترى البُندقدار هذا الغلام ليخدمه اثناء اعتقاله!!!
ولذلك كان يُقال بيبرس البُندقداري . . .
ولكن بيبرس لم يصل الى مصر بعد . . . فكيف وصل اليها ؟!!
« ثم أفرج الملك الصالح عن أيدكين البُنْدقدار . . .
« فسار من حماة . . . وصحبته بيبرس . . .
« وبقي مع استاذه المذكور مدة . . .
« ثم أخذه الملك الصالح نجم الدين أيوب من أيدكين المذكور . . .
« فانتسب الملك الظاهر إلى الملك الصالح دون أستاذه . . . وكان يُخطبُ له ، ويُنقَش على الدنانير والدراهم . . . بَيْبرس الصالحي . . . » !!!
وهكذا تم التدبير لينتقل بيبرس مع البندقدار الى مصر . . .
ثم تم التدبير لينتقل الى الملك الصالح ايوب مَلِك مصر . . .
وتمهد الطريق بذلك لبيبرس . . . ليصبح من مماليك المَلِك . . .
ويتسلَّل بعد ذلك الى المُلك والسلطان!!!
هذا عن بيبرس . . . فماذا عن نبيّ الله . . . يوسف عليه السلام ؟!
تجد الأحداث تنتهي به الى مصر . . . ثم الى بيت العزيز . . . أحد وزراء مصر . . .
﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا . . .
﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ . . .

﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ...
﴿واللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ...
﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1].

وتأمّل هنا الارتباط بين قول الذي اشتراه من مصر وبين التمكين ليوسف في الأرض...

كأنه يراد أن يقال: انما أدخلناه الى مصر... ثم الى بيت هذا العزيز في مصر... ليكون ذلك مدخلًا ليوسف الى المُلك... مُلْك مصر... والتمكين من حُكم مصر!!!

وهكذا... المقادير في قصة يوسف... تمضي وتتشابه مع المقادير في قصة بيبرس!!!

لأن المراد من القصتين واحد...

أن تحكم مصر شخصية عبقرية قادرة على انقاذ الشعب من آلامه... ومجاعاته... ومفاسده!!!

ورُبَّ قائل يقول: كيف تعقد مقارنة بين نبيّ كريم... ومَلِك سُلطان... وشتّان بين النبوة وبين المُلْك؟!

فأقول: إنها ليست مقارنة... وإنما هي لاستنباط العبرة... وادراك الحكمة... من تدبير المقادير...

مسرح الأحداث... في القصتين... كان مصر...
وبداية الأحداث في القصتين... كان عبدًا مملوكًا...
كان يوسف عليه السلام حين جاء الى مصر... عَبْدًا مملوكًا...
وكان بيبرس حين جاء الى مصر عبدًا مملوكًا...
وانتقل يوسف عليه السلام فجأة الى بيت عزيز مصر...
وانتقل بيبرس فجأة الى الملك الصالح نجم الدين أيوب...

---

(١) سورة يوسف، آية ٢١.

ومضت الأحداث بيوسف حتى صار رئيس الوزراء الحاكم بأمره في البلاد المصرية... يتبوأ من الأرض حيث يشاء...

ومضت الأحداث ببيبرس حتى صار ملكًا على مصر والشام... يتبوأ من الأرض حيث يشاء...

وكان المراد من يوسف عليه السلام أن يكون بطل الانقاذ للشعب المصري والمنطقة كلها... من المجاعة أولًا... ومن الفساد ثانيًا...

لقد كانت البلاد المصرية مقبلة على مجاعة لمدة سبع سنين... فلا بد من اغاثة الناس بشخصية لها القدرة على الحُكم والسياسة والتدبير... فكانت هي يوسف عليه السلام...

وكانت البلاد المصرية بلغت الغاية من الفساد الخُلُقي والانهيار... فلا بُدَّ من شخصية انقاذ... فكانت هي يوسف عليه السلام...

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ★

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾(١).

وكان المراد من بيبرس أن يكون رجل انقاذ الشعب المصري أولًا... والشعوب الاسلامية ثانيًا... من الفساد... والهوان... المحدق بهم من التتار شرقًا... والصليبيين غربًا... فكانت شخصية بيبرس هي هذا المنقذ!!!

فنفخ بيبرس في أهل مصر وأهل الشام... من روح الفروسية... وقادهم فمزَّق بهم التتار في معركة إثر معركة...

وأذلَّ بهم الإمارات الصليبية في ساحل الشام... وهو ينتزعها واحدة بعد أخرى ويردها الى بلاد الإسلام!!!

---

(١) سورة يوسف، الآيتان ٥٥ و٥٦.

وانتفض بيبرس في مصر... يقضي على الفساد... ويحطِّم رءوس المجرمين!!!

ماذا كانت الثمرة؟!

نَعِمَتْ مصر... بأعدل فترة شهدها المصريون في تاريخهم كله...

أنْ حَكَمَهم نبي عظيم... هو يوسف العظيم... عليه السلام...

فحكمهم بالعَدْل... ولا أحد أعدل من الأنبياء...

وحكمهم بالرحمة... ولا أرحم بالناس من الأنبياء!!!

ثم ماذا كانت ثمرة بيبرس؟!

نَعِمَتْ مصر... ومعها الشام... والسودان... ومناطق من آسيا الصغرى فيما وراء حلب... نعموا جميعًا بحُكم عادل كالسيف... ينصر المظلوم... ويدقّ رءوس الظالمين...

وانطلقوا تحت راية بيبرس... يجندلون التتار... ويستولون على قلاع الفرنج وحصونهم... بعد أن كانوا يظنون قبل معركة عين جالوت أن التتار لا يُقهَرون!!!

المملوك... الذي خضعت له... الملوك؟!

مدحوا بيبرس فقالوا:

كم للفرنج وللتتار ببابه رُسُلٌ مُناها العفو والإعفاء

وقالوا في مدحه أيضًا:

ولا تذكرن مَلكًا وبيبرسُ مالكًا وكل مليك في يده غُلام

فهل هذه الأوصاف حقيقة... أم هو خيال شعراء؟!

الحقّ أن بيبرس كان كذلك فعلًا...

كان مملوكًا في بداية أمره... وما زال يصعد حتى صار ملكًا... تخضع له الملوك...

وإنما نال ما نال:.. بمضاء عزيمته... وسمو همّته!!!

ولو أنَّ أحَدًا تولّى مكان بيبرس... ربما تضعضع أمام الأحداث الداهمة التي تواجهه شرقًا وغربًا...

لقد صعد بيبرس الى العرش... فور اغتياله السلطان الملك المظفَّر قُطُز...

على إثر انتصار قُطُز الساحق على التتار في معركة عين جالوت...

فهناك ثأر للتتار... ضد المسلمين... وما كان هولاكو ليلزم الصمت بعد أن لحقه عارٌ عالميّ بهزيمته في عين جالوت...

فبعد أن كان التتار حديث الرعب في العالم كله... وأنهم لا يُقهَرون...

اصبحوا حديث التندر والشماتة... وأنهم هُزموا شر هزيمة في عين جالوت...

كان من الحتم أن يُعدَّ هولاكو للثأر... من جيوش مصر والشام التي أذلَّت جيشه في عين جالوت ولم تُبق منه أحَدًا!!!

هناك اذًا ثأر مرير ينتظر بيبرس في جبهة التتار...

وهناك الامارات الصليبية المنتشرة في ساحل الشام... وهي عبارة عن رءوس جسور للقوات الضخمة الرابضة في المالك الأوروبية... فإذا مَسَّها بيبرس... فإنما يمس شرًّا مستطيرًا... أوّله في اوروبا وآخره في سواحل الشام!!!

هذا هو الجو العالمي العام الذي واجهه السلطان بيبرس حين تولّى الحُكم واعتلى العرش!!!

فماذا كان منه؟!

هل وَهَن وخنع... وقَنَع... أن يجلس على عرشه يتثاءب طويّلا... ويتطلع الى الغواني الجميلات يرقصن بين يدي السلطان؟!.

كلا... بل فزع الى سيفه... وأفزَعَ التتار غربًا... والصليبيين شرقًا... فريقًا يقتل... ويأسر فريقًا!!!

وكم مِن مَلِك من ملوك الحصون والقلاع الصليبية بساحل الشام... استسلم له... وسَلَّم قلعته وحصنه وهو ذليل!!!

وكَم منْ أمير من أمراء التتار... قُتِل في معارك بيبرس... أو وقع أسيرًا صاغرًا ذليلًا!!!

فإذا قال الشعراء:

كم للفرنــج وللتتــار ببــابــه رُسْلٌ مُناهـا العفـو والإعفـاء

كان قولهم ليس بعيدًا عن الحقيقة...

بل كان بيبرس أحيانًا كثيرة... أكبر من تصوير الشعراء!!!

سرُّ تفجُّر عبقرية بيبرس؟!

كان بيبرس عبقريًا بفطرته... أي خُلِق عبقريًا...

فهو موهوب عبقرية...

هذه قضية متفقٌ عليها...

ولكن ليس كل عبقريّ تتاح له الفرصة لاظهار عبقريته...

فما هو سرّ تفجّر عبقرية بيبرس؟!

الجواب: سرّ تفجر عبقرية بيبرس... أنه كان عبدًا مملوكًا!!!

ولكن ما العلاقة بين كونه عبدًا مملوكًا... وبين تفجير عبقريته؟!

العلاقة عميقة سحيقة وطيدة!!!

كونه كان مملوكًا... معناه أنه وصل الى أعمق أعماق الحضارة الاجتماعية...

انسان ظَلَمه المجتمع أبشع الظُلْم... فجعله عبدًا ومملوكًا... وأرسله ليباع... فلم يجدوا أحدًا يشتريه...

هذه الوقائع المُرّة ترسبت في أعماق بيبرس...

فأصبح شخصًا ليس عنده ما يحرص عليه...

فلا والد ولا والدة... ولا إخوة ولا أخوات...

لا يعرف أين أصوله... ولا أين البيت الذي يأوي اليه...

وانما هو سلعة عند نخّاس... الى حين بيعه إن وُجِد الشاري!!!

وهذه المرارة اذا ترسبت في نفسٍ ممتازة المعدن... عبقرية الفطرة...

فجرَّت منها براكين الثورة على الظُلم... وزلازل الغضب على الظالمين...

تجد ذلك واضحًا في شخصية بيبرس... حين انقضّ على الأمير آرتوا في معركة المنصورة...

فجندله ومَزَّق آلاف الفرسان الذين كانوا معه...

ووقف في الساحة... أسدًا يزأر ويتحدى مئات الفرسان الفرنسيين وحده!!!

وما كان بيبرس هكذا إلا لأنه يريد أن ينتقم من أي ظالم في أي صورة كان...

فلما وجد هؤلاء الغزاة الفرنسيين الذين جاءوا بقيادة لويس التاسع لغزو مصر... والقضاء على مركز المقاومة للصليبيين... أي على مصر...

أحسّ بفطرته أنَّ هذا ظلم فاحش من هؤلاء الأنجاس الذين جاءوا يدنسون أرض وطنه العزيز...

فهاج هياج الأسد الضاري... وتفجرت منه عبقرية الشجاعة... وعبقرية الغضب للحقّ... وعبقرية الرغبة الحارقة لضرب الظُلم في أي صورةٍ ما كان مظهره!!!

إنَّ العقدة... عقدة المملوكية التي فرضوها عليه صغيرًا...

تستيقظ منه نارًا تلَظَّى اذا هاجها هائج مِن ظُلْمٍ أو تبجُّح!!!

وتفجرت منه ينابيع عبقريته... كأوضح ما تكون تفجُّرًا... في معركة عين جالوت...

لماذا؟... لأن معركة عين جالوت معناها باختصار... أنَّ أعتى وأظلم قوة على ظهر الأرض... قوة التتار التي لا تُقهر... جاءت لتقضي على البقية الباقية من البلاد أمامها وهي البلاد المصرية...

ها هنا جيوش جبَّارة هَدَّارة... فتحت العالم... وقتلت الملايين... وأحرقت مئات البلاد... وأسقطت الخلافة في بغداد... وقتلت الخليفة... وجميع أهل الحُكم... وقتلت مئات الآلاف من سكانها...

قوات كاسحة ماسحة... لا تعرف الا القتل وإلا التخريب...

تمضي في غزوها تدمر كل شيء...

فما معنى هذا بالنسبة الى بيبرس؟!

معناه أنه أمام أقوى قُوَى الشرّ والجبروت والظُلْم والطغيان...

وها هم أولاء قد احتشدوا في ألوف بقيادة كتبغاأوين القائد الجبّار... وذراع هولاكو الطويلة...

هنالك دَوَّى في أعماق بيبرس صوت يناديه:

أي بيبرس... لقد ذُقْتَ الظُلْم... حين اختطفوك ثم باعوك...

وهؤلاء هم التتار... جاءوا ليدمروا مصر... التي لم يبق غيرها من البلاد لم تركع...

قُم بيبرس... وانتفض أيها العملاق... واضربهم بسيفك البتَّار!!!

فالتمعت عينا بيبرس ببريق رهيب!!!

وقرر أن يشترك في الحرب ضد التتار!!!

فما أن فاتحه السلطان قُطُز في نسيان الماضي... وأن يعاهده عهد الأبطال لمحاربة التتار...

حتى وافق بيبرس لفوره... ونحّى جانبًا الثارات التي بينه وبين قُطُز...

وأشار على قُطُز أن يعلن الحرب فورًا على التتار...

وأن يكون مظهر ذلك الاعلان... أن تُقتل رُسُل التتار... ويُطاف بها في شوارع القاهرة!!!

وعلى الفور تحرك قُطُز الى الشام... والتحم مع التتار في عين جالوت...

وكان القائد العام هو بيبرس الأسد الضاري...

وانقض بيبرس وفيه قوة ألف فارس أو تزيد...

يقتل ويقتل ويقتل!!!

إنه بيبرس... الذي ذاق الظلْم...

وإن عبقريته قد فجرَّها ظُلْم التتار... واجرام التتار... وانحطاط التتار!!!

وبعد انتهاء المعركة بهزيمة التتار... قاد بيبرس عملية ابادة القوات التي فرَّت من التتار في انحاء الشام... وقضى عليها قضاء تامًا!!!

وأخرى تفجَّرت فيها عبقرية بيبرس... النابعة من عقدة المملوكية... وهوانها وإذلالها ومرارتها...

إنها الفعلة التي تؤخذ عليه في التاريخ!!!

ألا وهي اغتياله للسلطان قُطُز حين كان السلطان عائدًا منتصرًا من عين جالوت...

لماذا فعل بيبرس هذه الفعلة... التي تعتبر النقطة السوداء في تاريخه؟!

فعلها لأنه يرفض الظُلْم في أي صورةٍ من صوره... ولو كان الظالم هو قُطُز... القائد العظيم... قاهر التتار!!!

إنَّ بيبرس بعد أن قُتِل أقطاي زعيم المماليك البحرية... وزعيمه...
تعرض للاضطهاد هو وزملاؤه من أمراء المماليك البحرية...
فلما خافوا التنكيل بهم وإلحاقهم بزعيمهم فرُّوا الى الشام...
وظلُّوا مشردين حتى هجوم التتار على الشام واستيلائهم عليه...
وكان بيبرس يعلم أنَّ قُطُز اشترك في تلك المؤامرة... مؤامرة الغَدْر بالأمير أقطاي... وقتله بالقلعة!!!
فلم ينسها لقُطُز... وانما نسيها الى حين محاربة التتار... أما وقد انهزم التتار...
فقد رأى بيبرس أن قد آن الأوان لأن يدفع قُطُز ثمن اشتراكه في قتل أقطاي!!!
وتفجَّرت في أعماقه عبقرية التصدي للظُلْم في أي صورة ظهر ذلك الظُلم... ولو كان هذا الظالم هو قطز نفسه!!!
وانقضَّ بيبرس... وغَدَر بقُطُز... كما غدر قُطُز بأقطاي!!!
ليس هذا دفاعًا عن فعلة بيبرس... فالغَدْر هو الغَدْر... ولا أحد يُجيز الغَدْر...
ولكن تحليلًا للدوافع التي فجَّرت من بيبرس تلك الفعلة الشنعاء!!!

العبقرية تتفجَّر إلى أقصاها بعد أن تسلطن؟!

فلما تسلطن بيبرس... وصار اسمه السلطان الملك الظاهر بيبرس...
ووُضِعت مقاليد البلاد كلها من أقصى السودان... مرورًا بمصر... والشام... الى حَلَب وما وراءها من بلاد الروم... وضعت مقاليدها بيده...

تفجَّرت العبقرية منه الى أقصاها ...

بحُكم الإمكانيات والمقدَّرات والسلطات المطلقة التي كانت تحت أمره...

فرأيته عبقريًا في معاركه كلها مع التتار...

آنا يفرّون منه... وآنًا يتساقطون قتلى أو أسارى تحت قدميه!!!

ورأيته عبقريًا... ثائرًا أشد الثورة وأعتاها... على ممالك الصليبيين الباقية بساحل الشام...

فلما أحسُّوا بأسه... منهم من استسلم... ومنهم من قاوم ثم انهارت قواه فسَلَّم...

وأعاد بيبرس كثيرًا من حصون وقلاع الفرنج الى بلاد الإسلام...

إنَّ عقدة المملوكية... عقدة ظُلْم المملوكية... وتحقير المملوك... وإهانة آدمية العبد المملوك...

هذه العقدة اذا صادفت شيئًا فيه ظُلْم... هاجت وماجت... واندفعت تزلزل الظالمين زلزالًا لا يقومون بعده أبدًا!!!

شخصية بيبرس؟!

قالوا:

« كان الملك الظاهر أسمر...

« أزرق العينين...

« جهوري الصوت...

« عليه مهابة وجلالة...

« وكان الى الطول أقرب.»!!!

هذه صفة الملك بيبرس... وهي تدل على شخصية نفَّاذة أخَّاذة... مؤهلة للقيادة والسيادة...

فإن من أهم صفات الشخصية القيادية... أن تكون ذات استعداد للبطولة والامتياز...

حتى يمكن لها السيطرة على مَن دونها من العاملين معها...

فكيف وبيبرس هنا ليس قائدًا وحسب... وإنما هو السلطان والملك والقائد الأعلى... والفاتح والقاهر للتتار والصليبيين...

فهو في مركز الزعامة المطلقة التي تستلزم توفر أعلى الصفات القيادية...

فهل كانت هذه الصفات متوفرة في شخصية بيبرس؟!

ولكن قبل أن نبحث عن توفر تلك الصفات في بيبرس... ينبغي أن نعرف أولًا: ما هي الصفات الواجب توفرها في شخصية الزعيم القائد المحرر للشعوب؟!

او: ما هي الصفات التي يتحتم توفرها في بطل التحرير؟!

سجَّل كتاب الله تلك الصفات في قوله:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا...

﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بالمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ...

﴿قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ...

﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ...

﴿وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ...

﴿وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(١)!!!

إنها القصة الخالدة الى يوم القيامة... الناس يعتقدون أنَّ مقومات الشخصية تقاس بمدى ما تملك من أموال... والله سبحانه وتعالى يُقَوِّم الشخصية بناموس ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾(٢).

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٤٧:

(٢) سورة الحجرات، آية ١٣.

وسيظل هذا التباين قائمًا الى يوم القيامة...

الله سبحانه ينظر الى ما في القلوب... ولا ينظر الى الصُور والأجسام...

ودرجات الناس عنده تقاس حسب نسبة الصفات العليا...

ولكن الناس يرفضون... ويُقوِّمون بعضهم بعضًا بنسبة ما يملكون من أموال!!!

وهذا غباء شديد من الناس... وانحطاط في التفكير...

فَزع بنو إسرائيل وقد ذاقوا الذل والهوان الى نبيٍّ لهم ليختار لهم زعيمًا... ليختار لهمْ مَلِكًا... يقودهم في حرب التحرير ضد أعدائهم...

فأخبرهم نبيهم ﴿إنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾...

وطالوت هذا... كان يعمل راعيًا للحمير في الجبال... يسوقها الى حيث ترعى في حشائشها... أي كان حَمَّارًا!!!

ففزع سادة بني إسرائيل... وصاحوا: ﴿أنَّى يكونُ لهُ المُلْكُ علينا﴾؟!!

إن شاؤول هذا لا علاقة بينه وبين الْمُلك وشئونه... فإن مهنته لا تؤهله البتَّة لأن يكون مَلِكًا!!!

﴿أنَّى يكونُ لهُ الْمُلْكُ علينا؟!!

﴿ونحنُ أحقُّ بالمُلْك مِنهُ!!!

﴿ولمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المال﴾!!!

منطق في حُكم العقول معقول... ولكن في حُكم الله غير مقبول!!!

إنَّ مؤهلات الزعامة... والمُلْك... عندهم هي المال... سَعَة من المال... ان يكون مليونيرًا على الأقل...

ومنهم عشرات أولو ملايين فلماذا لم يختر هذا النبي لهم واحدًا منهم؟!!

ماذا يقول نبيهم لهؤلاء الأغبياء المناكيد؟!

قطع عليهم خطّ الرجعة... وألقمهم حَجَرًا:

﴿إنَّ اللهَ اصطفاهُ عليكُمْ﴾!!!

إن الله قد اختاره ليكون مَلِكًا عليكم... فلا سبيل الى تغيير الاختيار!!!

ثم تنزَّلَ نبيهم الى عقولهم... وشرح لهم لماذا وقع الاختيار على طالوت... أو شاؤول... ولم يقع على أحد أغنيائهم؟!!

﴿وزادَهُ بَسْطَةً في الْعِلْمِ...

﴿والْجِسْمِ...﴾!!!

هاتان هما الصفتان اللتان يتحتم توافرهما في الشخصية التي يقع عليها الاختيار لقيادة شعب ما... في حرب التحرير... ضد اعدائه!!!

بَسْطَةً في العِلْمِ؟!!

أيُّ عِلْمٍ يُراد هنا؟!!

عِلْمِ سياسة الشعوب المقهورة المغلوبة على أمرها... وكيف تخليصها من الهوان الذي يتغلغل في تركيبها... وكيف يَستنهض همَّتها... ويبعث الأمل في نفوسها...

علم لا يُؤخذ من مدرسة ولا معهد ولا جامعة...

لأنه عبقرية منفردة... يهبها الله لمن شاء من عباده... للقيام بدور تخليص الشعوب من الاستعباد...

عبقرية موهوبة... وكانت متوفرة في هذا الراعي الفقير... الذي يتتبع الحمير في الوديان والجبال!!!

كانت هذه العبقرية مكنونة في طالوت هذا رغم حقارة مهنته!!!

ثم ماذا؟!!

ثم لا بد من توافر صفة أخرى... هي القوة البدنية... اللياقة البدنية... ليكون قادرًا على القتال والجهاد والنضال... ومصارعة الأبطال...

هاتان هما الصفتان اللازمتان... المتوفرتان في طالوت...

عبقرية تجعله شفَّافًا حسَّاسًا... يستطلع الأحداث من بعيد... ويدرك أعماق الأمور...

وقوة في الجسم تؤهله للصراع والنضال والالتحام!!!

فهل كانت هاتان الصفتان متوفرتين في بيبرس؟!

نعم... ثُمَّ نعم!!!

أمَّا بَسْطَةً في العِلْم... اي عبقرية قيادة الشعوب... وحشدها في معارك خارقة لاستخلاص حقوقها من أعدائها...

فقد كانت هذه الصفة أبرز صفات بيبرس على الاطلاق!!!

كان بيبرس رجلَ دولة على أوسع ما يكون رجل الدولة... من مكرٍ ودهاء وكَرٍّ وفَرٍّ... وإقدامٍ وإحجام... ولين وتصلّبٍ... وهجوم وتراجع... ومخادعة ومراوغة...

حتى تستتم أمامه الفرصة التي تحقق النصر الساحق على عدوه... فإذا آنس مواتاة الفرصة... وَثَبَ وثبة الأسد الضاري... فالتهم فريسته التهامًا!!!

وكان اعداؤه يعرفون منه ذلك... وأنه اذا هاجم كان معنى هذا أنه تأكد لديه النصر... فكانوا يسارعون الى الاستسلام قبل نزول القَدَر المحتوم!!!

كان بيبرس زاده الله بَسْطَةً في العِلْم...

ليس علم الفقه والحديث والتفسير... أو الكيمياء والجبر والهندسة... كلا فهذه كلها علوم تافهة يمكن تحصيلها بالمدارسة والتحصيل...

إنما عِلْمٌ وراء ذلك الأفق التافه...

عِلْمٌ يختص الله به من يشاء من عباده... الذين عندهم استعداد لحمل تبعاته وتكاليفه...

عِلْم قيادة الشعوب الى أفق أعلى... الى حياة الحرية والتحرر...

علم سياسة الشعوب الى ما يُحييها ويبعثها من مواتها... الى القتال... قتال الذين نهبوا أوطانها... وسرقوا شرفها... وأسروا رجالها... واسترقوا نساءها...

عِلْم حرب التحرير... وحرب التنوير...
عِلْم تحويل العبيد الى سادة...
والمقهورين الى قاهرين...
والمظلومين الى منتقمين من ظالميهم!!!
إنَّه أشرف عِلْم... وأعزّ عِلْم... وأندَر عِلْم...
إنه عبقرية قيادة الشعوب الى الآفاق العليا...
وقد كان هذا متحققًا من شخصية بيبرس أتمّ التحقق!!!
وأمَّا بَسْطَةَ في الجسم... فقد كانت واضحة أتم الوضوح في شخصية بيبرس...
فقد كان بطلًا بكل صفات البطولة!!!
ورجلًا بكل صفات الرجولة!!!
فإنَّ الذي تصَدَّى لآلاف الفرسان الفرنسيين في معركة المنصورة... ثم احتزَّ عنق آرتوا قائدهم... وانقلب يَؤُزُّ أعناقهم أزًّا...
إنَّ مَن يفعل هذا من الحتم أن يكون ذا بسطة في الجسم...
أن يكون أقوى من هؤلاء جميعًا... وقد كان الأمير آرتوا أشجع فرسانهم... ومع هذا احتزَّ بيبرس عنقه القبيح!!!
وإنَّ الذي كان فارس الساعة في معركة عين جالوت...
كلما ضعفت ثغرة من صفوف المسلمين... سارع اليها ومعه صفوة الفرسان ليستنهض عزيمتها...
إنَّ من كان هذا شأنه في كل معركة خاضها... لا بد أن يكون قويًا قوة خارقة... لينتزع النصر من أنياب الأسد!!!
كان بيبرس أسَدًا ضاريًا دائمًا في كل معركة!!!
وهكذا... زاده الله بَسْطَةً في العِلْمِ والْجِسْمِ...
ومن هنا كان اختياره ليؤدي دور البطولة في ملحمة تحرير الشعوب!!!

﴿إنَّ اللهَ اصطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾؟!
لماذا اختاره ليكون مَلِكًا؟!
الجواب: ﴿وزادَهُ بَسْطَةً في الْعِلْمِ والْجِسْمِ ...﴾!!!
فالامداد على قدر الاستعداد...
﴿واللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ...﴾!!!

شخصية بيبرس في نظر الإسلام؟!

السؤال هو:
هل السلطان بيبرس يعتبر شخصية اسلامية؟!
هل يعتبر حاكمًا مسلمًا؟!
هل كان يطبق تعاليم الاسلام؟!
هل هو نموذج للحاكم المسلم؟!
وهذه كلها أسئلة متقاربة متداخلة يمكن الجواب عليها مرة واحدة فنقول:
ثبت عندنا اثناء التغلغل في تفاصيل حياة بيبرس... أنه حاكم اسلامي... يُطَبِّق أحكام الاسلام... في الداخل والخارج... ويحتكم الى كتاب الله وسُنّة رسول الله (ﷺ)... ما استطاع الى ذلك سبيلًا...
وأن بيبرس كان ابن عصره... وابن زمانه...
حيث لم يكن ممكنًا لحاكم يحكم أمة من المسلمين أن يستمر في الحُكْم إلا اذا كان منتسبًا الى الدين من قريب أو من بعيد...
بل كان الملوك في عصر بيبرس... يتسابقون الى الانتساب الى الدين حتى في أسمائهم...
فهذا ركن الدين... وهذا حسام الدين... وهذا فخر الدين... وهذا

صلاح الدين... وهذا سيف الدين...

الأسماء كلها منتسبة الى الدين... لأن العصر كان عصر صراعات دينية... بين المعسكر الصليبي من جهة... والمعسكر الاسلامي من جهة أخرى...

فلكي يستحوذ حاكم ما على مشاعر شعب ما... لا بد له من الظهور بمظهر حامي الدين... والمدافع عن المقدسات... والمستخلص لبلاد المسلمين... من أيدي الفرنج الكافرين...

ونفس المفاهيم كانت هي السائدة عند الفرنج...

البابا ينفخ في صدور الأوروبيين ليخرجوا لقتال الكفرة المسلمين... أعداء الدين... ولتخليص بيت المقدس من الأنجاس المسلمين!!!

وكان ملوك الفرنج كذلك يتسابقون في الانتساب الى الدين... في أسمائهم... وأزيائهم... حتى زينة خيولهم كانت تتخذ الصلبان أساسًا في زخرفها!!!

العصر اذًا عصر الدين... والصراع صراع الدين... والتسابق كان من أجل اعزاز الدين... والقضاء على أعداء الدين!!!

وجاء بيبرس في قلب الصراع الصليبي... فهو حلقة من حلقات السلسلة...

وشهد معركة صليبية كبرى... على رأسها لويس التاسع ملك فرنسا... شهدها وأبدع فيها ابداعًا عَجَبًا!!!

وما كان بيبرس بمثل هذه البطولة فيها الا لما اشتعل في أعماقه من الثورة لنصر دينه دين الإسلام!!!

وحين دعاه السلطان قُطُز ليتعاون معه في حرب التتار...

مَدَّ يديه اليه... وعاهده عهد الرجال... ليقاتلن معه التتار... انتصارًا للاسلام!!!

وزأر بيبرس فيها ... وكان زئيره يزلزل قلوب التتار ... فتساقطوا كما يتساقط الفراش في النار!!!

فلما تسلطن بيبرس تَلَقَّب بـرُكـن الديـن بيبرس ... لينتسب الى الدين!!!

وعمل على احياء الخلافة التي قضى عليها هولاكو حين دمَّرها ودمَّر بغداد ...

فكان هذا عملًا يدل على مدى تغلغل العقيدة الدينية في تركيب بيبرس ...

وأُقيم الخليفة المستنصر بالله ... بالقاهرة ...

وبايعه الملك الظاهر والناس بالخلافة ...

بيبرس يبايع الخليفة على كتاب الله ؟!

إلا أنَّ أدلّ الدلائل على تغلغل العقيدة الاسلامية في شخصية بيبرس هو ما هو آت:

١ ـ « وبايعه السلطان على:

٢ ـ « كتاب الله ...

٣ ـ « وسُنّة رسوله عليه السلام ...

٤ ـ « والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ...

٥ ـ « والجهاد في سبيل الله ...

٦ ـ « وأخذ أموال الله بحقها ... وصرفها في مستحقها »!!!

ولو أنك أردت أن تُرَكِّز الاسلام كله في كلمات معدودات ... تكون دستورًا لكل حاكم يحكم المسلمين ...

لكانت هي هذه الكلمات التي بايع بيبرس... الخليفة المستنصر بالله عليها!!!

وماذا بقي من أمهات الاسلام بعد أولئك الستّ؟!!

ولو أنك تابعت حياة بيبرس كلها خلال سنوات حُكْمه لوجدتها تدور في هذه الكلمات ما استطاع!!!

كما قُلْتُ لك كان العصر عصر الحروب الصليبية... ثم أُضيف اليها الحروب التترية...

وكان بيبرس ابن عصره!!!

دعائم مُلكه تستند الى أساس ديني... الى العقيدة الإسلامية...

وكان بيبرس شديد الحماس لدينه... مستعدًا في أي لحظة أن يبذل حياته... وحياة الملايين... دفاعًا عن الاسلام!!!

وهذه هي نقطة الإشعال في شخصيته الجميلة!!!

فهو ليس طبلًا أجوف... زعيمًا تافهًا... يريد الانتفاخ بالصراخ... وإنما هو عبد من عباد الله... ابتلاه الله أن يتسلطن على العباد...

فهو مسئول عنهم أمام الله...

ومسئول عنهم أمام نفسه...

وهذا المفهوم يعطيه قوة دافقة في شخصيته...

فاذا تصرَّف تصرَّف من منطلق كريم... يرقب فيه ربه ويتقيه!!!

مشاهد تبرهن على صِدْق بيبرس في عقيدته؟!

ها هي رسالة تهديد... من أبْغا ملك المغول... بعد هولاكو... الى الظاهر بيبرس:

«أنت مملوك بعت بسيواس...

«فكيف يصلح لك أن تخالف ملوك الأرض؟!.

«واعلم أنك لو صعدت الى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت مني... فاعمل لنفسك على مصالحة السلطان أبغا.»!!!

وها هو جواب الملك الظاهر بيبرس على تلك الرسالة الوقحة:

«اعلموا أني من ورائه بالمطالبة لا أزال...

«حتى انتزع منه جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض.»!!!

هذا هو جواب بيبرس... وواضح فيه أن تفكيره تفكير اسلامي... إنه يخطط ليستعيد جميع البلاد التي نهبها هولاكو من بلاد المسلمين!!!

واليك رسالة أخرى تبرهن الى أي مدى كانت العقيدة الاسلامية هي أساس تحركات الظاهر بيبرس؟!.

أغار الملك الظاهر بيبرس على ضواحي طرابلس... فأرسل اليه صاحبها يقول:

«ما مراد السلطان في هذه الأرض؟»

فكان جواب السلطان عن الرسالة السابقة الى أمير طرابلس:

«جئت لأرعى زروعكم... وأخرب بلادكم... ثم أعود إلى حصاركم في العام الآتي.»!!!

إنه يتعزَّز بدينه... ويُغلِظ القول لهؤلاء الفرنجة الذين جاءوا ونهبوا

بلادًا اسلامية... ويريدون أن يبقوا فيها... ولكن هيهات هيهات إنَّ من ورائهم بيبرس!!!

إلا أنَّ المشهد الذي هو البرهان الأعظم على أن بيبرس كان يتصرف دائمًا على أساسٍ من عقيدته الاسلامية... هو هذا المشهد:

« في السنة الثانية والسبعين بعد الستمائة...

« خرج السلطان من القاهرة وتوجه الى الشام... بسبب تواتر الأخبار بحركة أبغا... ملك التتار...

« ثم تواترت عليه الأخبار في أثناء الطريق بقوة حركته...

« فكتب باستدعاء العساكر من الديار المصرية...

« ورسم بأن جميع مَنْ في مملكته... ممن له فرس... يركب للغزاة...»!!!

بيبرس هنا... حين علم أن ملك التتار قادم في حشد هائل لغزو بلاد الاسلام...

أصدر أمرًا باستدعاء الجيش المصري الى الشام...

وأصدر مرسومًا بتعبئة الجميع... جميع الشعب المصري والشامي... يخرج الى القتال فورًا...

الجيش كله في مصر والشام!!!

والشعب كله في مصر والشام!!!

وعلى رأس الجميع... وقبل الجميع... الأسد الضاري بيبرس!!!

هذا المشهد الرهيب العظيم... برهان ساطع قاطع على أن بنيان بيبرس كانت لبناته شرائع الاسلام!!!

إنَّ بيبرس هنا يُنَفِّذ حُكْم الإسلام المتفق عليه... اذا وطئت أقدام الغزاة أرض الاسلام... وجب القتال على كل رجل وكل امرأة!!!

ومشهد آخر... فيه برهان آخر... على مدى اشعاع العقيدة

الاسلامية في قلب الملك بيبرس؟!.

في السنة الخامسة والسبعين بعد الستمائة...

«لما قوي خبر هجوم التتار على البلاد الشامية واشتد عزمهم على ذلك...

خرج السلطان من الديار المصرية يوم الخميس العشرين من رمضان من هذه السنة... ومعه العساكر والجنود!!!

وسار معهم... فدخل دمشق!!!

ثم سار ومعه العساكر حتى دخل حلب...

وسار السلطان... ولما وصل الى النهر الأزرق...

تحرك تُوقُو وتُدَاوُن ومن معهما من عسكر التتار الذين انتقاهم أبغا واختارهم...

وقاتلت التتار مع المسلمين قتالًا شديدًا...

فأنزل الله نصره على المسلمين... وقتلوا منهم خلْقًا كثيرًا... وقُتِل من المسلمين أيضًا جماعة»!!!

لقد كان السلطان هنا على رأس الجيش كما هي عادته... وفي قلب المعركة... يقاتل قتالًا شديدًا...

إنَّه هنا يُمثل صفات القائد المسلم... أن يكون هو أول مَن يلقى العدو!!!

ومشهد آخر أشد إظهارًا لحقيقة بيبرس الاسلامية...

«في السنة الثالثة والستين بعد الستمائة...

«ومن حوادثها:

«انه قطع أيدي جماعة من نواب الولاة... والمقدمين... والحقراء... وأصحاب الرباع بالقاهرة...

«وسببه أنه نزل القاهرة بالليل متنكرًا ليرى أحوال الناس...

«فرأى بعض المقدمين... وقد أمسك امرأة وعراها سراويلها بيده... ولم يجسر أحد أن ينكر عليه.»!!!

هذا مشهد واضح فيه روح الاسلام... إن هذا المجرم الذي يحاول ان يكشف عورة المرأة ولا أحد ينكر عليه... هؤلاء جميعًا أمر السلطان بقطع أيديهم... لأنهم لصوص أعراض... أو متسترون على اللصوصية القذرة!!!

ولو ذهبنا نتتبع تصرفات بيبرس الدالة على أن مفاهيمه مفاهيم حاكم مسلم... يحكم شعبًا مسلمًا... للزمنا أن نستعرض حياته سلطانًا كلها... وهذا أمر يطول... وإنما قدمنا مشاهد معدودة للبرهنة على النظرية... نظرية أن السلطان بيبرس كان شخصية اسلامية... بكل معاني الاسلام الشاملة المتكاملة!!!

فلا فصل عند بيبرس بين الدين والدولة... كما يتنادى صعاليك الفكر... من الحاكمين والمحكومين في هذا العصر المضطرب!!!

وإنما الاسلام عند بيبرس... هو كل شيء... دنيا ودين...

هو نظام كامل شامل... لم يدع شيئًا من أمور الآخرة أو أمور الدنيا... الا نظّمه ابدع نظام...

وأنَّ الأمة السعيدة هي تلك التي أخذت به في أمورها كلها...

والأمة الملعونة الشقية هي تلك التي أعرضت عنه... أو أخذت بشيء يوافق هواها وتركت أشياء!!!

كان السلطان بيبرس يفهم أحسن الفهم ما هو الاسلام؟... وكيف تطبيق الاسلام؟!... وكيف تكون السياسة الخارجية حسب الاسلام؟!... وكيف يكون الحُكْم في الداخل حسب الاسلام؟!

مفخرة عصر بيبرس كان العزّ بن عبد السلام؟!

وكيف لا يفهم بيبرس الاسلام الفهم الصحيح... وكان عصره عصر العلم وأساطين العلماء؟!

كيف... وفي عصره عاش سلطان العلماء... العزّ بن عبد السلام... وتوفاه الله في أثناء حُكْمه؟!

أتظن أن مَلِكًا يُعَظِّم حرمة عالم فذٍّ جليل كالعَزّ بن عبد السلام... وغيره من علماء المذاهب الأربعة... وينشئ لها المعاهد... ويوقف لها الأوقاف...

ويحفظ للعلماء حرمتهم... وينزل على حُكمهم... حفظًا لحرمة الاسلام... واجلالًا لأحكام الله...

أتظن أنَّ مثل هذا السلطان الجليل لا يفهم الاسلام الفهم الصحيح؟!

ومَن ذا الذي يفهم الاسلام إن لم يفهمه الملك الظاهر بيبرس؟!

مَن قهر التتار... اعزازًا لدين الله؟!

مَن أذلَّ الصليبيين... وانتزع حصونهم وقلاعهم وطاردهم وأجلاهم عن ساحل الشام... ارضاء لله؟!

مَن أمَرَ بإراقة الخمور في جميع أنحاء المملكة... وتوعد بإعدام المتجر فيها؟!

مَن أمر أن يكون لكل مذهب من المذاهب الأربعة قاض يحكم بأحكام مذهبه تخفيفًا عن الناس؟!

مَن قطع أيدي الولاة ومن يجرؤ على ذلك غير بيبرس؟!

مَن فعل هذا كله... كان حتمًا أن يكون حاكمًا مسلمًا... يفهم الاسلام فهمًا صحيحًا... ويطبقه تطبيقًا مستقيمًا!!!

ما كان بيبرس ليعطل شيئًا من أحكام الإسلام بدعوى يدعيها

منافق كذّاب جهول يزعم أنّ الاسلام لا يواكب مدنية اليوم!!!

وإنما كان بيبرس شعلة مضيئة تتوهج بالمفاهيم الإسلامية الرائعة الجميلة!!!

يجد في الإسلام جميع ما يحتاج اليه الحاكم في ادارة شئون بلاده دوليًا وداخليًا...

فالاسلام دين ودولة... قرآن وقوة!!!

وكان بيبرس هو الصورة العملية البهيجة للاسلام حين يُطَبَّق تطبيقًا كاملًا في دولة تؤسس على عناصره المقدسة!!!

مشهد خالد من العزّ بن عبد السلام...
ثم موقف رائع من بيبرس؟!

نحن الآن أمام مشهد تظهر فيه رائعتان بديعتان...

رائعة من العزّ بن عبد السلام...

ورائعة من السلطان بيبرس...

قالوا:

« وممن اتصل بهم الشيخ... السلطان الظاهر بيبرس... ملك مصر...

« وكان بيبرس يهاب الشيخ... ويجله ويخشاه... ويستشيره في أموره...

« ولم يبايع خليفة من الخليفتين اللذين بايعهما من بني العباس... قبل أن يبايعه الشيخ عزّ الدين...

« ومن مواقفه الرائعة مع بيبرس أنه حينما أراد أن يأخذ البيعة لنفسه بالسلطنة...

« جمع الناس من الأمراء والقضاة والعلية...

« وكادت البيعة تنعقد له... لولا أن امتنع الشيخ عزّ الدين عن مبايعته...

« لأنه لم يثبت لديه عتق بيبرس وحريته!!!

« وقال له: « يا ركن الدين!... أنا أعرفك مملوك البندقدار »؟..

« فاستحضر بيبرس شهودًا شهدوا بخروجه من ملك البندقدار... وأنه صار حرًا...

« فبايعه الشيخ... »!!!

اقول: ها هنا عظيمتان خالدتان...

عظيمة من سلطان العلماء... أنه لا يخشى في الله لومة لائم...

وعظيمة من السلطان بيبرس أنه يخضع للحقّ... ولا يأنف من اتباعه!!!

بيبرس يقول يوم وفاة العزّ بن عبد السلام:
اليوم استقرَّ أمري في المُلْك؟!

« قيل: إن الشيخ لما توفي... ومرت جنازته تحت القلعة...

« وشاهد الملك الظاهر كثرة الخلْق فيها...

« قال لبعض خواصه:

« اليوم استقرّ أمري في الملْك...

« لأن هذا الشيخ... لو كان يقول للناس: اخرجوا عليه...

«لانتزع المُلْك مني...» !!!

اقول... إن بيبرس هنا يقرر حقيقة... أعماقها...

أنَّ العزّ بن عبد السلام له سلطان على الجماهير لا يُقاوَم!!!

لقد رُعب السلطان بيبرس... من عظمة سلطان العلماء... حيًّا وميْتًا...

كان يخشاه حيًّا... ويعمل له ألف حساب...

وها هو يتنفس الصعداء ويقول: اليوم استقر أمري في المُلْك!!!

لماذا كان السلاطين يهابون العلماء ؟!

نعم... لماذا كانوا يهابون العلماء... والآن لا يقيم الحاكم وزنًا للعلماء ؟!

ما الذي حدث... فغَيَّر الأمور ؟!

الجواب... هذه قضية خطيرة... لها أبعاد عميقة جدًّا!!!

كان السلاطين في عصر السلطان بيبرس... وغيرهم من السلاطين... يهابون العلماء لأسباب...

أنَّ سلطان الدين كان أعظم على الشعوب...

فالمفتي باسم الدين له سلطان عظيم على الجماهير...

أمّا الآن فالجماهير لا تعطي الشعور الديني حقَّه من القداسة والتعظيم...

فإذا أفتى العالِم الآن... كان استقبال الناس لفتواه فاترًا... لأن إحساسهم بالدين أصابه الفتور...

إنَّ الدولة كانت تُحكم بشريعة الإسلام في كل شيء...

فالحاكم يُنفِّذ رسميًا أحكام الإسلام... والشعب يمتثل لهذه الأحكام بحُكم عقيدته الدينية...

فإذا تحدَّث عالم ذلك الزمان في أمر من الأمور... أصغت إليه آذان الحاكم والمحكومين...

أمَّا الآن فالدولة بعيدة عن اكثر شرائع الإسلام... والشعب بعيد عن تلك الشرائع...

فإذا تحدَّث العالِم عن الإسلام... لا يُلتفَت إليه... لأنَّ الأمر لا تمسّ واقع حياتهم في شيء!!!

كان العلماء... كثير من العلماء... في أيام السلاطين يَخشَوْن الله... ويحتسبون جهادهم عند الله...

فلا سُلطان للسُلطان على العالم... لأنَّ العالِم لا يخشى أحَدًا إلا الله...

ويرى السلطانَ لا حول له ولا قوة... لأنَّ الأمر بيد الله وحده...

وأقاصيص العزّ بن عبد السلام... ومواقفه مع السلاطين في هذا السبيل مشهورة!!!

فكلّ زمان له ظروفه...

فليس علماء اليوم أقلّ عِلْمًا من علماء السلاطين في سالف الزمان...

ولكن أقلّ اخلاصًا لله... وأقل احتسابًا لوجه الله!!!

فقد يوجد اليوم مَن هو أعلم... ولكن لا يتوفر فيه شرط الاخلاص... الذي هو روح الاسلام...

وإن وُجد عنصر الإخلاص في عالِم اليوم... جاءه الإحباط من أنه غريب يتكلم عن أشياء لا تعني الحاكم ولا تعني المحكوم!!!

فإذا سمعت أنَّ العزَّ بن عبد السلام... كان يزلزل عروش السلاطين... فلا تعجب فإنَّ الأمر ليس في اخلاص العزّ وحده...

ولكن لأن السلطان كان يَحكم بالإسلام... والشعب كان يمتثل للإسلام...

كلاهما يُعَظِّم فتاوى العزّ تعظيمًا للإسلام... لا لشخص العزّ بن عبد السلام!!!

أمّا الآن فالعلماء مساكين... لا حول لهم ولا قوة!!!

الحياة في وادٍ... وفتاواهم في واد!!!

ويوم يعود الإسلام... فيتغلغل في واقع حياة الناس...

فتنتظم الدولة على الإسلام... كما كانت في عهد بيبرس...

وتكون الأخلاق السائدة في الشعب هي أخلاق الاسلام...

يومئذ يتحدث العالِم فيجد آذانًا صاغية من الحاكم والمحكوم على السواء...

يومئذ اذا وُجد العالِم المخلص... الذي يعمل لوجه الله...

وُجِد السلطان الذي يهاب ذلك العالِم...

ووُجِد الشعب الذي يتبع توجيه ذلك العالِم...

لماذا؟!

لأن الإسلام نَزَلَ الى واقع حياة الناس!!!

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ...

﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ...

﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1]!!!

فالمعجزة ليست في العزّ بن عبد السلام...

ولكن المعجزة في الإسلام!!!

---

(١) سورة النساء، آية ٦٥.

كان مَلِكًا جليلًا ؟!

قالوا :

« كان شهمًا ... شجاعًا ... سخيًّا ...

« عالي الهمَّة ...

« بعيد الغور ...

« مقدامًا ...

« جسورًا ...

« مُعْتنيًا بأمر السلطنة ...

« متحليًّا بها ...

« له قصد صالح في نصرة الإسلام وأهله ...

« وإقامة شعائر المُلك ... » !!!

وقالوا :

« وكان مَلِكًا جليلًا ...

« شجاعًا ...

« مهيبًا ...

« حسن السياسة ...

« كثير التحيُّل ...

« وكان عسوفًا جبَّارًا ...

« كثير المصادرات للرعية والدواوين خصوصًا لأهل دمشق ...

« وكان مُتنبِّهًا ...

« شهمًا ...

« لا يفتر ليلًا ولا نهارًا عن مناجذة الأعداء ... ونصرة الإسلام ...

« وكان مقتصدًا في ملبسه ومطعمه ...

« وكذلك جيشه ... » !!!

★ ★ ★

اقول ... لست أدري ماذا أقول بعد الذي قالوا ؟!

وماذا يكون تكامل الشخصية إن لم يكن هو هذا التكامل الذي نراه من شخصية بيبرس ؟!!

مَلكٌ جليل ... وفارس جميل !!!

أُوتي أسباب المُلْك ...

فيه ـ فيما أرى ـ كثير من شخصية ذي القرنَيْن ...

كان ذو القرنين مَلِكًا عظيمًا ... ذا شخصية مهيبة ... آتاه الله أسباب كل شيء ... فاستعملها في فتْح البلاد ... والعَدْل في العباد !!!

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ★

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ★

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا .﴾[1] !!!

وإنَّ أعظم الناس مَلِكٌ آتاه الله أسباب المُلْك ومَكَّنَ له في الأرض... فاستعمل ما آتاه الله في تحقيق العدل بين الناس ...

وكان ذلك هو ذو القرنين !!!

وكان من نفس النوع المَلِك الظاهر بيبرس !!!

آتاه الله من كل شيء سَبَبًا ... فأتبَعَ سَبَبًا ...

انطلق يستعمل أسباب المُلْك التي أُوتيها ...

في العدل بين الناس في داخل مملكته الممتدة مما وراء حلب شمالًا ... الى اقصى السودان جنوبًا ...

فكان عادلًا ... وحكيمًا ... وآمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر ...

---

(١) سورة الكهف، آيات ٨٣ ـ ٨٥ .

ومُطبِّقًا لشرائع الإسلام... وشاعرًا بآلام الفقراء... وضاربًا على أيدي الفجّار والطغاة!!!

كما كان يفعل ذو القرنَيْن: ﴿قالَ أمّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ★

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْرًا.﴾[1]!!!

وقد كان كذلك بيبرس - فيما نرى -

كان ضاربًا على أيدي المجرمين... مُكرِمًا للأتقياء والصالحين!!!

ويؤمن بالله فوق ذلك!!!

وأمّا في الخارج... فقد انطلق بيبرس... يَصُبُّ جميع ما آتاه الله من الأسباب... في سبيل الله... واعلاء دينَ الله... والانتصار لدين الله!!!

كان فارسًا... بل فارس الفوارس...

هو دائمًا في الطليعة من صفوف جيشه!!!

يخرج من غزوة... ليدخل الى غزوة!!!

ويعود من قتال... ليستعد لقتال!!!

كم ألقى بنفسه الى الموت... فقال له الموت: ليس الآن!!!

كم دَوَّخ التتار... وأذلَّهم... وبدَّد أحلامهم!!!

وكم هدم من الحصون... واستولى على القلاع... وارعب ملوك الفرنج بالشام وغير الشام... فألقى فرنج الساحل اليه ما شاء!!!

وجاءوا اليه... وقَبَّلُوا الأرض بين يديه!!!

وفي الجنوب فتح السودان الى أقصاه المعلوم حتى ذلك الزمان!!!

وفي الشمال تجاوز حلب... واقتحم آسيا الصغرى... وفرض ما شاء من شروط!!!

---

(١) سورة الكهف الآيتان ٨٧ - ٨٨.

شخصية نبيلة جليلة... جميلة؟!

ثبت عندي ذلك... اثناء تجوالي في تفاصيل حياته!!!

فرأيته عبقريًّا فَذًّا!!!

ورأيته مَلِكًا بكل مقتضيات المُلْك... من مهابة... وسُلْطة... ويقظة... واحتيال... وألاعيب السياسة!!!

ما كان بيبرس أبْلَهَ كأولئك الملوك البُلْه... الذين يفقدون عقولهم... أمام بهرج عروشهم!!!

ولكن كان عميق الفكرة... واسع الحيلة... يتحيل لخصومه... فإن أبَوْا انقضَّ عليهم بالقوة فاستسلموا نادمين!!!

ورأيته مثالًا لنعمة الله... اذا أراد أن ينعم على عباده... فيَمُنّ عليهم بمَلِك رحيم!!!

ثم رأيته مثالًا للمَلِك المسلم... الذي يرى حياته هي الاسلام... والاسلام هو الحياة!!!

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ...

﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ...

﴿وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ...

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ...

﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ...

﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ...

﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [1]!!!

---

(١) سورة آل عمران، آية ٢٦.

سلطنة . . .

السلطان الملك السَّعيد . . .

بعد وفاة والده . . .

الملك الظاهر . . .؟!

سلطنة السُّلطان الملك السَّعيد

ناصر الدين بركة خان؟!

استقر في السلطنة بعد وفاة والده الملك الظاهر...

وكان استقراره في شهر ربيع الأول...

سنة ست وسبعين وستمائة...

وذلك أن الأمير بدر الدين بَيْلَبَك الخزندار كما وصل بالعساكر الى الديار المصرية...

ألقى المقاليد إليه...

ووقف بين يديه...

واستمر على مناصحته وطاعته... كما كان مع أبيه...

وفي يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر صفر... خطب في جميع الجوامع بالديار المصرية للملك السعيد...

موكب السلطان؟!

وفي منتصف ربيع الأول...

ركب السلطان الملك السعيد... بالعصائب على عادة أبيه...

وبين يديه الجيش بكماله... الشاميّ والمصريّ... حتى وصل إلى الجبل الأحمر...

وفرح الناس به فرحًا شديدًا...

وعمره يومئذ تسع عشرة سنة!!!

وعليه أبّهة الملك... ورئاسة السلطنة...

واستقر الأمير بدر الدين بَيْلَبَك الخزندار في نيابة السلطنة... على ما كان عليه مع والده!!!

تم

كان الفراغ من التأليف يوم الخميس ٣ ربيع الثاني ١٤١٠ - ٢ نوفمبر ١٩٨٩.

سبحانك اللهم وبحمدك...

أشهد أن لا إله إلا أنت...

أستغفرك وأتوب إليك.

فهرس

صفحة

ماذا في هذا الكتاب ؟!

فيه حياة... الأسد الضّاري!!!

السلطان الملك الظاهر... بيبرس!!!

البطل الذي انتزع النصر من أنياب مائة وخمسين ألف فرنسي بقيادة الملك لويس التاسع في معركة المنصورة!!!

البطل الذي قهر التّتار... ودمَّر الصليبيين... في وقت واحد!!!

المملوك الذي صار مَلِكًا... فلمَّا تسلطن خضعت له الملوك!!!

مدحوه فقالوا:

يـا مَـن تُسَـاق لـه التتـا ... ر غنيمـة مثـل الغَنَـم!

لا زِلْـتَ يـا ملـكَ الزمـا ... ن لـك الملـوك مـن الخَدَم!

وقالوا:

كم للفـرنـج وللتتـار ببـابـه ... رُسُلٌ مُنـاهـا العفـو والإعفـاء!